العربية وعلم اللغة البنيوى

دراسة فى الفكر اللغوى العربى الحديث

الدكتور حلمى خليل
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

١٩٩٦

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - إسكندرية
ت : ٤٨٣٠١٦٣

العربية وعلم اللغة البنيـوى

العربية وعلم اللغة البنيوي

دراسة في الفكر اللغوي العربي الحديث

الدكتور حلمي خليل

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

١٩٩٦

دار المعرفة الجامعية

٤٠ ش سوتير - الازاريطة - ت ٤٨٣٠١٦٣

٣٨٧ ش قنال السويس - الشاطبي ت ٥٩٧٣١٤٦

حقوق الطبع محفوظة

دار المعرفة الجامعية
للطبع والنشر والتوزيع

❋ الادارة : ٤٠ شارع سوتير
الازاريطة ـ الاسكندرية
ت : ٤٨٣٠١٦٣

❋ الفرع : ٣٨٧ شارع قنال السويس
الشاطبي ـ الاسكندرية
ت : ٥٩٧٣١٤٦

إهداء

الى عمـــــاد ...

وريـــم ...

مقدمة

علم اللغة البنيوى Structural Linguistics : علم يقوم على أساس أن تحليل أى عنصر من عناصر اللغة لا يمكن أن يتم بمعزل عن بقية العناصر اللغوية الاخرى وهو من ناحية أخرى نظرية لغوية تطبق المنهج الوصفى فى فحص اللغة ودراستها ، فتنظر اليها على أنها وحدات صوتية تتجمع لتكون وحدات مورفولوجية لتكون هذه بدورها جملا وعبارات • وقد بلغت هذه النظرية ، أو هذا العلم أوجه فى الفترة من ١٩٢٥ الى ١٩٥٠ على يد عالم اللغة الامريكى ليونارد «بلومفيلد» وتلاميذه •

وبهذا المعنى يصبح علم اللغة البنيوى هو الصيحة التى جمعت بين مدارس لغوية مختلفة فى القرن العشرين ، بحيث يمكن القول بأن المدارس اللغوية الحديثة منذ « د ى سوسير » وحتى «تشومسكى » تنتمى الى علم اللغة البنيوى بصورة أو بأخرى ، لانها جميعا تؤمن بأن اللغة عبارة عن نظام من العلاقات ترتبط فيما بينها بعلاقات عضوية من التوافق أو الاختلاف ، تبدأ من الكلام الى الجملة ، الى الكلمة ، وحتى تنتهى الى السمة المميزة لاصغر وحدة صوتية فى اللغة مثل الجهر والهمس والشدة وغيرها •

ولعل هذا ما جعل « جان بياجيه » يطلق على نظرية تشومسكى اسم « البنيوية التحويلية » Transformational Structuralism مؤكدا أن اهتمام تشومسكى بالجملة وحدها أو بالطابع الابداعى للغة لا ينفى عن نظريته الصبغة البنيوية العامة[1] • بل يذهب بعض مؤرخى

---

(١) Piaget, Jean, Structuralism p.p. 81-82

الفكر اللغوى الحديث والمعاصر الى أن نظـرية تشومسكى هى نظرية متأثرة فى كثير من جوانبها بالمذهب التوزيعى distributionalism (٢) والتوزيعية ، كما سنرى خلال هذا البحث تمثل قمة النزعة البنيوية ، وبخاصة عند بلومفيلد وأتباعه مثل « زيلج هـارس » و « هالادای » و « سيدنى لامب » وغيرهم(٣) .

وسواء سلمنا بهذا الاطار البنيوى لنظـرية تشومسكى أم أنكرنا عليها أى أثر للبنيوية ، فالذى لا شك فيه أن هذه النظرية تمثل مرحلة مستقلة فى تاريخ عـلم اللغة . وهى فى حقيقتها نظرية نقدية ، لا يمكن فهمها الا على ضوء موقف تشومسكى من البنيوية فى صورها السـابقة عليه فى أوروبا بعامة ، والولايات المتحدة خاصة . وقد يكون من المبالغة أن نصف هذه النظرية بأنها قد قوضت علم اللغة البنيوى ، وانما هى ـ كما قلت ـ مرحلة مستقلة .

ولعل أقصى ما يمكن قوله ، صدد هذا ، أن نظرية تشومسكى قـد أعادت صياغة الكثير من أفكار ومبادىء علم اللغـة البنيوى وفق فلسفة جديدة ، لاشك فى أصالتها وجدتها . ورغم ذلك فلن هذه النظرية تتصل بأسباب مباشرة ، وغير مباشرة ، بعلم اللغة البنيوى . يدل على ذلك أن تشومسكى عندما حاول وضع قواعد جديدة ، لم يبتعد كثيرا عن المفاهيم البنيوية. فكانت قواعده وتحليلاته ، وخاصة فى كتابه الاول « التراكيب النحوية» Syntactic Structures (١٩٥٧) قواعد وتحليلات بنيوية فى أساسها ، قائمة على التحليل الثنائى للعناصر اللغوية كما كانت آراؤه العامة فى هذا الكتاب تشبه الى حد كبير آراء أستاذه «زيلج هارس»(٤) ومع ذلك فقد فتحت نظرية تشومسكى اللغوية آفاقا جديدة فى الفـكر اللغوى المعاصر ، لم يلتفت اليها علم اللغة البنيوى فى أوروبا وأمريكا

---

(٢) Ivic, milka. trends in linguistics p. 205.

(٣) Crystal david, linguistics p. 216.

(٤) Palmer; Frank, grammar p. 135.

قبل تشومسكى • ولذلك آثرت أن أعتبر هذه النظرية حـدا فاصلا بين علم اللغة البنيوى ، كما كان شائعا فى الغرب قبل هذه النظرية • ولاشك أن أثر نظرية تشومسكى على الفكر اللغوى العربى تحتاج الى درس مفرد نرجو أن نفرغ له قريبا •

ومعنى هذا كله أن علم اللغة البنيوى بدأ على يد دى سوسير وصفيا يقوم على جمع قدر كبير من الملاحظات حـول البنية اللغوية وتصنيف عناصرها ، واستخـلاص ما يترتب على ذلك من نتائج دون أن يتجاوز هذه المرحلة الى عملية التفسـير التى رأى تشومسكى أنها تمثل أهم أهداف النظرية اللغوية •

واذا كانت البنية وتحليلها هى هدف علم اللغة البنيوى فقد كانت أيضا هدف النحاة وعلماء اللغة فى التراث العربى ، بحيث رأى بعض الباحثين عناصر بنيوية واضحة فى كتاب سيبويه(٥) • فقد ميز نحـاة العربية الاوائل مثل الخليل وسيبويه بين مستويين من مستويات الدراسة النحوية • أما المستوى الأول فيتمثل فى رصد وتتبع الخطأ فى الاداء • أما المستوى الثانى فيتمثل فى علاقة المبنى بالمعنى • ولم يكن المستوى الاول الا تلك القواعد المجردة التى يغلب عليها الطابع التعليمى ، والتى استند فيها النحاة الى استعمالات العرب • فى حين كان المستوى الثانى يتمثل فى العلاقات التركيبية المختلفة بين الكلمات داخل الجملة أو بين الجمل وبعضها • أى أن النحاة قد أدركوا أن هنـاك ارتباطا واضحا بين المبنى والمعنى • والمبنى عندهم كان يبدأ من أصغر وحداته ، كمـا تتمثل فى الصوت أو الحرف • بينما تمثل الجملة أكبر هذه الوحدات• أى أن أهم خصيصة من خصائص التحليل البنيوى كانت فى أذهانهم ، وهى ثنائية التركيب اللغوى • وبذلك خـرج هؤلاء النحاة عن دائرة الصواب والخطأ الى فكرة النظام والتركيب فليس الامر مجرد وضـع

---

(٥) وانظر ايضا نظرية تشومسكى اللغوية ، ترجمة حلمى خليل ص ٧٢ ـ ٧٣ •

ألفاظ بازاء معـان فحسب ، وانما الامر يتجـاوز كل ذلك الى عملية التركيب ، وما ينشأ عنها من علاقات • ولكن هذا الاتجـاه لم يتضح بصورة ملموسة الا مع نهاية القرن الرابع الهجرى عند ابن جنى من علماء اللغة وعبد القاهر الجرجانى من علماء البلاغة(٦) ولكن أحدا من النحاة لم يلتفت الى آراء هذين العالمين ، وخاصة عبد القاهر الجرجانى ونظريته فى النظم ، وانما كان معظمهم واقعا تحت تأثير ما جاء فى كتاب سيبويه • وبالرغم من أن الدراسات النحوية واللغوية قد شهدت بعد سيبويه عقولا علمية فذة لا تقل عنه قدرة على الابداع ، الا أن الايمان بكمال اللغة العربية وأفضليتها على سائر اللغـات قد انتقل الى كتاب سيبويه كأنما أصبح هو واللغـة سواء • فعكفوا عليه شرحـا وتعليقا واختصارا وأصبح كثير من أعمالهم يتصل بالتحليل الجزئى دون الإصول النظرية ، بل نسوا فى غمرة الاعجاز والسحر اللذين بثهما كتاب سيبويه فى عقولهم طبيعة الدراسة اللغوية وهدفها ، فتحولت دراسة اللغة من منهج علمى يقوم على التحليل والاستنباط الى دراسـة هذه المسائل الجـزئية فى ذاتها ، فتضخمت المؤلفـات النحوية واتسعت وظهـرت المنظومات والمتون التى كان هدفها أن تقرب الاقصى بلفظ موجز ، كما يقول ابن مالك ، ولكنها فشلت فى تحقيق هذا الهدف لانها جاءت فى لغة معماه ، واحتاجت المتون الى شروح ، والشروح الى حواش وتعليقات • وانتهى هذا الى الازهر •

ولكن مع مطـلع العصر الحـديث أخذت مشكلة دراسـة العربية وتدريسها طابعا حضاريا نتيجة لشعور حاد بتخلفها عن تلبية حاجات المتكلمين بها فى مواجهة الحضارة الغربية الحديثة ومبتكرات العـلوم والفنون • وتمثـل ذلك فى سؤال عريض هو هل اللغـة العربية وافية بمطالب العلوم والفنون فى هذا العصر وطرح هذا التساؤل مشكلة قواعد النحو والصرف وتضخم قـواعده تعقيداتها فظهرت دعـوات لاصلاحه

---

(٦) راجع د• محمد عبد المطلب ، البلاغة والاسلوب ص ٣٨ •

وتيسيره ، ولكن هذه الدعوات لم تخرج عن حدود ما وضعه القدماء وما جاء فى كتاب سيبويه وغيره من علماء العربية القدماء وظلت هذه الدعوات تدور فى حلقة مفرغة حتى ذهب عدد من أساتذة الجامعات المصرية للتخصص فى دراسة علم اللغة مع نهاية النصف الاول من هذا القرن • وبعد عودتهم أخذ الفكر اللغوى العربى يتعرف ويتصل بمناهج ونظريات وآراء جديدة فى دراسة اللغة • ومن ثم بدأت حركة نقدية للتراث اللغوى العربى تصاحبها وتواكبها حركة أخرى تتمثل فى تقديم النظريات اللغوية الحديثة ، ومحاولة قراءة التراث اللغوى العربى على ضوئها بحثا عن أصول جديدة تتلاءم وما توصل اليه علم اللغة الحديث والمعاصر من آراء ونظريات فى بحث اللغة ومعرفة حقيقتها • ومن هنا تميزت تلك الفترة فى تاريخ الفكر اللغوى العربى بميزات وخصائص احتاجت معها الى دراسة خاصة تحدد أفكارها ومبادئها ، وتبين أثرها بما لها من صلة بالتراث اللغوى العربى من ناحية ، وبعلم اللغة الحديث من ناحية أخرى •

ويحاول هذا البحث أن يقوم بهذه الدراسة ، ولكى يتحقق ذلك قسمته الى مقدمة وبابين يتخللهما فصول ، وخاتمة • أما الباب الاول فقد خصصته لدراسة الفكر اللغوى العربى قبل الاتصال بالفكر اللغوى الحديث ، ومن ثم كان الفصل الاول فيه عبارة عن دراسة للفكر اللغوى العربى من حيث نشأته وأصوله والعوامل المؤثرة فيه ، والنتائج التى انتهى اليها • أما الفصل الثانى من هذا الباب فقد وجهته الى دراسة دعوات التيسير والاصلاح ، وحاولت تقويمها تقويما علميا موضوعيا ، وبيان أثرها بما لها من صلة بالفكر اللغوى العربى ، أو بالفكر اللغوى الحديث •

أما الباب الثانى فقد خصصته لدراسة الفكر اللغوى العربى بعد الاتصال بعلم اللغة الحديث، فبسطت فى الفصل الاول من هذا الباب اتجاهات الفكر اللغوى الغربى ونظرياته وأصوله فيما يسمى عندهم بعلم اللغة البنيوى الذى يمثل الصيحة التى جمعت مدارس لغوية مختلفة حتى

ظهور نظرية تشومسكى عام ١٩٥٨م ولما كان معظم مبعوثينا لدراسة علم اللغة قد تلمذوا على أيدى أساتذة وعلماء ينتمون الى البنيوية اللغوية بصورة أو بأخرى ولذلك اعتبرت نظرية تشومسكى حدا فاصلا بين جيل وجيل من علماء العربية المحدثين ، كما أشرت الى ذلك من قبل .

أما الفصل الثانى من هذا الباب فقد أفردته لدراسة البدايات الاولى للاتصال بالفكر اللغوى الحديث ممثلة فى جيل الرواد . وفى الفصل الثانى من هذا الباب توقفت عند الجيل الثانى ، وهو جيل أبعد أثرا فى الفكر اللغوى العربى الحديث بما قدمه من آراء ونظريات فى دراسة اللغة وتحليلها بما لها من صلة بالتراث العربى من ناحية ، وبعلم اللغة البنيوى من ناحية أخرى .

وختمت البحث بأهم النتائج التى توصلت اليها . فاذا كان هذا البحث قد كشف عن تلك الحقبة من تاريخ الفكر اللغوى العربى الحديث فقد حقق الهدف الذى كتب من أجله ، والله من وراء القصد ، هو نعم المولى ونعم النصير .

حلمى خليل

الباب الأول

التفكير اللغوى العربى قبل البنيوية

الفصل الأول

التفكير اللغوى عند العرب : نشأته وأصوله

أجمعت الروايات التاريخية على أن العرب قد أحسوا فى نحو منتصف القرن الاول الهجرى بخطر يهدد لغتهم ، وامتد هذا الخطر الى النص القرآنى الكريم ، وذلك بسبب شيوع اللحن على ألسنة الاعاجم والموالى الذين دخلوا الاسلام بعد الفتح ، وقد تعداهم هذا اللحن حتى وصل الى أبناء العرب نتيجة لمخالطتهم لهؤلاء ، وخاصة فى قصور الخلفاء حيث الامهات الاجنبيات والخدم المجلوبين[1] • مما استرعى انتباه أهل العلم والرأى من العرب فتحركوا لدفع هذا الخطر عن القرآن الكريم واللغة العربية • ومن ثم شعروا بحاجتهم الى وضع قواعد وقوانين يسترشد بها الناس فى الكلام •

فاللحن فى نظر كثير من الباحثين قديما وحديثا كان هو السبب المباشر للنظر فى اللغة والبحث فيها عند العرب[2] والحقيقة أن اللحن

---

(١) راجع الجاحظ ، البيان والتبيين ١/٧١ ، ١٤٥ ، ١٦٢ •
(٢) أنظر ، على سبيل المثال ، من القدماء :
١ – ابن سلام الجمحى ، طبقات فحول الشعراء ص ١٢ •
٢ – السيرافى ، أخبار النحويين البصريين • ص ١٢ •
٣ – أبو بكر الزبيدى ، طبقات النحويين واللغويين ص ٢٢ •
٤ – ابن النديم ، الفهرست ص ٥٩/٦٠ •
٥ – ابن جنى ، الخصائص • ٢/٨ •
ومن المحدثين أنظر على سبيل المثال :
١ – ابراهيم مصطفى ، أصول النحو ، مجلة مجمع اللغة العربية العدد ٨ سنة ١٩٥٥ ص ١٣٦ – ١٤٦ •
٢ – الشيخ محمد الطنطاوى ، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة ، ص ١٦ – ٢٠ •
٣ – د• حسن عون ، اللغة والنحو ص ١٦٣ – ١٩٤ •
٤ – د• تمام حسان ، الاصول ص ٢٣ •

قد يكون السبب المباشر ، ولكن هناك أسبابا أخرى دعت الى التفكير فى اللغة من حيث هى ظاهرة تحتاج الى فحص ودراسة. وأول هذه الاسباب فهم القرآن الكريم باعتباره مصدرا للاحكام الشرعية التى تنظم حياة المسلمين الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية . وعلى هذا النص وفهمه يكون مناط الحكم الشرعى . ولعل بعض الروايات التى تنسب الى عبد الله بن عباس (ت ٦٧ هـ) أول نشاط لغوى يتصل بدلالة الالفاظ عندما كان يتكلم فى غريب القرآن فى ضوء استعمال الالفاظ فى الشعر الجاهلى[٣] لعل فى هذه الرواية ما يضع بين أيدينا تلك المحاولات المبكرة لفهم النص القرآنى فهما لغويا دقيقا تمهيدا لاستخلاص الحكم .

أما السبب الثانى فهو وضع قواعد لتعلم اللغة العربية ، بحيث يجد فيها هؤلاء الاعاجم والموالى عاصما من الخطأ فى الكلام ، وخاصة أنهم أقبلوا على تعلم العربية باعتبارها لغة الفاتحين وأهم من ذلك لانها لغة الدين الجديد[٤] .

وتسند معظم الروايات التاريخية الى أبى الاسود الدؤلى (ت٦٩هـ) أنه أول من بدأ يفكر فى دفع خطر اللحن عن القرآن واللغة .. وينظر الى اللغة من حيث هى ظاهرة تستحق الفحص والدراسة . ولعل أول من أشار الى ذلك ابن سلام الجمعى (ت ٢٣٢ هـ) حيث قال فى مقدمة كتاب طبقات فحول الشعراء « كان أول من استن العربية وفتح بابها وأنهج سبيلها ، ووسع قياسها أبو الاسود الدؤلى » . ثم قال « ووضع باب الفاعل والمفعول ، والمضاف وحروف الجر ، والرفع والنصب ، والجزم »[٥] وشاعت هذه الرواية وتداولها المؤرخون وأصحاب كتب الطبقات غير أن السيرافى (ت ٣٦٨ هـ) يذكر رواية أخرى يفهم منها

---

(٣) السيوطى ، الاتقان ١٤٢/٢ ـ ١٤٩ .
(٤) السيرافى ، أخبار النحويين البصريين ص ١٣ ـ ١٤ .
(٥) ابن سلام ، طبقات فحول الشعراء . ص ١٢ .
وانظر أيضا الفهرست ص ٦٠ ، والزبيدى ، طبقات النحويين واللغويين ص ٢١ ، ٢٢ .

أن أبا الاسود لم ينفرد وحده بهذا العمل ، فقال ان الناس قد اختلفوا في أول من رسم النحو ، فمنهم من قال أبو الاسود ومنهم من قال نصر ابن عاصم (ت ٩٨ هـ) ومنهم من قال عبد الرحمن بن هرمز (ت ١١٧ هـ) ولكن أكثر الناس على أنه أبو الاسود[٦] .

ومعنى هذا أن هناك بعض الشك في انفراد أبي الاسود الدؤلي بهذا العمل . فاذا نظرنا الى بعض ما نسبته اليه الروايات من وضع أبواب كاملة في النحو مثل ، با ب الفاعل والمفعول والمضاف وغيرها ، ازداد هذا الشك لمخالفته لطبيعة الاشياء ، بل لطبيعة العلوم في دور النشأة ، اذ لاشك أن البحث اللغوي عند العرب لم يبدأ تلك البداية الناضجة التي أشار اليها الرواة والمؤرخون ، وخاصة فيما يتعلق باستنباط القواعد والقوانين التي تجرى عليها اللغة. اذ يحتاج هذا العمل الى مادة من النصوص أو المرويات ، تفحص وتستقرأ وتصنف ، ثم تستنبط القواعد والقوانين ، وهو ما أشار اليه السيوطي (ت ٩١١هـ) في عبارة جامعة حين قال « اعلم أن اللغوي » شأنه أن ينقل ما نطقت به العرب ، ولا يتعداه . أما النحوي فشأنه أن يتصرف فيما ينقله اللغوي ويقيس عليه[٧] .

ولذا فمن غير المعقول أن يبدأ درس العربية هذه البداية الناضجة على يد أبي الاسود الدؤلي حينما قالوا انه وضع أبوابا كاملة في النحو، وذلك في غيبة المادة اللغوية وفي غيبة العقل العلمي الذي يقوم بالتحليل والتبويب والتصنيف ولم يكن ذلك كله متاحا في البيئة العربية آنذاك . وانما المعقول أن يكون عمل أبي الاسود متناسبا مع تلك المرحلة المبكرة من الحياة العلمية والعقلية عند العرب ، وهو ما تؤيده الرواية التي رواها الرواة والمؤرخون من أنه وضع نقطا يحرر به أواخر الكلمات ليدل بها على النطق الصحيح ، وقد اتخذ لذلك كاتبا فطنا وقال له اذا

---

(٦) السيرافي ، أخبار النحويين البصريين ص ١٢ .
(٧) المزهر ١/٩ .

رأيتنى قد فتحت فمى بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه ، فان ضممت فمى فانقط نقطة بين يدى الحرف • وان كسرت فاجعل النقطة تحت الحرف ، فان أتبعت شيئا من ذلك غنة ، فاجعل مكان النقطة نقطتين[٨] •

وهكذا أخذ أبو الاسود يقرأ المصحف ، بينما الكاتب يلاحظ حركة الشفتين ويضع النقط بلون يخالف لون المداد الذى كتبت به الآيات القرآنية ، وهو عمل يقوم ، كما ترى ، من الرواية على الملاحظة الحسية المباشرة التى لا تتطلب أكثر من دقة الملاحظة ورهافة السمع ، وهذه الملاحظات هى الخطوات الاولى التى يقوم عليها فيما بعد العلم عندما تأخذ منحى من التجريد والتعميم •

وقد حمل هذا العمل عن أبى الاسود تلاميذه من قراء القرآن الكريم، وفى مقدمتهم نصر بن عاصم (ت ٨٩ هـ) وعبد الرحمن بن هرمز (ت ١١٧ هـ) ومن هنا جاء خلط الرواة والمؤرخين كما أشرنا من قبل ، فى رواية السيرافى • غير أن كثيرا من الباحثين المحدثين يجدون فى نشأة النحو بمعناه العلمى على يد أبى الاسود كثيرا من الغموض[٩] • وما يقال عن أبى الاسود يقال أيضا عن تلاميذه الذين اهتموا بنقط المصحف واقراء الناس وعلى ذلك فهؤلاء جميعا لم يكونوا علماء لغة أو نحاة بالمعنى الاصطلاحى • وانما سمى عملهم اعرابا من معنى البيان والوضوح الذى تتضمنه المادة[١٠] •

وكان طبيعيا بعد أن بينوا طريقة نطق الحركات على أواخر الكلمات أن يفرقوا بينها بأسماء ومصطلحات • ويبدو أنهم اشتقوا من كلمات أبى الاسود لكاتبه هذه الاسماء فسموها نقط الفتحة ونقط الضمة ونقط

---

(٨) السيرافى ، أخبار النحويين البصريين ص ١٢ •
وأنظر أيضا ابن النديم ، الفهرست ص ٦٠ •
والسيوطى ، بغية الوعاة ٢٢/٢ •
(٩) د• أحمد مختار عمر ، البحث اللغوى عند العرب ص ٦٥ •
(١٠) راجع لسان العرب ، مادة ع ر ب •

الكسرة ، ومن الجائز أيضا أنهم لاحظوا بعد ذلك اختلافا فى حركات بعض الوحدات اللغوية باختلاف مواقعها من الكلام ، فبدأوا يلاحظون فروقا فى سلوكها اللغوى داخل التراكيب • ولعل ذلك كان بداية تحديد أقسام الكلام من حيث علاقتها بالحركات ، ولا يبعد أيضا أن يكونوا قد وضعوا مصطلحات لذلك •

كل ذلك وغيره ممكن وقوعه ، ولكن ليس فى أيدينا ما يثبت ذلك اثباتا قاطعا سوى ما تمدنا به طبيعة الاشياء اذ الاصل فى كل علم أن يبدأ بتلك الملاحظات المتناثرة حتى يتاح له من يصوغه صياغة علمية قائمة على الضبط والشمول •

ولعل أول نحوى حقيقى نجد عنده بداية هذا العمل هو عبد الله بن أبى اسحق الحضرمى (ت ١١٧ هـ) • يقول ابن سلام بعد أن ذكر تلاميذ أبى الاسود الدؤلى « ثم من بعدهم عبد الله ابن أبى اسحق الحضرمى ، فكان أول من بعج النحو ، ومد القياس والعلل ، وأبو عمرو ابن العلاء (ت ١٥٤ هـ) وبقى بعده طويلا وكان ابن أبى اسحق أشد تجريدا للقياس • وكان أبو عمرو أوسع علما بكلام العرب»[١١] •

وتشير هذه الرواية لاول مرة الى كلام العرب والعلم به بجانب بعج النحو ومد القياس • ومعنى هذا أن دراسة العربية وتحليلها كانت حتى نهاية القرن الاول الهجرى وبداية القرن الثانى عبارة عن ملاحظات متناثرة ، ولكن عندما جمع كلام العرب بدأت المرحلة العلمية الحقيقية فى الدراسة النحوية واللغوية بالنظر فى هذه المادة اللغوية • ويبدو أن الحضرمى كان من أوائل الذين قاموا بهذا العمل • ومن الصعب أن نفهم من هذه الرواية مدلول كلمة « بعج » أما القياس فواضح من الخصومة التى نشبت بين الحضرمى والفرزدق (ت ١١٠ هـ)[١٢] أن

---

(١١) طبقات فحول الشعراء ص ١٤ •

(١٢) المرجع السابق ص ١٥ ، ١٦ ، ١٩ وانظر أيضا السيرافى ، أخبار النحويين البصريين ، ص ٢١ •

الحضرمى كان يفهم من معنى القياس الاطراد والثبات للقاعدة الذى كشف عنهما استقراء المادة اللغوية وتصنيفها • ويبدو أن التعليل لهذه القواعد قد أخذ سبيله الى الظهور فى هذه الفترة • لذلك تنسب الرواية الى عبد الله بن أبى اسحق انه كان أول من مد القياس والعلل ، ولذلك كان يعطى أهمية للمستوى النحـــوى أكثر من أى مستوى آخـــر من مستويات التحليل اللغوى • يدل على ذلك الرواية التى تقول أن تلميذه يونس ابن حبيب (ت ١٨٩ هـ) سأله يوما عن كلمة « السويق » بالسين هل ينطقها أحد من العرب بالصاد ، أى « الصويق » فقال له الحضرمى نعم ، عمرو بن تميم تقولها • ثم أضاف ، « وماتريد الى هذا ؟ عليك بباب من النحو يطرد وينقاس»[١٣] •

فاذا لاحظنا بعض المصطلحات مثل ،«باب» و «يطرد» و «ينقاس»، أدركنا أن الحضرمى كان يتحدث مع تلميذه عن عـــلم مضبوط خاضـــع للتصنيف والتجريد ، كما ندرك أيضا أنه يدعو تلميذه الى دراسة القواعد العامة المطردة لا اللهجات • وكل ذلك يضع بين أيدينا ، عـــدة حقائق هامة عن الدرس اللغوى عند العرب فى نهاية القرن الاول الهجرى تتمثل فيما يلى :

١ ــ أن القراء هم أول من تصدى للدراسة اللغوية بحكم طبيعة عملهم فى اقراء الناس والعناية بالنص القرآنى •

٢ ــ أن التعليل اللغوى التفت الى بعض الظواهر الصوتية ممثلة فى حركات الاعراب والهمز وغيرها •

٣ ــ أن العناية بوضع القواعد النحوية كان يقوم على أســـاس وصفى يتمثل فى جمع المادة اللغوية وتصنيفها ، ثم استنباط الاحكام وتعميمها وفق أصول نظرية محددة ، كما سنرى فيما بعد •

٤ ــ أن العناية باللهجات واختلافها واكب الدراسة النحوية •

---

(١٣) المرجع السابق ص ١٥ •

٥ ـ أن الامر لم يقف عند حدود تتبع الشعراء وردهم ، بل أصبح بين يدى هـؤلاء العلماء مادة عـلمية تعقد حـولها حلقـات الدرس والمناظرات[١٤] .

وتم كل ذلك فى البصرة التى كانت بحـكم موقعها الجغـرافى على الخليج العربى ملتقى طرق وحضـارات[١٥] . وقد أشارت الروايات التاريخية الى سبق البصرة فى وضع قواعد العربية اشارات واضحـة ونصت على ذلك بعبـارات مختلفة . يقول ابن سـلام (ت ٢٣٢ هـ) «وكان لاهل البصرة فى العربية قدمة وبالنحو ولغات العرب عناية»[١٦] . ويصرح ابن النديم (ت ٣٨٥ هـ) فى ذلك تصريحا واضحا فيقول « وانما قدمنا البصريين أولا لان علم العربية عنهم أخذ»[١٧] .

على هذه الصورة بدأ التفكير اللغوى عند العرب بمعناه العلمى من حيث جمع المادة وتصنيفها واستنباط القواعد وتحكيمها فيما يقـوله أبناء اللغة ، وكان أبو عبد الله بن اسحق الحضرمى من أوائل العلماء الذين تصدوا لهذا العمل وشاركه فى ذلك تلميذه أبو عمرو بن العـلاء (ت ١٥٤ هـ) غير أن التلميذ سرعان ما خالف أستاذه بحـكم معرفته الواسعة بالمادة اللغوية وطبيعة كلام العرب ، ففى الوقت الذى كان الحضرمى يتشدد فيه فى اجراء القياس على كل استعمال ، ويهمل أو يخطىء كل ما عداه ، كان أبو عمرو يقيس على الاشيع والاكثر فى كلام العرب ، وما خالف ذلك لا يهدره ولا يخطىء قائله ، وانما كان يعترف به كاستعمال من استعمالات أبناء اللغـة ينبغى احترامه[١٨] . وبهذا

---

(١٤) راجع ابن سلام ، طبقات فحول الشعراء ص ١٤ .
وانظر أيضا السيرافى ، أخبار النحويين البصريين ص ٢٠ .
(١٥) حول بيئة البصرة واثرها فى الحياة العقلية عند العـرب ، انظر ما كتبه أستاذنا د. طه الحاجرى فى كتابه القيم ، الجاحظ حيـاته وآثاره ص ١٥ ـ ٧٧ .
(١٦) طبقات فحول الشعراء ص ١٢ .
(١٧) الفهرست ص ٩٦ .
(١٨) الزبيدى ، طبقات النحويين واللغويين ص ٣٥ ـ ٤٠ .

وضع أبو عمرو بن العلاء اللبنات الاولى فى الاتجاه الكوفى كما سنرى فيما بعد .

ولكن ما أن يصل القرن الثانى الى منتصفه حتى نرى كتبا تؤلف ومذاهب يتفرد بها بعض العلماء ، فعيسى بن عمر الثقفى (ت ١٤٩ هـ) تنسب له كتب الطبقات كتابين فى النحو أحدهما يسمى الجامع والآخر يسمى الاكمال ، ولكن أحدا لا يدرى شيئا عن هذين الكتابين الا ماأشارت اليه بعض الروايات من أن الخليل بن أحمد توفى (ت ١٧٥ هـ) قد اطلع عليهما ووصفهما فى بيتين من الشعر[١٩] .

وكان عيسى بن عمر قد أخذ النحو عن ابن أبى اسحق الحضرمى ونهج نهجه فى تعميم القياس وتجريده ، وتخطئة المخالفين له ، استنادا الى القواعد التى استنبطوها . يقول ابن سلام «كان أبو عمرو بن العلاء أشد تسليما للعرب ، وكان ابن أبى اسحق وعيسى بن عمر يطعنان عليهما[٢٠] . أما يونس بن حبيب (ت ١٨٢ هـ) فقد أخذ عن أبى عمرو بن العلاء ، وكانت له مذاهب وأقيسة تفرد بها[٢١] .

وهكذا نجد أن التفكير اللغوى عند العرب رغم هذه الروايات القليلة كان مهيأ لظهور أكبر علماء العربية وأبعدهم أثرا فى تاريخ الفكر اللغوى عند العرب ، بما هيأ من مادة لغوية ومنهج فى استنباط القواعد ، وهما الخليل بن أحمد (ت ١٧٥ هـ) وتلميذه سيبويه (ت ١٨٠ هـ) .

أما الخليل فقد كان الغاية ـ كما يقول السيرافى ـ فى استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس ، وهو أول من استخرج العروض ، وحصر أشعار العرب ، وعمل كتاب العين[٢٢] . أما سيبويه فهو صاحب

---

(١٩) السيرافى ، أخبار النحويين البصريين ص ٢٥ .
(٢٠) ابن سلام ، طبقات فحول الشعراء ص ١٥ .
(٢١) السيرافى أخبار النحويين البصريين ص ٢٧ .
وانظر أيضا السيوطى ، بغية الوعاة ٢/٣٦٥ .
(٢٢) السيرافى ، أخبار النحويين البصريين ص ٣٠ .

أول مؤلف فى النحو العربى يصل الينا • ولولا هذا الكتاب ما استطعنا أن نتصور النمـو الحقيقى الذى بلغته الدراسات النحـوية واللغوية العربية فى خلال قرن واحد تقريبا • واذا صح أن نعد كتاب سيبويه محصلة هذه الجهود العلمية التى بذلت خلال هذا القرن ، وأن الخليل هو صاحب التصور العام للنظرية اللغوية التى أداها تلميذه عنه • يقول السيرافى « كل ما قال سيبويه سألته ، أو قال من غير أن يذكر قائله فهو الخليل »[٢٣] • ويقول السيوطى ان سيبويه عقد أبواب كتابه بلفظـه ولفظ الخليل[٢٤] • أقول ، اذا صح هذا فان النحو عند الخليل يصبح أكثر شمولا عما بدأ به عند الطبقة الاولى والثانية ، بل وعما استقر عليه هذا المصطلح فى القرون الاخيرة عند متأخرى النحاة • ولعـل مصطلح العـربية[٢٥] • الذى كان متداولا قبل الخليـل وفى أيامه الدلالة على دراسة العربية يصور هذه النظرية الشمولية • فالكتاب يحتوى على أبحاث فى الاصـوات اللغـوية سواء على المسـتوى الفـونوتيكى أو الفونولوجى كما يحتوى على دراسـات صرفية ونحوية ودلالية • أو بعبارة أخرى يحتوى على علم النحو بهذا المفهوم الشامل • ووما يؤكد ذلك أننا نجد هذا المفهوم الشامل للنحو عند كثير من النحاة الذين ألفوا فى النحو بعد سيبويه ، مثل المبرد (ت ٢٨٥ هـ) وغيره من علماء العربية الذين وصلت مؤلفاتهم الينا • ويرى أستاذنا الدكتور حسن عـون أن سيبويه كان لديه تخطيط منهجى عام للدرس النحوى طبقه فى تأليف كتابه ، يتمثل فى مباحث رئيسية ثلاثة هى مبحث المفـرد ، ثم مبحث الجملة ، ثم مبحث المفـرد مرة أخرى • لا من حيث جـوهره وشكله الاعرابى ، ووظيفته فى التركيب وانما من حيث الصيغة والبنية[٢٦] •

ويرى الدكتور شوقى ضيف أن سيبويه قد قسـم كتابه وأحكمه احكاما دقيقا ، وأنه جعله فى قسمين كبيرين ، أما القسم الاول فخصصه

---

(٢٣) المرجع السابق ص ٣١ •
(٢٤) المزهر ٢/٤٠٥ •
(٢٥) أنظر سيبويه ، الكتاب ط عبد السلام هارون ٢/٣٦٤ •
(٢٦) أنظر تطور الدرس النحوى ص ٤٢ •

للنحو ومباحثه ، وأما القسم الثانى فقد خصصه للمباحث الصرفية واصلا اليها عن طريق مادة صوتية واسعة بدأ بها باب الادغام[٢٧] .

ولكن ابن كيسان (ت ٣٢٠ هـ) يرى فى الكتاب قدرا من الغموض وخاصة فى ألفاظه وعباراته . يقول : « نظرت فى كتاب سيبويه فوجدناه فى الموضع الذى يستحق ، ووجدنا ألفاظه تحتاج الى عبارة وايضاح لانه كتاب ألف فى زمان كان أهله يألفون مثل هذه الالفاظ فاختصر على مذهبه[٢٨] . ومن المأثور عن المبرد أنه كان يقول لمن أراد أن يقرأ عليه الكتاب «هل ركبت البحر؟» تعظيما واستصعابا لما فيه. فاذا كانت مادة الكتاب على هذا النحو من الشمول ، واذا كان سيبويه يعتمد فيها على الخليل ، يسأله فيجيب ويعقد لفظه بلفظه فلاشك اذن أن الخليل ، كما أشرت من قبل هو صاحب التصور النهائى للنموذج النحوى للغة العربية، الذى أداه سيبويه فى كتابه . وهذا التصور ينبع من ادراك الخليل الواضح والدقيق للبنية اللغوية ، من حيث هى أصوات وكلمات وجمل ودلالة . وقد ساعد الخليل على تجريد هذا النموذج ، وفق أصول نظرية ، عقل علمى يتقن العلوم الرياضية . فقد أدرك القيمة التبادلية والتوافقية للاصوات فى عملية التقاليب التى أقام عليها معجمه لحصر المستعمل والمهمل من كلام العرب . وبلغ تطبيقه لهذه الفكرة الرياضية الغاية فى وضعه لعلم العروض ، لا من حيث استنباطه للتفاعيل فحسب، بل من حيث ابتكاره للدوائر العروضية التى اذا قدمت فيها أجزاء التفاعيل بعضها على بعض ، خرجت الاوزان التى استعملها العرب وتلك التى لم تستعملها ، وهى فكرة رياضية فى أساسها قائمة على مبدأ التباديل الرياضية .

أما دراسة الخليل لاصوات اللغة العربية فهى نموذج آخر للنظر العلمى الذى كان يتمتع به عقل الخليل . ولاشك أنه قد استفاد من

---

(٢٧) المدارس النحوية ص ٦٠ – ٦١ .
(٢٨) البغدادى ، خزانة الادب ١/١٧٩ .

الملاحظات الصوتية التى تداولها قراء القرآن الكريم والنحاة منهم خاصة . ولكن دراسته للاصوات العربية ، كما نراها فى مقدمة كتاب العين[٢٩] تعد أول دراسة شاملة لهذه الاصوات ، فقد رتبها ترتيبا صوتيا حسب الحيز والمخرج ، معتمدا فى ذلك على الاداء الصوتى فهو يقرر فى بداية حديثه عن هذه الاصوات وعددها أنها لا تظهر الا بالمشافهة ، ولذا نراه يعتمد فى وصف هذه الاصوات على ما يشعر به من اختلاف فى أوضاع النطق عند التلفظ بأي صوت منها ، وهو ماأسماه « ذوق الحروف » ، كما اعتمد أيضا على الجانب السمعى كما يتمثل فى وقع الصوت فى الاذن . وتعرض لعملية انتاج الصوت اللغوى ، حيث يخرج الهواء من الجوف . وصنف الاصوات الصحاح Consonants وحروف المد واللين Long Vowels [٣٠] . ومن خلال دراسة الخليل لهذه الاصوات نلاحظ كيف وظف معايير التشابه والاختلاف فى تصنيف هذه الاصوات من حيث المخرج أو الصفات . يضاف الى هذا كله أن الخليل بدأ حركة التأليف المعجمى التى بلغت ذروتها فى القرنين الرابع والخامس .

وكل هذا يدل على أن الخليل وتلميذه الذى خلفه على تراثه قد استطاعا أن يقدما لعلماء العربية من بعدهم وحتى يومنا هذا نموذجا بنيويا لوصف العربية صوتيا وصرفيا ونحويا ومعجميا ، لم يستطع أحد أن ينال منه ، أو يقدم بديلا عنه ، حتى قال قائلهم « من أراد أن يعمل كتابا فى النحو بعد كتاب سيبويه فليستحى»[٣١] . ومن ثم أصبح كتاب سيبويه بعد ذلك يشبه غيره من كتب العلوم التى عرفها العالم القديم مثل كتاب أرسطو فى الطبيعيات ، وكتاب اقليدس فى الهندسة ، وكتاب بطليموس فى الفلك ، وكتاب أبوقراط فى الطب ، حيث اعتقد الناس أنها غاية العلم ، حددت مبادئه ومسائله وكلياته . وظل الناس يؤمنون

---

(٢٩) راجع مقدمة كتاب العين ، ص ٥٦ ، ٦٤ ، ٦٥ .
(٣٠) المصدر السابق ص ٦٥ .
(٣١) المدارس النحوية ص ٥٩ .

بعظمة هذه الكتب ومؤلفيها دهرا طويلا ، واقتصر عمل التابعين لهم على الشرح والتعليق ، ولكن تاريخ العلوم يبين لنا أنه يأتى حين من الدهر يرى فيه بعض العلماء ضرورة تجاوز الاغلال التى وضعتها مثل هذه الكتب على العقل والعلم • ومن ثم تنشأ مناهج جديدة فى التفكير تختلف عما جاء فى مثل هذه الكتب • وقد بدأت مظاهر هذا الاختلاف فيما يتصف بالنحو العربى عند الكوفيين على استحياء ، ولكنها ما لبثت أن أصبحت ثورة على المنهج البصرى على يد ابن مضاء القرطبى (ت ٥٩٢ هـ) ، كما سنرى فيما بعد • فكيف تم هذا التطوير فى الكوفة ومتى ؟ •

الواقع أن الكوفة كانت فى شغل عن النحو منذ أن بدأت البصرة فى وضع لبناته الاولى على يد أبى الاسود الدؤلى ثم تطوره على يد الحضرمى ، وكان أهم ما شغل الكوفة حينئذ ، القراءات القرآنية ، ورواية الشعر القديم ، والفقه ، والحديث النبوى • وربما كان موقع الكوفة بعيدا عن التيارات الفكرية العربية والاجنبية التى عملت فى البصرة سببا فى طبع حياة أهلها بطابع البداوة ، ومن ثم توافروا على كل ما هو عربى ولذلك كانت كثرة من الصحابة والتابعين تفضل الحياة فيها كما كان للحياة السياسية والحزبية التى فرقت بين الكوفة والبصرة أثر فى صرف الكوفة عن متابعة ما يجرى من نشاط لغوى فى البصرة •

غير أن الكوفيين ترامت الى أسماعهم أصوات علماء البصرة ونحاتها، وعرفوا أن هناك علما جديدا نشأ وشب فى أحضان البصرة • ومن ثم تطلعت الكوفة الى البصرة لاول مرة منذ أن قطعت الحياة السياسية بينهما أسباب الاتصال •

يقول الرواة والمؤرخون انه فى الوقت الذى كان الخليل وتلميذه سيبويه ينشران علمهما بالبصرة ، وجد عالمان بالكوفة اشتغلا بالنحو ، وان لم يبلغا مبلغ الخليل وسيبويه وهذان العالمان هما أبو جعفر الرؤاسى (توفى بالكوفة فى عهد هارون الرشيد) ، ومعاذ الهراء

(ت ١٨٧ هـ) . أما الرؤاسى فيقول مترجموه [٣٢] أنه أول من وضع من الكوفيين كتابا فى النحو ، وهو أستاذ الكسائى (ت ١٨٩ هـ) والفراء (ت ٢٠٧ هـ) ثم يظهر أثر المنافسة بين البلدين فى رواية تقول على لسان الرؤاسى « بعث الخليل الى يطلب كتابى فبعثته اليه ، فقرأه فكل ما فى كتاب سيبويه ، «قال الكوفى» فانما عنى الرؤاسى . وكتابه هذا يقال له الفيصل »[٣٣] . ويؤكد الدكتور شوقى ضيف أن كتاب سيبويه يخلو من عبارة « قال الكوفى » خلوا تاما ، وان ذكر أهل الكوفة فى سياق بعض القراءات فى ثلاثة مواضع[٣٤] ومعنى هذا أن النحو فى الكوفة قد بدأ والبصرة قد استكملت عملها فيه ، بل شرعت فى تأليف الكتب ، فكيف اذن بدأ النحو أو الدرس اللغوى فى الكوفة ؟

الواقع أننا لا نجد اجابة واضحة لذلك ، والاغلب أنه لم تكن هناك بداية للنحو فى الكوفة لان البداية كانت قد حدثت فى البصرة منذ قرن مضى . أو بعبارة أخرى ، لم تكن للكوفة بداية مستقلة ، وانما بدأت من حيث انتهت البصرة . ويؤكد هذا الظن الزبيدى (ت ٣٧٩ هـ) فى رواية يقول فيها عن الرؤاسى « كان أستاذ أهل الكوفة فى النحو ، وكان أخذ عن عيسى بن عمر ، وله كتاب فى الافراد والجمع»[٣٥] . وعيسى بن عمر (ت ١٤٩ هـ) الذى أخذ عنه الرؤاسى بصرى من تلاميذ الحضرمى وأستاذ الخليل ، كما أشرنا من قبل .

وأما معاذ الهراء (ت ١٨٧ هـ) فلا تكاد الروايات تذكر عنه شيئا غير أنه أول من تكلم فى التصريف ، وصنف كتابا فى النحو ، وأخذ عنه الكسائى وغيره[٣٦] . فاذا صحت هذه الرواية يكون معاذ هذا هو واضع

---

(٣٢) أنظر الزبيدى ، طبقات النحويين واللغويين ص ١٢٥ .
وأنظر أيضا السيوطى ، بغية الوعاة ٨٢/١ ـ ٨٣ .
(٣٣) السيوطى ، بغية الوعاة ٨٢/١ .
(٣٤) المدارس النحوية ص ١٥٣ ـ ١٥٤ .
(٣٥) طبقات النحويين واللغويين ص ١٢٥ .
(٣٦) السيوطى ، بغية الوعاة ٣٩٢/٢ .

علم الصرف ، وهو ما يخالف طبيعة الاشياء اذ من غير المعقول أن يبدأ النحو ويتطور فى البصرة على الصورة الشاملة التى أشرنا اليها ، ثم يؤلف الخليل معجمه الذى تناول فيه الالفاظ المفردة دون أن تتناول البصرة مباحث الصرف ، فى انتظار الهراء بالكوفة لكى يبدأ الكلام فى التصريف • كما يتعارض هذا مع مفهوم النحو الذى ثبت أن البصرة كانت تتعامل به مع البنية اللغوية • نحن اذن لا نتجاوز الحقيقة اذا قلنا ان النحو فى الكوفة لم يبدأ بعيدا عن البصرة ، وانما قام على أساس من النظرية اللغوية البصرية ، وما وضعته من أصول وجمعته من مادة لغوية • وأغلب الظن أن الرؤاسى قد تعلم على أيدى البصريين ، ثم عاد الى الكوفة لكى يذيع ما تعلمه أو يؤلف حوله كتابا • ولكن البصرة لم تسمع به قط ، ولم يجرؤ على عرض أعماله على البصريين • يقول المبرد (ت ٢٨٥ هـ) : « ما عرف الرؤاسى بالبصرة ، وزعم بعض الناس أنه صنف كتابا فى النحو فدخل البصرة ليعرضه على أصحابنا فلم يلتفت اليه ولم يجسر على اظهاره لما سمع كلامهم »(٣٧) •

غير أن الرواة والمؤرخين يجمعون على أن البحث النحوى انما بدأ فى الكوفة على يد الكسائى (ت ١٨٩ هـ) وتلميذه الفراء (ت ٢٠٧هـ)• فأما الكسائى فقد تعلم النحو على كبر ، وتلمذ على معاذ فلزمه حتى أنفذ ما عنده ، ثم خرج الى البصرة ولقى الخليل وجلس فى حلقته حتى عير بذلك(٣٨) • ويبدو أن الكسائى قد بهره علم الخليل فلم يقف عند حد التلقى ، بل حاول أن يعرف المنهج والاصول النظرية فقال للخليل « من أين أخذت علمك هذا ؟ فقال الخليل : من بوادى الحجاز ونجد وتهامة »(٣٩) • فخرج الكسائى الى هناك وعاد وقد حفظ الكثير من المادة اللغوية ودون أكثر مما حفظ ، ولكنه لم يقصد الكوفة ، وكان خليقا به أن يفعل ذلك ، وانما قصد البصرة مرة أخرى فوجد الخليل قد مات ،

---

(٣٧) المصدر السابق ٨٣/١ •
(٣٨) المصدر السابق ص ١٦٣ •
(٣٩) المصدر السابق نفس الصفحة •

وفى موضعه يونس بن حبيب ، فجرت بينهما مسائل أقر له فيها يونس وصدره فى موضعه[٤٠] . ولم يكتف الكسائى بذلك بل ناظر سيبويه مناظرته المشهورة[٤١] . ثم خلا له الجو بعد رحيل سيبويه فكان أول ما فعله أن قرأ الكتاب على الاخفش سعيد بن مسعده (ت ٢١٥ هـ)[٤٢].

وهذه الروايات على اختلافها تضع بين أيدينا الحقائق الاتية :

١ ــ ان الكسائى لم يجد فى الكوفة ما كان يسعى اليه من تعلم النحو فرحل الى البصرة رغم أنه عير بذلك . ولو أنه وجد ما يسعى اليه فى الكوفة ما تركها .

٢ ــ أن سمعة البصرة فى علم العربية كانت قد استقرت وأصبحت مقصد الطالبين لهذا العلم .

٣ ــ أن الكسائى لم يكتف بالتلقى والتلمذة ، بل حاول معرفة المنهج وتعلم الأصول ، حتى اذا ما ملك ناصيته ، دخل فى مناظرات ومناقشات علمية مع زعماء البصرة .

وكل ذلك يؤكد حقيقة واضحة وهى أن الكوفة انما عرفت علم العربية أو النحو بمعناه العلمى الشامل من البصرة على يد الكسائى ، ومعنى هذا أن الكوفة حتى وفاة الخليل لم يكن لديها من النحاة أو علماء اللغة سوى الكسائى ، بينما البصرة قد مضى عليها ما يقرب من قرن أو يزيد فى درس العربية .

أما الفراء (ت ٢٠٧ هـ) الذى كان من أعلم أهل الكوفة بالنحو بعد الكسائى ، فقد أخذ عنه ــ كما تقول الروايات ــ وعليه اعتمد[٤٣].

---

(٤٠) المصدر السابق نفس الصفحة .
وانظر أيضا الزبيدى ، طبقات النحويين واللغويين ص ١٢٧ .
(٤١) الزبيدى ، طبقات النحويين واللغويين ص ٦٩ ــ ٧١ .
وانظر أيضا الانبارى ، الانصاف فى مسائل الخلاف ٢/٣٧٢ ــ ٣٧٥ .
(٤٢) المصدر السابق ص ٧٣ .
(٤٣) السيوطى ، بغية الوعاة ٢/٣٣٣ .

كما أخذ أيضا عن يونس بن حبيب • وأهل الكوفة يدعون أنه استكثر عنه وأهل البصرة يدعون ذلك[٤٤] أيضا • ويقال ان كتاب سيبويه كان لا يفارقه فى مجلسه[٤٥] •

وقد حمل الفراء العربية على الالفاظ والمعانى فبرع[٤٦] • وقد ألف كتابه معانى القرآن طبقا لهذا المبدأ حيث بث فيه كثيرا من المصطلحات النحوية واللغوية التى تفرد بها وخالف فيها البصريين •

ومعنى هذا أن علماء الكوفة لم يكونوا فى غنى عن التلمذة على علماء البصرة ، حتى فى وجود الكسائى بين ظهرانيهم • ولكن الكوفة كما قال الرواة والمؤرخون كانت تخالف البصرة فى تطبيق أصول النحو ، بل قال الرواة ان هـذا الخلاف وقـع بين البصريين أنفسهم فيما يروى عن أبى عمرو بن العلاء الذى كان يقيس على الاشيع ولا يخطىء ما خالف ذلك فيما أشرنا اليه قبلا • يضاف الى ذلك المصطلحات النحوية التى وضعها الفراء وخالف فيها أيضا اصطلاحات البصريين • وكل ذلك جعل بعض الدارسين والباحثين حديثا يرون أن النحو الكوفى يشكل مدرسة مستقلة[٤٧] •

فاذا كان هذا التقسيم يقوم على أساس الموقع الجغرافى لكل من المصرين فقد يجوز ذلك • أما على أساس الاختلاف فى الاصول النظرية أو منهج التفكير وطريقة تحليل الظواهر النحوية واللغوية ، فالنظـرة الموضوعية لا تقبل هذا التقسيم ، لان مصطلح « المدرسة العلمية » قد يفهم منه وجود نظرية أو أصـول نظرية مختلفة • ولم يقـل أحد من القدماء ذلك• وانما الاصول واحدة والاختلاف بين الكوفيين والبصريين،

---

(٤٤) المصدر السابق ، نفس الصفحة •
(٤٥) المرجع السابق ، نفس الصفحة •
وأنظر أيضا الزبيدى ، طبقات النحويين واللغويين ٧٢/٧١ •
(٤٦) الزبيدى ، طبقات النحويين واللغويين ص ١٣١ •
(٤٧) د• مهدى المخزومى ، مدرسة الكوفة ص ٣٥٢ ، وانظر أيضا د• شوقى ضيف ، المدارس النحوية ص ١٥٤ ـ ١٥٥ •

كما قال القدماء ، يكمن فى تطبيق هذه الاصول التعليل لها • فما هذه الاصول ؟

وبادى ذى بدء أقول اننا لن نخوض فى قضية تأثر التفكير النحوى العربى بالمنطق اليونانى أو علم الكلام أو أصول الفقه ، أو حتى بالنحو السريانى أو الهندى ، فقد تناول ذلك عدد من الباحثين[٤٨] ولكن من المؤكد أن العقل العربى أصبح عقلا علميا نادرا على التجريد والتعميم نتيجة لمؤثرات وتيارات كثيرة ، بعضها موروث ، وبعضها وافد • بعضها أصيل وبعضها أجنبى • ومن الصعب تتبع عنصر واحد من العناصر الاجنبية ثم رده الى هذا التيار الفكرى أو ذاك ، مما اتصل به العرب• لان كل ذلك قد امتزج وكون ما نسميه العقلية العلمية العربية فقد عرف العرب السماع والرواية منذ قديم الزمان • كما عرفوا القياس فى صورة اجتهادات لبعض الصحابة والتابعين فى استنباط بعض الاحكام التى لم يرد فيها نص قياسا على ما ورد فيه نص • وقدموا بين يدى هذه الاحكام ببعض التعليلات ، ولكن لاشك أيضا فى أن هذه الاصول التى قام عليها العقل العلمى العربى قد تطورت الى لون من التعقيد والتركيب عند الفقها ، ثم عند علماء الكلام الذين تصدو للدفاع عن الاسلام • وربما كان لبعض المصادر الاجنبية دور فى ذلك • ولكن من الصعب كما قلت رد هذا الجانب أو ذاك الى تيار فكرى أو حضارى معين • ولكن الشىء الثابت هو أن التفكير اللغوى قد استفاد من ذلك كله شأنه فى ذلك

---

(٤٨) من القدماء الذين أثاروا بعض قضايا التأثير والتأثر فى النحو العربى ابن جنى• انظر الفصل الذى عقده فى كتابه الخصائص حول علل النحو ١/٤٨ ـ ٥٣ •

ومن المحدثين انظر :

١ ـ ابراهيم بيومى مذكور فى اللغة والادب ص ٤٨ ـ ٥٣ •

٢ ـ د• عبده الراجحى النحو العربى والدرس الحديث ص ٦٣ـ١٠٧ •

ومن المستشرقين انظر :

Versteegh, Greek elements in Arabic Linguistic thinking Lieden, E. Brill, 1977.

شأن فروع العلم الاخرى • ولذلك أجمع العلماء والمحدثون على أن أصول النحو بالمعنى الشامل الذى أشرنا اليه من قبل أو أصول النظر العلمى فى اللغة عند العرب ، يقوم على ثلاثة مبادىء أو أصول هى :

السماع والقياس والعامل • وقد مزجت هذه الاصول الثلاثة بين الوصفية والمعيارية حيث تتمثل الوصفية فى السماع وتصنيف المادة اللغوية المسموعة بينما تتمثل المعيارية فى القياس والتعليل ليلحق غير العربى بأهل العربية ، كما قالوا • وانتهى ذلك الى وضع نموذج Model نحوى للغة العربية • ولم يكن علماء العربية فى هذا المزج بين المعيارية والوصفية غير بعيدين عن مفهوم العلم الصحيح ، لان غاية العلم فى ذاتها هى تفسير الواقع وبيان أسراره • وليس هناك ما يمنع العالم أن يجعل من هذه الغاية التفسيرية وسيلة عمل نفعية ، أو بعبارة أخرى ، أن يحاول تفسير الواقع من أجل استغلاله • فالغايتان التفسيرية والتطبيقية لا تنتفى احداهما بالاخرى ، ولا تتعارضان تعارض الشىء مع ضده • فصفات العلم غير منوطة بالانتفاع وعدم الانتفاع ، بل بما تمتاز به أعمال العلماء من التحرى والضبط والموضوعية • ولذلك لم يقم علماء العربية القدماء حاجزا أو فاصلا بين هاتين الغايتين التفسيرية والتعليمية ، أو كما يقول المحدثون ، بين الوصفية والمعيارية ، وانما جاء نقد هذا النموذج الذى وضعه علماء العربية القدماء من فهم علماء اللغة المحدثين للوصفية والمعيارية •

على أى حال فان هذه الاصول بهذا الفهم امتزجت عند علماء العربية القدماء ، يستوى فى ذلك البصريون والكوفيون • وأن هذه الاصول قد ساعدت علماء العربية مع نهاية القرن الثانى الهجرى فى وضع هذا النموذج التفسيرى التعليمى للغة العربية • فما هو مفهوم هذه الاصول، كما استقرت فى بيئة النحاة واللغويين ، وأجمع عليها علماء أصول النحو •

١ ـ السماع :

ان أية دراسة علمية لابد أن تقوم على مادة تصبح هى موضوع

الملاحظة والتصنيف ، ثم التجريد والتعميم • وفى الدراسة اللغوية نجد أن المادة اللغوية المنطوقة هى مادة البحث التى حددها علماء اللغة ، أو كما يقال اللغة المنطوقة Spoken Language • كما سنرى ذلك تفصيلا فيما بعد • ولكن السماع عند علماء العربية يؤكد أصالة مبدأ دراسة اللغة المنطوقة وسبقها على اللغة المكتوبة Written Language وهو عكس ما سار فيه تطور الفكر اللغوى الغربى الذى بدأ بالنصوص المكتوبة لينتهى الى اللغة المنطوقة أو المسموعة • غير أن علماء العربية بعد ذلك أدخلوا النصوص كمصدر من مصادر المادة اللغوية ، ولكن الأولوية ظلت للسماع الذى انتهى الى أصل واضح من أصول التفكير اللغوى عند العرب ، يعتمد على ما يسمع من عربى فصيح ، شعرا كان أم نثرا ، أو سماع ما ورد فى نص ثابت معترف بفصاحته • لكن الاصل فيه هو الأخذ المباشر للمادة اللغوية عن الناطقين بها • ويعرف السيوطى (ت ٩١١ هـ) السماع بقوله : « هو ما ثبت فى كلام من يوثق بفصاحته فشمل كلام الله تعالى ، وهو القرآن وكلام نبيه ﷺ ، وكلام العرب قبل بعثه وفى زمنه ، وبعده الى أن فسدت الالسنة بكثرة المولدين نظما ونثرا ، عن مسلم أو كافر »[٤٩] •

ومع أن هذا التعريف لم يجمع عليه علماء اللغة لرفض بعضهم الاحتجاج بالحديث النبوى ، بحجة أنه يروى أحيانا بالمعنى دون اللفظ[٥٠] الا أن السماع بهذه الحدود التى رسمها السيوطى يصلح فارقا بين هذا الاصل العلمى فى الدراسة اللغوية والرواية بصورة عامة ، اذ هى أقدم منه تاريخيا • بينما السماع بهذه الحدود هو ما مارسه علماء العربية ، ولم يتحقق وجوده الا بعد أن فكر القراء واللغويون من بعدهم فى وضع قواعد للغة •

وكانت عناية أهل البصرة من علماء العربية بالسماع وجمع المادة

---

(٤٩) السيوطى ، الاقتراح ، تحقيق د• أحمد محمد قاسم،ص ٤٨•
(٥٠) راجع البغدادى ، خزانة الادب ١/٥ ـ ٦ •

اللغوية لا تقل عن اهتمام أهل الكوفة ، ولذلك كان معظم علمـاء اللغة منذ النصف الثانى من القرن الاول تقريبا سواء فى البصرة أو الـكوفة من الرواة[٥١] • وقد حرصوا جميعا على توثيق المادة اللغوية سواء عند سماعها من مصدرها الاصلى أو نقلا عن هذا المصدر ، ولذلك اشترطوا العدالة والضبط وغيرها من شروط الجرح والتعديل عند رواة الحديث النبوى فيما ينقل عن المصدر الاصلى •

أما البيئة اللغوية التى ينقلون عنها هذه المادة فقد أخضعوها لقواعد عامة اشترطوها أيضـا قبل السماع وتتلخص هـذه القواعد فى أمور ثلاثة هى :

١ ـ **الجنس :** أى يشترط فيمن تؤخذ عنه اللغة أن يكـون عربى الاصل غير مولد ، أو كما يقولون ، من العرب الخلص •

٢ ـ **المكان :** وهو وسط الجزيرة العربية كبوادى نجـد والحجاز وتهامة ، ممن لم يختلط بالامم المجاورة كالفرس والروم وغيرها •

٣ ـ **الزمان :** وحدوده بنهاية القرن الثانى الهجرى فى الحـواضر ونهاية القرن الرابع فى البوادى[٥٢] •

وهى كما نرى شروط وصفية يتحقق بها توثيق المادة اللغوية ، ولكن ثمة خطأ منهجيا وقع فيه هؤلاء العلماء عندما حكموا هذه المبادىء فى المادة اللغوية المسموعة • فمن حيث المكان مثلا أو البيئة اللغـوية فان وسط الجزيرة العربية بقعة واسعة تتعدد فيها مستويات الاستعمـال اللغوى • وقد ترتب على ذلك خلط بين المستويات الاستعمالية المختلفة

---

(٥١) أنظر السيرافى ، أخبار النحويين البصريين ، صفحات ١٧ ، ٢٠، ٢٢، ٢٥، ٢٧، ٣٠ •
وأنظر أيضا الزبيدى طبقات النحويين واللغويين صفحات ١٢٥، ١٢٧، ١٣١، ١٣٢ •

(٥٢) أنظر السيوطى ، الاقتراح ، ص ٥٦ •
وأنظر أيضا كتابنا ، المولد فى العربية ط ثانية ص ١٦٨ ـ ١٧٥ •

التى كانوا يأخـذون عنها ، اذ اعتبروا أن كل ما يسمعـونه ينتمى الى مستوى لغوى متجانس هو ما أطلقوا عليه العربية الفصحى ، وذلك على الرغم من ادراكهم الواضح لوجـود ظواهر صـوتية وصرفية ونحوية ودلالية تنتمى الى لهجـات قبلية ، الا أنهم لم يلتفتوا اليها عند وضع القواعد واستقراء المادة اللغوية ولذلك أصبحنا نقرأ فى كتب النحو عن ما الحجازية وما التميمية ، أو أن هذه القاعدة أو تلك هى استعمال لهجى لقبيلة معينة ، كما فاتهم أيضا أن يدرسوا هذه اللهجات دراسة مستقلة لتتميز عن اللغة المشتركة • ولولا بعض النوادر التى تحكيها كتب اللغة من هذه الآثار اللهجية لظلت هذه الناحية من الدرس اللغوى عند العرب غامضة كل الغموض •

وأما من حيث الزمان فقرنان فى الحواضر وأربعة قرون فى البوادى كفيلة بظهور استعمالات وتطورات لغوية لم تؤخذ فى الحسبان فضلا عن أنهم بهذه الحدود فيما يسمى بنظرية الاحتجاج التى التزمها اللغويون والنحاة ، قد أهدروا جانبا كبيرا من الثروة اللفظية والظواهر النحـوية التى طـرأت على الاستعمال اللغوى ، كما أدى ذلك الى امتناع علماء النحو واللغة بعد القرون الاولى عن درس العربية على أساس أن ما جد من الاستعمالات لا يحتج به ، أو هى من المولد ، اذا استثنينا من ذلك كتب لحن العامة التى قدمت جانبا من هذا التطور •

ولعل أثر نظرية الاحتجاج المرتبطة بمبدأ السماع بهذه الحدود التى أشرنا اليها ، يظهر جليا فى المعجم العربى ، حيث وقفت الثروة اللفظية المعجمية عند هذه الحدود الزمانية والمكانية التى التزم بها علماء العربية مما جعل المعجم العربى لا يصور حقيقة النمو اللغوى الذى وصلت اليه العربية خلال عصور حياتها بعد الاسلام •

وهكذا كان السماع بهذه الحدود التى أملاها الخوف على العـربية من اللحن والتحريف مصدرا للمادة اللغوية التى اتخذ علماء العربية من القياس منهجا للنظر فيها واستقرائها ووصفها • ولم يكن الكوفيون أقل عناية بالسماع من البصريين ، اذ كانوا جميعا يعملون على لقاء الاعراب

والسماع منهم ، بل كان الكوفيون أوسع رواية وأكثر علما بأشعار العرب حتى أنهم احترفوا السماع وتفوقوا فيه على البصريين وتوسعوا فى القياس عليه حتى قيل انهم اذا سمعوا لفظا فى شعر أو نادر كلام جعلوه بابا أو فصلا[٥٣] . أو أنهم اذا سمعوا بيتا واحدا فيه جواز شيء مخالف للاصول جعلوه أصلا وبوبوا عليه . وكان البصريون يحملون على الكوفيين ويتهمونهم من أجل ذلك ، والفراء (ت ٢٠٧ هـ) مثال واضح لاعتداد الكوفيين بالمسموع والاعتماد عليه فى وضع القواعد واستنباطها[٥٤] .

٢ ـ القياس :

وهو الاصل الثانى من أصول النظر النحوى . ولعل عبد الله بن أبى اسحق الحضرمى (ت ١١٧ هـ) يعد من أقدم القراء النحاة الذين نسب اليهم الولوع بالقياس فيما ذكره الرواة ، وأشرنا اليه من قبل . فما دور القياس فى استقراء المادة اللغوية ، وكيف طبق القدماء هذا الاصل على ما سمعوه من العرب . لعل من أهم النتائج التى أبرزها التحليل العلمى للقياس واستخدامه عند النحاة ، أنه يمكننا التمييز بشكل واضح بين مدلولين لهذا المصطلح هما :

١ ـ القياس بمعنى اطراد الظاهرة فى النصوص اللغوية المسموعة واعتبار ما يطرد من هذه الظواهر قواعد ينبغى الالتزام بها وتطبيقها فى الاستعمال . ومن ثم فالذين يطبقونه يرفضون الاخذ بالظواهر اللغوية الشاذة . وهذا هو المفهوم الاستقرائى للقياس[٥٥] . مثال ذلك قولهم كل فاعل مرفوع ، وكل مفعول به منصوب ، ثبت ذلك من استقراء كلام العرب .

وهذا النوع من القياس هو ماكان يقوم به ابن أبى اسحق الحضرمى

---

(٥٣) السيوطى ، همع الهوامع ، ١/٤٥ .
(٥٤) انظر معانى القرآن ، ١/١٤، ٢٢، ٢٣، ٢٩، ٣٢، ٤٠، ٤٩ .
(٥٥) د. تمام حسان . الاصول ، ص ١٦٤ وما بعدها .

وتلاميذه . وهو ما تؤيده الرواية التى ذكرها ابن سلام وأشرنا اليها من قبل عندما سأل يونس بن حبيب بن أبى اسحاق عن كلمة الصويق ، أى العرب يستعملها بهذا النطق بدلا من السين (السويق) فقال له الحضرمى ان عمرو بن تميم تقولها ، ثم أضاف قائلا « وما تريد الى هذا ؟ عليك بباب من النحو يطرد وينقاس »[٥٦] .

وقد اعتمد الخليل بن أحمد على هذا النوع من القياس كما اعتمد عليه أيضا من قبل أبو عبد الله بن أبى اسحاق الحضرمى ويصور ذلك أصدق تصوير الحوار الذى دار بين الخليل وتلميذه سيبويه فى رفع المنادى اذا كان مفردا ونصبه اذا كان مضافا أو نكرة غير مقصودة . وجواز نصب نعت المنادى المفرد ورفعه وضرورة النصب لنعت المنادى المضاف . وقد نقل سيبويه هذا الحوار كاملا فى كتابه[٥٧] .

٢ ــ أما المدلول الثانى للقياس فهو عملية شكلية صورية يتم فيها الحاق أمر بآخر لما بينهما من شبه أو علة . فيعطى الاول حكم ما ألحق به أو هو ، كما يقول ابن الانبارى (ت ٥٧٧ هـ) حمل غير المنقول على المنقول اذا كان فى معناه[٥٨] . وأغلب الظن أن هذا النوع من القياس قد هاجر من بيئة الفقهاء والمتكلمين الى بيئة النحاة ، وهو يتكون من أطراف أربعة هى :

١ ــ المقيس عليه .

٢ ــ المقيس .

٣ ــ العلة الجامعة بينهما .

٤ ــ الحكم .

ومثاله فيما أشار السيوطى « أن تركب قياسا فى الدلالة على رفع

---

(٥٦) طبقات فحول الشعراء ص ١٥ .
(٥٧) أنظر سيبويه ، الكتاب ١٨٢/٢ ــ ١٨٨ .
(٥٨) السيوطى ، الاقتراح ، ص ٩٤ .

ما لم يسم فاعله فتقول اسم أسند الفعل اليه مقدما عليه فوجب أن يكون مرفوعا ، قياسا على الفاعل • فالاصل هو الفاعل والفرع هو ما لم يسم فاعله • والحكم هو الرفع ، والعلة الجامعة هى الاسناد »[٥٩] •

وواضح من كلام السيوطى هنا أن مدار البحث يجرى لمعرفة علة رفع نائب الفاعل الذى ثبت من قبل بالاطراد ، أى بالمفهوم الاستقرائى للقياس ، وليس من أجل استخلاص قاعدة من كلام العرب • وهذا اللون من القياس كان يتجه أساسا للبحث عن العلة • حتى أصبح السؤال بلماذا هو مدار البحث ، أى لماذا رفع الفاعل ولماذا نصب المفعول ، وذلك فيما يعرف عندهم بالعلل الثوانى والثوالث • ويظهر ذلك بجلاء فى الاصل الثالث ، وهو العامل[٦٠] •

٣ ـ العامل :

يقول سيبويه (ت ١٨٠ هـ) فى أول كتابه « هذا باب مجارى أواخر الكلم من العربية ، وهى تجرى على ثمانية مجار • على النصب والجر والرفع والجزم والفتح والضم والكسر والوقف ••• وانما ذكرت لك ثمانية مجار لأفرق بين ما يدخله ضرب من هذه الاربعة لما يحدث فيه العامل ، وليس شىء منها الا وهو يزول عنه ، وبين ما يبنى عليه الحرف بناء لا يزول عنه لغير شىء أحدث ذلك فيه من العوامل التى لكل عامل منها ضرب من اللفظ الحرفى ، وذلك الحرف ، حرف الاعراب »[٦١] •

فى هذا النص يضع سيبويه نظرية العامل كاملة ، وهى تقوم على سؤال كبير هو ما علة حركات الاعراب • وهذا التساؤل هو الذى وجه التفكير النحوى الى الوجهة التى وجدناه عليها ، وهو تساؤل يبدو طبيعيا لان بداية الخطأ فى الكلام اتصلت بظاهرة الاعراب ، ولذلك هيمن التعليل

---

(٥٩) المصدر السابق ، ص ٩٦ •
(٦٠) حول القياس وأصوله وشروطه • انظر المصدر السابق ص ٩٦ ـ ١٠٨ • وأنظر أيضا د• تمام حسان ، الاصول ص ١٦٤ ـ ٢٠٠ •
(٦١) الكتاب ط هارون ١٣/١ •

لهذه الحركات الاعرابية ومحاولة وضع قوانين للالتزام بها على التفكير النحوى العربى • وهى غاية تطبيقية تعليمية • ولكن هذا التفكير اتخذ بعد ذلك على يد الخليل صورة النظرية العلمية المختلطة بنماذج تطبيقية وتوجيهات تعليمية • ولعـل ذلك ما دعا الزجـاجى (ت ٣٣٧ هـ) الى تقسيم علل النحو بما لها من صلة بأصوله الى ثلاثة أضرب هى العـلل التعليمية والعلل القياسية والعلل الجدلية النظرية •

فأما التعليمية فهى التى يتوصل بها الى تعلم كلام العرب « لاننا لم نسمع نحن ولا غيرنا كل كلامها منها لفظا ، وانما سمعنا بعضا فقسنا عليه نظيره »[٦٢] مثال ذلك ، لما سمع قام زيد فهو قائم وركب زيد فهو راكب ، عرفنا اسم الفاعل فقلنا ذهب فهو ذاهب وأكل فهو آكل • ثم يقول « فمن هذا النوع من العلل قولنا ان زيدا قائم فان قيل بما نصبت زيدا؟ قلنا بان لانها تنصب الاسم وترفع الخبر لانا كذلك علمناه ونعلمه• وكذلك قام زيد ، فان قيل لما رفعتم زيدا قلنا لانه فاعل اشتغل فعله به فرفعه • وهذا وما أشبهه من نوع التعليم ، وبه ضبط كلام العرب[٦٣]•

أما العلة القياسية فيحددها الزجاجى بقوله : « فان يقال لمن قال نصبت زيدا بان فى قوله ان زيدا قائم ، ولم وجب أن تنصب ان الاسم فالجواب فى ذلك أن يقول لانها وأخواتها ضارعت الفعـل المتعدى الى مفعول فحملت عليه فأعملت اعماله لما ضارعته »[٦٤] •

أما العلة الجدلية فهى كل ما يتصل فى مثل باب ان من حيث شبهها بالافعال فى العمل[٦٥] •

ولا شك أن الهدف التعليمى أو العلل التعليمية كما قال الزجاجى ، كانت السبب المباشر للقول بالعمل تفسيرا لحـركة الاعراب ، وربمـا

---

(٦٢) الايضاح فى علل النحوص ٦٤ •
(٦٣) المصدر السابق ، نفس الصفحة •
(٦٤) المرجع السابق ، نفس الصفحة •
(٦٥) المرجع السابق ، نفس الصفحة •

لبسهل تعلمها والالتزام بها فى الكلام. ومن ثم رأوا كما قال سيبويه ان حركات الاعراب ما هى الا أثر لمؤثر لابد أن يكون قد أحدثها ، ومعنى هذا أنهم تصوروا أن الاعراب طارىء يحدث نتيجة لوجود عامل .

وتقوم نظرية العمل فى النحو العربى على أركان ثلاثة ترتبط فيما بينها برباط وثيق ، هى :

١ ــ العــامل .

٢ ــ المعمــول .

٣ ــ الحركة الاعرابية ، وهى عندهم رمز لتأثير العامل فى المعمول.

ويبدو أن النحاة لم يتصوروا العلاقة بين العامل والمعمول وحركة الاعراب تصورا منطقيا صوريا قائما على النظر العقلى ، وانما تصوروها على أنها امــارات ودلالات(٦٦) . ولكنهم ، مع ذلك اتخــذوا من هذه العلاقة تصورا نظريا حــكموه فى أقسام الكلام فقسموها الى عوامل ومعمولات . أما العامل فقسموه الى عامل لفظى وعامل معنوى وقسموا العامل أيضا الى عامل قوى وعامل ضعيف ، واللفظى أقوى من المعنوى. ويتمثل العامل اللفظى القوى فى الافعال . ومع ذلك فهناك عوامل لفظية ضعيفة مثل الحروف . والاصــل فى العمل للافعال . وهى تعمــل فى الاسماء فتحدث فيها الرفع والنصب ، ولا ترفع الا اسما واحدا . بينما تنصب أكثر من اسم فيما يعرف بالافعال المتعدية ، وهى أكثر قوة من الافعال اللازمة . وقد يعمل الاسم حملا على الفعل . ولابد فى ذلك من أن يتحقق له شبه بالفعل ، كما فى اسم الفاعل واسم المفعول والمصدر والصفة المشبهة . وقد يعمل الاسم فى الاسم كالمبتدأ فى الخبر ، وأما الحرف فيعمل بنفسه أحيانا ، وحملا على الفعل أحيانا أخرى . وهــو على الرغم من ضعفه هذا الا أنه يعمل فى الاسم والفعل ، فينصب الاسم ويجره ، ويجزم الفعل وينصبه ، ولكن عمل الحرف محمول على الفعل ،

---

(٦٦) راجع الانصاف فى مسائل الخلاف ٣١/١ .

وكأن نصيبه فى العمل بمقدار ما فيه من شبه بالفعل لفظا ومعنى فان مثلا تعمل لانها تدل على التوكيد فأشبهت الفعل معنى ، ولانها ثلاثية أشبهت الفعل لفظا .

وأما من حيث ترتيب العامل فى التركيب ، فالاصل أن يتقدم العامل على المعمول ، ومع ذلك فقد يعمل متقدما ومتأخرا اذا كان قويا . أما اذا كان ضعيفا فلا يعمل الا متقدما . كذلك لا يصح أن يجتمع عاملان على معمول واحد ، ولو وجد ما ظاهره ذلك ، جعلوا لاحدهما التأثير فى اللفظ وللاخر التأثير فى المعنى . وكل ذلك العمل تظهر آثاره فى حركة الاعراب التى تكون بدورها ظاهرة أحيانا ومقدرة أحيانا أخرى .

والبصريون أحرص على هذا الاصل وأمهر فى تطبيقه فهم أصحابه وواضعوه ، ومع ذلك فالكوفيون يطبقونه أيضا ولكن بالنظر الى المادة المسموعة ومدى استجابتها له ، ولذلك غيروا وعدلوا فى العمل النحوى ، ولكنهم يسلمون به ويستخدمونه غير أن البصريين جنحوا الى التقدير والتأويل عندما لا تستجيب النصوص المسموعة للعمل النحوى فلابد من البحث عن علة الاعراب ولو أدى ذلك الى تشويه المسموع من كلام العرب ، فهم يقدرون مثلا خبرا محذوفا فى مثل «ان حراسنا أسدا»[٦٧] لتبرير نصب كلمة أسد ، ويعتبرون الفاعل فى جملة مثل « زيد قام » ضميرا مستترا تقديره هو للحفاظ على القاعدة التى تنص على وجوب أن يأتى الفاعل بعد الفعل رغم عدم وجود ما يمنع من وقوع الفاعل قبل الفعل وهو ما قال به الكوفيون[٦٨] . كذلك تقدير النحاة لفعل محذوف يفسره الفعل الموجود شائع مشهور فى مثل قولهم : «زيدا ضربته» فأصله عندهم ضربت زيدا ضربته . وفى قوله تعالى : « اذا السماء انشقت » انما هو اذا انشقت السماء انشقت . لان أداة الشرط لابد أن يليها فعل . ومثل ذلك كثير .

والبصريون ــ كما قلت ــ أحرص على تطبيق ذلك من الكوفيين

---

(٦٧) ابن هشام ، مغنى اللبيب ٣٧/١ .
(٦٨) الانصاف فى مسائل الخلاف ١٧٩/١ .

الذين امتازوا بحمل العربية على اللفظ والمعنى معا ، فاذا أفسد الاعراب المعنى فليس من كلام العرب ، يقول الفراء « كل مسألة وافق اعرابها معناها ومعناها اعرابها فهو الصحيح ، وانما لحق سيبويه الغلط لانه حمل كلام العرب على المعانى وخلى عن الالفاظ ولم يوجد فى كلام العرب ولا أشعار الفحول الا ما المعنى فيه مطبق للاعراب والاعراب مطبق للمعنى »[٦٩] .

وهكذا بنى صرح النحو العربى وفق هذه الاصول الثلاثة التى يسلم بها البصريون والكوفيون ، ومع ذلك نجد الرواة والمؤرخين يقولون ان هناك خلافا بين البصرة والكوفة ويغلو بعض المحدثين حين لا يسلمون بما قال به القدماء من وجود خلاف ، وانما يذهبون الى القول بوجود مدرسة مستقلة[٧٠] فهل يشكل النحو الكوفى حقا مدرسة مستقلة فى تاريخ الفكر اللغوى عند العرب ؟

ان مصطلح «مدرسة لغوية» ـ كما سنرى خلال هذا البحث ـ يعنى وجود نظرية لغوية مستقلة ذات أصول منهجية وفكرية جديدة ينادى بها أحد العلماء ويلتف حوله عدد من الباحثين يؤمنون بهذه النظرية ويطبقونها ويعملون على تطويرها والدفاع عنها ، واستمرار هذه النظرية ودوامها عبر السنين شرط أساسى فى تكوين المدرسة اللغوية التى لا يمكن أن تستحق هذا الاسم أو يعترف بوجودها بمجرد وضع النظرية ، وانما لابد أن تعيش ويكتب لها البقاء مدة من الزمن[٧١] .

ومعنى هذا أن اتخاذ المعيار الجغرافى أساسا لتقسيم العلوم الى مدارس مختلفة لا يكون صحيحا اذا لم تصحبه أو تواكبه نظرية علمية جديدة ، لان وجود جماعة من الباحثين أو العلماء فى مكان واحد لا يكفى

---

(٦٩) الزبيدى ، طبقات النحويين واللغويين ص ١٣١ .
(٧٠) د. مهدى المخزومى ، مدرسة الكوفة ص ٣٥٢ .
وانظر ايضا د. شوقى ضيف ، المدارس النحوية ص ١٥٤ ـ ١٥٥ .
(٧١) د. احمد مختار عمر ، البحث اللغوى عند العرب ص ٩٩ ـ ١٠٠ .

لتكوين مدرسة علمية الا اذا وجدت نظرية، ومن ثم لايكون الداعى لاطلاق اسم المدرسة العلمية عليهم ليس وجودهم فى مكان واحد وانما اشتراكهم فى العمل وفق نظرية واحدة حتى ولو وجدوا فى بقاع متفرقة .

فاذا نظرنا على ضوء هذا المفهوم لمصطلح « المدرسة العلمية » الى ما يسمى فى تاريخ الفكر اللغوى العربى باسم المدارس النحوية فسنجد أن هذا المصطلح لا ينطبق الا على البصرة وحدها ، ولعل القدماء كانوا أهدى حسا عندما قالوا ان هناك خلافا بين البصرة والكوفة ، وانما المحدثون هم الذين أطلقوا هذه التسمية حتى شاع تقسيم الفكر اللغوى العربى الى مدارس فهناك بجانب البصرة والكوفة مدارس أخرى مثل المدرسة البغدادية والاندلسية والمصرية »[٧٢] .

أما لماذا نستثنى البصرة وحدها ونطلق عليها اسم المدرسة دون بقية الاتجاهات الاخرى فى الكوفة أو بغداد أو مصر ؟ الحق اننا قد نخوض غمار كثير من التفاصيل الدقيقة اذا ما أردنا الاجابة العلمية عن هذا التساؤل ولكن رغم ذلك يمكن أن تحدد الاسباب التى تدعو الى هذا فيما يلى :

١ ــ أن البصرة هى صاحبة الاصول النظرية التى قام عليها الدرس النحوى واللغوى عند العرب ممثلة فى السماع والقياس والعامل، وهى الاصول نفسها التى يسلم بها علماء العربية جميعا سواء فى الكوفة أو غيرها وعلى أساس منها يجرى التحليل النحوى ، ومع ذلك فقد نقرأ

---

(٧٢) كان من الممكن ان نطلق فعلا على الاندلس اسم المدرسة النحوية لو أن نظرية ابن مضاء القرطبى (ت ٥٩٢ هـ) التى وضع أصولها فى كتابه «الرد على النحاة» وجدت صدى فيما كتبه علماء اللغة والنحو من بعده ، ولكنها وقفت عند حدود الدعوة الى اعادة النظر فيما وضعته البصرة من أصول نحوية ومبادىء تحليلية دون أن يؤمن بها أحد أو يدافع عنها ، وقد كانت نظرية ابن مضاء جديرة بأن تلفت نظر النحاة لانها نادت بأصول فكرية ومناهج تحليلية جديدة تختلف عما وضعته البصرة . انظر الفصل الثانى من هذا الباب .

فيما يرويه المؤرخون أن الكوفة تتوسع فى السماع والقياس حتى أنها تقيس على الشاهد الواحد بينما البصرة تضيق حدود السماع وترى شرط الاطراد وكثرة الاستعمال ومع ذلك فان الكوفة تطبق الاصل نفسه وتقيس عليه وتعلل له بهذه العلة أو تلك ولكنها فى جميع الاحوال لا تطرح أصلا من هذه الاصول جانبا أو تغيره .

٢ ــ ان علماء الكوفة قد تلقوا هذه الاصول عن نحاة البصرة ، فقد رأينا من قبل كيف تلقى الكسائى النحو عن الخليل وكذلك الفراء الذى كان لا يفارقه كتاب سيبويه والكسائى والفراء هما زعيما النحو فى الكوفة .

٣ ــ هناك خلاف واضح وظاهر فى المصطلحات النحوية بين البصرة والكوفة ولكن هذا الخلاف لا يؤدى الى القول بوجود مدرسة كوفية مستقلة عن النظرية البصرية ، فالمصطلحات فى نهاية الامر هى الجانب السطحى من النظرية العلمية وليست الجانب الاصيل فيها اذا لم يصحب هذا الاختلاف منطلقات نظرية وفكرية ومعرفية جديدة ، والا فماذا يغير من النظرية البصرية اذا ما أطلقنا على حرف الجر مصطلح الصفة اذا كان هناك اتفاق على أن هذا العنصر اللغوى يحدث الجر ، ومثل ذلك لو أطلقنا على النفى مصطلح الجحد أو غيره من المصطلحات النحوية التى انفردت بها الكوفة(٧٣) .

٤ ــ ان النحو الكوفى لا يكاد يجد له أنصارا بعد القرن الرابع الهجرى تقريبا ، ولو أن العلماء وجدوا فيما يسمى بالمدرسة الكوفية شيئا يختلف اختلافا جذريا نظريا وفكريا وتحليلا عن النحو البصرى لاتجهوا اليه وتوسعوا فيه ــ ولكنهم وجدوا فى النظرية البصرية وفى صنيع الكوفة تشابها جعلهم يتجهون الى الاصل ، وربما لعبت الظروف السياسية دورا فى انتشار النظرية البصرية ، ولكن ذلك لا ينفى أن

---

(٧٣) انظر الفراء ، معانى القرآن ، ١/١٣، ١٧، ٣١، ٥٢ .

النحو الكوفى لم يستطع خلال قرنين من الزمان تقريبا أن يشق له طريقا فى تاريخ الفكر اللغوى عند العرب لوجود النظرية الاصيلة ممثلة فى أعمال النحاة البصريين(٧٤) .

المنهج واحد والاصول النظرية واحدة ولا خلاف حول هذه الاصول وانما فى بعض المصطلحات وفى تطبيق النظرية والتعليل لبعض التراكيب، وقد يصادف صنع الكوفيين بعض المبادىء الوصفية التى ينادى بها علماء اللغة الآن ، وقد يقال ان الكوفيين أقرب فى درسهم للعربية الى طبيعة الظاهرة اللغوية والمنهج العلمى فى درسها ولكن ذلك كله لا يقوم على نظرية لغوية مختلفة عن النظرية البصرية ، لذلك نرى البصريين يهبون للدفاع عن نظريتهم وأصولهم حينما رأوها تشوه على يد الكوفيين وشنوا عليهم حملة شعواء حين وجدوهم يتوسعون فى السماع والقراءات وخصوا الكسائى بكثير من هذه الحملات .

صفوة القول اذن أن ما يسمى بالنحو الكوفى رغم اختلافه فى بعض المصطلحات والتعليل مع النظرية البصرية الا أنه لا يقوم على نظرية لغوية جديدة تقف أمام نظرية البصرة ، وانما أقصى ما يمكن قوله صدد هذا أن النحو الكوفى ما هو الا تطوير فى اطار النظرية البصرية ، ولعل ابن مضاء القرطبى كان يشعر بشىء من ذلك عندما وضع كتابه فى الرد على النحاة ، فخص نحاة البصرة بهجومه دون أن يتطرق الى نحاة الكوفة الذين عدهم تبعا للبصريين .

بل لعلى لا أتجاوز الحقيقة اذا قلت أن معظم ما كتب حول درس العربية صرفيا ونحويا منذ ظهور كتاب سيبويه والى أن اتصل علماء العربية فى العصر الحديث بالفكر اللغوى الغربى ، لم يضف شيئا جديدا

---

(٧٤) السيوطى ، بغية الوعاة ٢/١٩٦٤ .

الى هذا الكتاب أو الى ما وضعته البصرة من أصول وقواعد وما أثارته من قضايا نحوية وصرفية[٧٥] .

لقد كان تأثير كتاب سيبويه أشبه بالاعجاز أو السحر ، فلم يفكر أحد فى تجاوز ما فيه بل قال قائلهم من أراد أن يعمل كتابا فى النحو بعد كتاب سيبويه فليستحى ، وعلى الرغـم من أن الدراسات النحوية قد عرفت بعد سيبويه عقولا علمية فذة ليست أقل منه قدرة على الابداع الا أن الايمان بكمال اللغة العربية وأفضليتها على سائر اللغات قد انتقل الى كتاب سيبويه كأنما أصبح هو واللغة العربية سواء ، فعكفوا عليه شرحا وتعليقا واختصارا حتى بلغ عدد العلماء الذين شرحوه أو شرحوا بعض مشكلاته أو شواهده أو اختصروه أكثر من خمسين عالما أكثرهم من أشهر علماء اللغة والنحو[٧٦] بل ان كثيرا من هؤلاء العلماء عندما حاولوا التأليف بعيدا عن كتاب سيبويه لم يستطيعوا الابتعاد عنه كثيرا بل كانوا يدورون فى فلكه وحـول أصوله البصرية حتى أصبح عملهم يتصل بالمسائل الجزئية دون الاصول النظرية ، بل لقد أغرتهم هـذه الاصول فربطوا بينهـا وبين المنطق الصورى بعـد شيوعه اثر حركة الترجمة الواسعة فى العصر العباسى ونسوا فى غمرة السحر أو الاعجاز الذى بثه الكتاب فى عقولهم طبيعة الدراسة اللغوية وهدفها والتى وضع كتاب سيبويه من أجلها ، فاستحالت دراسة اللغة من منهج علمى لوصف اللغة وقواعدها الى دراسة لهذه المسائل الجزئية بل لقد كان من المتوقع بعد اتساع رقعة الدولة وتعدد العواصم الاسلامية فى العصر العباسى الثانى ونمو الحركة العلمية واتساعها بعد أن كانت محصورة فى المدينة

---

(٧٥) استثنى من ذلك دراسة الجانب الدلالى من العربية وما يتصل به من دراسة المفردات وعلاقاتها الدلالية وطبيعة الدلالة وجهاتها من حيث علاقة اللفظ بالمعنى ووضع المعاجم بأنواعها سواء ما تم منه على أيدى علماء اللغة أو علماء أصول الفقه ففيه اضافات جديدة تحتاج الى درس مفرد ، وكذلك علم الاصوات ودراسة الصوت اللغوى عند ابن جنى وعلماء البلاغة مثل السكاكى .

(٧٦) عبد السلام هارون ، مقدمة كتاب سيبويه ١/٣٥ ـ ٤١ .

والبصرة والكوفة ، كان من المتوقع أن تنشأ مدارس نحوية ولغوية جديدة نتيجة لاختلاف البيئات والثقافات والعقول ولكن شيئا من ذلك لم يحدث اذا استثنينا محاولة ابن مضاء القرطبى كما أشرت من قبل وكذا بعض الملاحظات الجزئية المتفرقة لابن جنى تفتقر الى منهج جديد وانما الذى حدث أن ازداد سيل المؤلفات النحوية ورغم امتيازها أحيانا بطابع اقليمى خاص ، الا أنها لم تخرج أيضا عما وضعه سيبويه أو قريبا منه وكان الهدف هو الاحاطة بكل ما يتصل بعلم النحو وافتنوا فى عرضه بصور مختلفة .

وعندما سقطت الدولة العباسية عام ٦٥٦ هـ كانت المؤلفات النحوية قد تضخمت واتسعت فبدأت تظهر المنظوقات النحوية والمتون التى كان الهدف منها « تقرب الاقصى بلفظ موجز »[٧٧] ولكنها فشلت فى تحقيق هذا الهدف لانها جاءت فى لغة معماه يصعب على الدارس فهمها ناهيك عن دراسة النحو من خلالها ، واحتاجت المتون الى شروح والشروح الى حواش وتعليقات وانتهى هذا الميراث كله وبخاصة فى صورته الاخيرة الى الازهر[٧٨] .

ولكن مع بداية العصر الحديث أخذت مشكلة دراسة اللغة العربية وتدريسها طابعا حضاريا نتيجة لشعور حاد بتخلف العربية عن تلبية حاجات المتكلمين بها فى مواجهة الحضارة الغربية الحديثة وتمثل ذلك فى سؤال عريض : هل اللغة العربية وافية بمطالب العلوم والفنون فى العصر الحديث ؟ وكان من أثر هذا القصور الذى شعر به الكتاب والعلماء[٧٩] ظهور دعوات لتيسير واصلاح النحو العربى سميت آنذاك تجديدا وهى أبعد ما تكون عنه اذا ما فهمنا التجديد على أنه دعوة

---

(٧٧) أنظر ابن مالك ، متن الالفية ص ٩ .
(٧٨) د. طه حسين ، مستقبل الثقافة فى مصر ، ٢٣١ ، ٢٨٢ ؛ وأنظر أيضا د. محمود فهمى حجازى ، علم اللغة العربية ص ٩١-٩٤
(٧٩) راجع كتابنا المولد فى العربية ط. ثانية ص ٥١٦ - ٥٢٣ .

لاعادة وصف اللغة العربية وفق أصول نظرية وعلمية جديدة أى وضع نموذج وصفى يخالف النموذج البصرى ويتعامل مع التغير اللغـوى الذى طرأ على العربية منذ أن وضعت البصرة أصولها ومنهجها فى تحليل ودراسة هذه اللغة .

وتمثل دعوات التيسير والاصلاح هذه مرحلة جديدة ومتمـيزة فى تاريخ الفكر اللغوى العربى الحديث قبل الاتصال بعلم اللغة الحديث وهو ما سنفرد له الفصل الثانى من هذا الباب .

الفصل الثانى

العربية ودعوات الاصلاح والتيسير

لعل أول ما نلاحظه على هذه الدعوات أنها خصت جانبا واحدا من درس العربية باهتمامها ، وهو النحو ، لا بالمفهوم الشامل الذى كان عليه فى القرن الثانى للهجرة ، كما يمثله كتاب سيبويه • وانما بمفهوم أضيق يقتصر على قواعد الصرف والتركيب ، دون الاصوات أو الدلالة• وظهرت هذه الدعوات فى اطار عام ينادى بتطـوير اللغة العربية حتى تصبح وافية بمطالب العلوم والفنون فى العصر الحـديث • ويبدو أن هذا المفهوم الضيق لمصطلح النحو من ناحية ومحاولات تيسيره واصلاحه من ناحية أخرى قد انحدرت الى المحدثين فيما انحدر اليهم من تراث القدماء أيضا • فالشكوى من صعوبة النحو واستغلال كتبه ، وعسر فهمها ، واختلاف الآراء حوله شكوى قديمة ، والخصومة بين الشعراء والنحاة صورة من صور عدم الرضا ، أو قل ، الاختلاف حـول بعض القواعد • وقد بدأت ، كما أشرنا من قبل ، بما حدث بين ابن أبى اسحق الحضرمى (ت ١١٧ هـ) والفرزدق (ت ١١٠ هـ) وبلغت الذروة بين المتنبى (ت ٣٥٤ هـ) وابن خـالويه (ت ٣٧٠ هـ) الـذى كان له مع المتنبى مناظرات وجولات حول النحو واختلافهم حوله[1] ولذا ارتفعت مع نهاية القرن الثانى تقريبا أصوات تطالب بتيسير النحو أخذت تظهر أحيانا فى صورة آراء وتعليقات لبعض علماء اللغة والنحو • وذكرهـا الرواة والمؤرخون مثل قول أبى على الفارسى (ت ٣٧٧ هـ) عن معاصرة أبى الحسن الرمانى (ت ٣٧٤ هـ) « ان كان النحو ما يقـوله الرمانى

---

(١) ياقوت معجم الادباء ، ٢٠٢/٩ •

فليس معنا منه شيء • وان كان النحو مانقوله نحن فليس معه منه شيء»[٢] • وهي شكوى وتذمر من غلو الرماني وخلطه النحو بالمنطق ، أكثر منها دعوة الى التيسير والاصلاح • وهو غلو فيما يبدو لم يستسغه علماء القرن الرابع الذي طغت فيه الفلسفة •

لكن هذه الدعوات تجاوزت هذه الآراء وظهرت بشكل عملي في صورة كتب تعليمية ميسرة تلبي حاجة الطلاب والمتكلمين ، نجد أسماءها مبثوثة في ثنايا كتب التراجم والطبقات ، ويدور معظمها حول اختصار القواعد النحوية وتقديمها في صورة سهلة ميسرة ، من هذه الكتب نجد على سبيل المثال : مقدمة في النحو منسوبة الى خلف الاحمر (ت ١٨٠ هـ) ومختصر في النحو للكسائي (ت ١٩٨ هـ) ومختصر آخر للجرمي (ت ٢٢٥ هـ) وثالث لابي موسى الحامض (ت ٣٠٥ هـ) ورابع للزجاج (ت ٣١٠ هـ) ثم كتاب الجمل للزجاجي (ت ٣٣٧ هـ) والتفاحة في النحو لابي جعفر النحاس (ت ٣٣٨ هـ) كما ألف أبو علي الفارسي (ت ٣٧٧ هـ) كتابين هما الايضاح في النحو والتكملة في الصرف • وشارك تلميذه ابن جني (ت ٣٩٢ هـ) في هذا النوع من الكتب بكتاب اللمع • وقد وصلتنا بعض هذه المختصرات مثل مقدمة خلف الاحمر وتفاحة أبي جعفر النحاس ، وجمل الزجاجي ، ولمع ابن جني •

أما مقدمة خلف الاحمر فتقع في حوالي ثمان وستين صفحة في الطبعة التي حققها عز الدين التنوخي ونشرها عام ١٩٦١[٣] • وقد استهل خلف الكتاب بمقدمة يقول فيها « لما رأيت النحويين وأصحاب العربية أجمعين قد استعملوا التطويل وكثرة العلل وأغفلوا ما يحتاج اليه المتعلم المتبلغ في النحو من المختصر ، والطرق العربية ، والمأخذ الذي يخف على المبتدىء حفظه ويعمل فيه عقله ، ويحيط به فهمه • فأمعنت النظر والفكر في كتاب أؤلفه ، وأجمع فيه الاصول والادوات والعوامل على

---

(٢) السيوطي ، بغية الوعاة ١٨١/٢ •
(٣) انظر خلف الاحمر ، مقدمة في النحو ص ٣٣ وما بعدها •

أصول المبتدئين ليستغنى به المتعلم عن التطويل ، فعملت هذه الاوراق ولم أدع فيها أصلا ولا أداة ولا حجة ولا دلالة الا أمليتها فيها • فمن قرأها وحفظها وناظر عليها علم أصول النحو كله مما يصلح لسانه فى كتاب يكتبه أو شعر ينشره ، أو خطبة أو رسالة ان ألفها»[٤] •

وقد جمع المؤلف فى هذه المقدمة القواعد الاساسية التى رأى أن المتكلم والكاتب لا يستغنى عنها ، وبخاصة فيما يتصل بضبط أواخر الكلمات والعوامل المؤثرة فى ذلك • فبدأ بباب الحروف التى ترفع كل اسم بعدها مثل انما ، وكأنما ، وهل ، وبل ، وأين ، وحيث ، ومتى ، وحتى ••• الخ[٥] • ثم باب الحروف التى تنصب كل شىء أتى بعدها مثل رأيت ، وظننت ، وخلت ، وحسبت ، ووجدت ، وأبصرت ، وسمعت ••• الخ[٦] ثم باب الحروف التى تخفض ما بعدها من اسم وأخبارها مرفوعة ، ويقال لها حروف الصفات مثل من ، والى ، وعن ، وعلى ، وتحت ، ودون ، ووراء ••• الخ[٧] • ثم باب حروف الجزم مثل : لم ، ولما ، وألم ، وألما ، وأفلما • ثم يقول والامر والنهى مجزومان أبدا • وتكسر الجزم اذا لقيته الالف • واللام[٨] •

ثم يمضى بعد ذلك فى بيان وجوه الرفع والنصب والخفض وان وأخواتها وكان وأخواتها ، وحروف الاشارة ، والحروف التى تقتضى الفاعل مثل : أحب ، وأراد ، واشتهى ، والتى تقتضى المفعول مثل : سر ، وأعجب ، وساء ، والجواب بالفاء فى باب أن ، والحروف التى تنصب الافعال ، والحكاية والنداء المفرد والمنسوب والمضاف والندبة والاستثناء والتحذير والاغراء ، ومنذ •

---

(٤) المصدر السابق ص ٣٣ ـ ٣٤ •
وانظر أيضا د• أحمد مختار عمر ، البحث اللغوى عند العرب ص ١٢٧ ـ ١٢٨ وعبد الوارث مبروك فى اصلاح النحو العربى ص ٣٩ •
(٥) المصدر السابق ص ٣٦ ـ ٤٠ •
(٦) المصدر السابق ص ٤١ ـ ٤٢ •
(٧) المصدر السابق ص ٤٣ ـ ٤٧ •
(٨) المصدر السابق ص ٤٨ ـ ٥٠ •

وبذلك ينهى أبواب النحو عنده ، ثم يبدأ بعد ذلك فى أبواب الصرف فيذكر ما يأتى من الكلمات على وزن فعلان وعلى وزن مفاعيل وعلى وزن فعلاء ، ثم باب المذكر والمؤنث • ولكنه يعود الى النحو مرة أخرى فى باب رب وكم ليختم بهما مقدمته •

فاذا صحت نسبة هذه المقدمة لخلف الاحمر[٩] ,فهى تدل على شعور مبكر بصعوبة النحو وتضخم قواعده فحاول خلف اختصارها ولكنه كما نرى اختصار مخل مبهم فى كثير من جوانبه ، ويظهر ذلك من الترخص الشديد فى استعمال بعض المصطلحات النحوية مثل مصطلح الحرف الذى يستعمله مرة بمعنى حرف الجر ومرة أخرى بمعنى الفعل وثالثة بمعنى الكلمة مطلقا • كما أن أحكامه فى نطاق التراكيب التى ذكرها لا تؤدى الى ادراك القاعدة النحوية ادراكا صحيحا • فمثلا الحروف التى حكم بأنها تنصب كل شىء أتى بعدها مثل : رأيت وظننت فى مثل قولك : رأيت عبد الله الظريف راكبا • وظننت عندك الشريف جالسا ، تهمل تاء الفاعل الذى أتى بعدها وهو فى محل رفع[١٠] •

وعلى العكس من ذلك يأتى كتاب التفاحة فى النحو لابى جعفر النحاس دقيقا صحيحا واضح العبارة • كما اشتمل على القواعد الاساسية التى يجرى عليها الكلام فى العربية ، وهو فى النسخة التى حققها كوركيس عواد ونشرها عام ١٩٦٥ يقع فى خمس عشرة صفحة[١١] كلها تتناول موضوعات نحوية خالصة تتصل بقواعد التركيب ولا تتناول شيئا من موضوعات الصرف الا اشارة عابرة لبعض الاوزان والصيغ فى باب الاسماء التى لا تنصرف • ويحتوى الكتاب على واحد وثلاثين فصلا يبدأها المؤلف بباب أقسام العربية ، يقصد أقسام الكلام ، ثم باب الاعراب وباب رفع الاثنين والجمع وباب أقسام الفعل ، وباب

---

(٩) لم يقطع محقق الكتاب بنسبته الى خلف الاحمر ، أنظر مقدمة المحقق ص ٦ •
(١٠) المصدر السابق ص ٤٢ •
(١١) أنظر التفاحة ص ١٤ – ٢٩ •

الفاعل والمفعول وباب الابتداء ، وباب حروف الخفض وباب الحروف التى تنصب الاسماء وترفع الاخبار ، وباب الحروف التى ترفع الاسماء وتنصب الاخبار ، وباب الحروف التى تنصب الافعال ... الخ . وكل باب من هذه الابواب أو غيرها لا يتجاوز نصف الصفحة أو يقل أحيانا، ولكنه جامع فى عبارة موجزة واضحة . ويستخدم المؤلف المصطلحات الكوفية بجوار المصطلحات البصرية ، فهو يستعمل مصطلح الخفض للدلالة على الجر ، ومصطلح الجحد للدلالة على النفى والنعت للدلالة على الصفة ، والتفسير للدلالة على التمييز[١٢] . ولا يخلو الكتاب من الخلافات النحوية ، ولكنه يعتمد بصورة عامة على القواعد المطردة ، كما حذف المؤلف الشواهد وأسماء النحاة واقتصر على ذكر أمثلة من الاستعمالات العامة الشائعة ، كما خلا الكتاب من الابواب غير العملية مثل بابى الاشتغال والتنازع .

ويرى الدكتور أحمد مختار عمر أن المؤلف قد اتبع المنهج الوصفى فى تقعيده ، ويدلل على ذلك بصنيع المؤلف فى باب حروف الخفض ، حيث عد من هذه الحروف كثيرا من الكلمات التى اعتبرها النحاة ظروفا مثل : أسفل ، وخلف ، وقدام ، ووراء ، وفوق ، وتحت ، ووسط ، وبين لانه نظر الى وظيفة الكلمة فى الجملة فوجدها لا تختلف فى « على » عنها فى « فوق » فى مثل قولنا « الكوب على المائدة » و «الكوب فوق المائدة» . حتى يعد الاولى من قبيل الجار والمجرور ، والثانية من قبيل الظروف والمضاف اليه[١٣] .

ويبدو أن أبا جعفر النحاس لم يصل الى هذا القدر من التركيز الدقيق للقواعد النحوية فى صفحات قليلة الا بعد ممارسة ومعاناة فى أمهات كتب النحو وأصوله[١٤] . كما سبقت له ، فيما يبدو ، تجارب فى

---

(١٢) المصدر السابق صفحات ١٤ ، ١٥ ، ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٢، ٢٤
(١٣) البحث اللغوى عند العرب ص ١٢٩ .
وانظر أيضا عبد الوارث مبروك ، اصلاح النحو العربى ص ٤٠ .
(١٤) أنظر مقدمة المحقق لكتاب التفاحة ص ٧ ـ ٨ .

هذا الميدان . فله كتاب يظهر من عنوانه أنه من قبيل المختصرات أيضا ، وهو الكافى فى النحو[١٥] . ولاشك أن كتاب التفاحة على صورته التى وصلتنا له قيمة تعليمية وعملية .

أما الكتاب الثالث وهو كتاب الجمل للزجاجى فيختلف عن الكتابين السابقين ، فهو ليس صغير الحجم معدود الصفحات ، وانما يقع فى الطبعة التى نشرها الشيخ ابن أبى شنب الاستاذ بكلية الآداب بالجزائر سنة ١٩٢٦ فى حوالى ثلاث وثمانين وثلاثمائة صفحة تضم أبوابا فى النحو والصرف والاصوات والاسلوب ، تجمع بين الاجمال والتيسير والهدف التعليمى واضح فيه لانه يخلو من عنت الاختلاف وتشعب الفروع . فالاسم عنده مثلا هو « ما جاز أن يكون فاعلا أو مفعولا أو دخل عليه حرف من حروف الخفض كالرجل والفرس وزيد » والفعل « ما دل على حدث وزمان ماض أو مستقبل نحو قام يقوم ، وقعد يقعد» والمصدر هو « اسم الفعل ، والفعل مشتق منه نحو قام قياما وقعد قعودا وما أشبههما » والحرف « ما دل على معنى فى غيره نحو الى وثم وما أشبه ذلك »[١٦] . وفى باب الافعال يقول « الافعال ثلاثة ، فعل ماض ، وفعل مستقبل ، وفعل فى الحال ويسمى الدائم . فالماضى ما حسن فيه أمس ، وهو مبنى على الفتح أبدا ، نحو قولك قام ، قعد ، انطلق وما أشبه ذلك . والمستقبل ، ما حسن فيه غد ، وكانت فى أوله احدى الزوائد الاربع ، وهى الياء أو التاء أو النون أو الالف ، كقولك أقوم ويقوم وتقوم نقوم ، وما أشبه ذلك ، وهو مرفوع أبدا ، حتى يدخل عليه ناصب أو جازم ... وأما فعل الحال فلا فرق بينه وبين المستقبل فى اللفظ كقولك زيد يقوم الآن ويقوم غدا ... فان أردت أن تخلصه للاستقبال أدخل عليه السين أو سوف فقلت سيقوم وسوف يقوم فيصير مستقبلا لا غير[١٧] .

---

(١٥) المصدر السابق ص ١١ .
(١٦) الزجاجى ، الجمل ص ١٧ .
(١٧) المصدر السابق ص ٢١ – ٢٢ .

على هذا المنوال من الاختصار والاجمال يمضى الزجاجى فى تناول ابواب النحـو المختلفة التى يقسمها ويبوبها تبويبا يتناسب مع هدفه التعليمى مثل باب ما يتبع الاسم فى اعرابه ، وباب أقسـام الفعل فى التعدى ، وباب مسائل حتى فى الافعال وباب أقسام المفعولين[١٨] .

والملاحظ على هذه الكتب وما يشبهها من المؤلفات النحوية أنها لم تقترب من أصـول التفكير النحوى أو النظرية النحـوية كما وضعتها البصرة ، وانما اتجهت الى التطبيق والتعليم والاختصار فى اطار هذه النظرية . والمحاولة الوحيدة التى تتصل بمبدأ التيسير والاصـلاح من ناحية ومناقشة الاصول والمبادىء النظـرية التى وضعتها البصرة من ناحية أخرى ونقدها وفق أصول نظرية جديدة كانت محاولة ابن مضاء القرطبى (ت ٥٩٢ هـ) فى كتابه « الرد على النحاة » وقد نشر الدكتور شوقى ضيف هذا الكتاب لاول مرة عام ١٩٤٧ فى نطاق حركة اصـلاح النحو العربى وتيسيره فى العصر الحديث ومنذ ذلك الحين أثار الكتاب ضجة كبيرة فى البيئات العلمية ، فألقى الدكتور طه حسين كلمة عنه فى مجمع اللغة العربية ، كما كتب عنه الشيخ محمد على النجار سلسلة من المقالات فى مجلة الازهر ، واتخذه عدد من الباحثين موضوعا لدراساتهم الجامعية ، وتردد ذكره فى كثير من كتابات الباحثين والدارسين المعاصرين من عرب ومستشرقين . ووصل بعضهم بين منهج ابن مضـاء والمنهج الوصفى فى دراسة اللغة عند الاوروبيين ، ورأوا فيه دراسة وصفية رائدة فى الفكر اللغوى العربى القديم[١٩] .

---

(١٨) المصدر السابق صفحات ٢٦ ، ٣٩ ، ٢٠١ ، ٣٠٥ .

(١٩) حول كتاب الرد على النحاة لابن مضـاء ، والدراسات التى قامت حوله .. انظر على سبيل المثال :

١ ـ مقدمة محقق الكتاب د. شوقى ضيف ص ١٨ ـ ص ٦٧ .

٢ ـ أحمد مختار عمر ، البحث اللغوى عند العرب ص ١٢٠ ـ ١٢٣ .

٣ ـ د. محمد عيـد .

ومن المستشرقين انظر :

Versteegh, Op. Cit., p. 67-69-70-153.

وواضح من عنوان الكتاب أن ابن مضاء يحاول وضع نموذج Model جديد لوصف اللغة العربية ، والتقعيد لها ، وفق أصول ومبادىء فكرية وفلسفية تختلف اختلافا جذريا عن تلك التى وضعتها البصرة • فقد كان ابن مضاء ظاهرى المذهب ، لا يؤمن بالتأويل والتعليل كما يتمثل فى الفقه المشرقى • وكان من رأى الظاهرية التمسك بحرفية النص القرآنى والعودة الى الحديث الشريف ، والاستغناء عن تأويلات الفقهاء التى باعدت بين الناس وبين هذه الأصول وصرفتهم الى الفروع ومافيها من اختلافات وحيل ، وكانت دولة الموحدين منذ أول أمرها تدعو الى هذا المذهب • حتى جاء يعقوب بن يوسف (ت ٥٩٥ هـ) وهو أحد خلفاء الموحدين ، ورأيناه يأمر بحرق كتب المذاهب الأربعة ، ويرد فقه المشرق بتأويلاته وفروعه ، وأراد ابن مضاء قاضى القضاة فى دولته آنذاك أن يرد أيضا نحو المشرق ، أو بعبارة أدق يريد أن يرد أصول هذا النحو ويخلصه من كثرة الفروع والتأويل[٢٠] •

وبناء على أصول المذهب الظاهرى أقام ابن مضاء نظريته وفق الاسس الآتية :

١ ــ الغاء نظرية العامل ، وما يتصل بها من تقدير وتأويل •

٢ ــ الغاء القياس المنطقى •

٣ ــ الغاء العلل الثوانى والثوالث •

٤ ــ الغاء التمارين والتطبيقات الافتراضية •

ولعلنا قد لاحظنا أن ابن مضاء قد خص أصلين فقط من أصول النظرية البصرية ، وهما العامل والقياس المنطقى ، دون أن يقترب من الاصل الاول وهو السماع ، اذ هو مصدر المادة اللغوية ، وبدونه تصبح الدراسة اللغوية لا وجود لها • ومعنى هذا أنه بدأ من عمل النحاة وتصرفهم فى المادة اللغوية أى أنه ، بعبارة أخرى يرى جواز وصفها

---

(٢٠) انظر الرد على النحاة ، المدخل ص ١٦ ــ ١٧ •

وصفا جديدا ، وهو مبدأ لم يخطر ببال أحد من علماء النحو حتى العصر الحديث ، كما سنرى ذلك فيما بعد .

وقد حاول ابن مضـاء أن يقدم نظريته من خـلال نقده للنظرية البصرية ، مع اعترافـه بقيمتها ، والهـدف من وضعهـا يقـول : « انى رأيت النحويين ـ رحمة الله عليهم قد وضعوا صناعة النحو لحفظ كلام العرب من اللحن ، وصيانته عن التغير ، فبلغوا من ذلك الغاية التى أموا وانتهوا الى المطـلوب الذى اتبعوا الا أنهم التزموا ما لا يلزمهم وتجاوزوا فيها القدر الكافى فيما أرادوه منها ، فتوعرت مسالكها ، ووهنت مبانيها وانحطت عن رتبة الاقناع حججها»[٢١] .

ومعنى هـذا أن ابن مضـاء يسلم منذ البداية بالهـدف التعليمى وبالجانب المعيارى من العمل النحوى ، ولكنه يرى فقط أن النحاة بالغوا فى ذلك . ثم يحدد هدفه فيقول : « قصدى فى هذا الكتاب أن أحذف من النحو ما يستغنى النحوى عنه ، وأنبه على ما أجمعوا على الخطأ فيه[٢٢] . وهو هدف لايتصل بالفروع والمبالغة فيها كما قال،وانما يتجه الى الاصول التى أقاموا عليها النظرية يؤكد ذلك أنه يتعرض لاسس هذه النظرية من خلال كلام سيبويه . يقول : « ألا ترى أن سيبويه ـ رحمه الله ـ قال فى صـدر كتابه : وانما ذكرت ثمانية مجار لأفرق بين ما يدخله ضرب من هذه الاربعة[٢٣] لما يحدثه فيه العامل وليس شىء منها الا وهو يزول عنه وبين ما يبنى عليه الحرف بناء لا يزول عنه لغير شىء أحـدث ذلك فيه . فظاهر هذا أن العامل أحدث الاعراب وذلك بين الفساد »[٢٤] .

والفساد الذى يراه ابن مضاء فى نظرية العامل لا ينصرف فيما يبدو الى النظرية نفسها ، وانمـا الى ما أفضت اليه من التعليل والتـأويل

---

(٢١) ابن مضاء ، الرد على النحاة ص ٧٢ .
(٢٢) المصدر السابق ص ٧٦ .
(٢٣) يقصد حركات الاعراب الرفع والنصب والجزم .
(٢٤) المصدر السابق ص ٧٦ ـ ٧٧ .

والحذف والتقدير ، وبخاصة فى بابى التنازع والاشتغال[٢٥] لانه يسلم بالوصف التفسيرى دون التعليل المستند الى المنطق الفلسفى ، فهو يقبل الحكم النحوى القائم على المفهوم الاستقرائى للقياس الذى كان يتجرد له الحضرمى فيما أشرنا اليه من قبل. وصدد هذا يقول ابن مضاء « ومما يجب أن يسقط من النحو العلل الثوانى والثوالث وذلك مثل سؤال السائل عن زيد من قولنا قام زيد لم رفع فيقال لانه فاعل وكل فاعل مرفوع فيقول ولم رفع الفاعل فالصواب أن يقال له كذا نطقت العرب به وثبت ذلك بالاستقراء من الكلام المتواتر ... ولو أجبت السائل عن سؤال بأن تقول له للفرق بين الفاعل والمفعول ، فلم يقنعه وقال ، فلم لم تعكس القضية بنصب الفاعل ورفع المفعول قلنا له لان الفاعل قليل لانه لا يكون للفعل الا فاعل واحد والمفعولات كثيرة فأعطى الاثقل الذى هو الرفع للفاعل ، وأعطى الاخف الذى هو النصب للمفعول لان الفاعل واحد ، والمفعولات كثيرة . ويقل فى كلامهم ما يستثقلون ويكثر فى كلامهم ما يستخفون ، فلا يزيدنا ذلك علما بأن الفاعل مرفوع، ولو جهلنا ذلك لم يضرنا جهله ، اذ قد صح عندنا رفع الفاعل الذى هو مطلوبنا باستقراء المتواتر الذى يوقع العلم »[٢٦] .

وهذا المنهج التفسيرى القائم على النظر لظاهر الكلام دون تقدير أو تأويل ، أو البحث عن علة العلة ، هو المنهج الذى رفض أساسه ابن مضاء النظرية البصرية .. وهو منهج أقرب الى الوصفية التى تبتعد عن استخدام التعليلات المنطقية ، وعلى هذا الاساس استطاع ابن مضاء أن يتتبع ما ترتب على آثار نظرية العامل من تأويلات وتقديرات تؤدى الى هدم العلاقة بين المبنى والمعنى .

---

(٢٥) المصدر السابق ص ٧٨ وما بعدها ، و ص ٩٤ ، ١٠٢ ، ١٠٣ وما بعدها .

(٢٦) المصدر السابق ص ١٣٠ ـ ١٣١ .

ولذلك كان ابن مضاء أول من ناقش أصول النحو العربى كما وضعته البصرة ، وحاول ردها ، وبذلك وضع يده على ما تصوره من مشاكل النحو وقضاياه التى تحتاج الى اصلاح وتيسير • ولكن رغم محاولة ابن مضاء هذه ، وهى المحاولة الاولى فى اطار الحضارة الاسلامية بعيدا عن أية مؤثرات أجنبية ، الا أن هذه المحاولة ذهبت كصرخة فى واد فظلت مجهولة من علماء اللغة والنحو القدماء لا يعلم عنها أحد شيئا ، أو لعلهم قد علموا وتجاهلوها تحت وطأة النظرية البصرية ، حتى بعثت حركة الاصلاح والتيسير فى العصر الحديث تلك المحاولة مرة أخرى •

ومع ذلك فان هذه المحاولات جميعا ، سواء ما يتصل منها بالاختصار أو الايضاح أو حتى محاولة التجديد ، كما فعل ابن مضاء لم تذهب سدى ، وانما كانت مصدرا لالهام وتوجيه محاولات الاصلاح والتيسير التى بدأت مبكرا مع مطلع العصر الحديث وقبل أن يتصل علماء اللغة العربية بعلم اللغة الحديث ومناهجه وقد بدأت هذه المحاولات على شكل اصلاح وتيسير فى التأليف النحوى دون الاقتراب من الاصول النظرية والمنهجية • وكانت دروس النحو قد استقرت فى الأزهر محصورة فى اطار الشروح والمتون ، وكانت قيمة أى مؤلف فى النحو تتركز فى احاطته واشتماله على كل تفاصيل الخلاف بين النحاة ، مثل حاشية الصبان على شرح الاشمونى ، كما قام بعض علماء الازهر بوضع شروح تعليمية مختصرة مثل الشيخ حسن العطار أستاذ رفاعة الطهطاوى كما تولى بعضهم أيضا شرح شواهد الكتب التعليمية التى وضعها بعض العلماء مثل شرح شواهد ابن عقيل للجرجاوى وشرح شواهد شذور الذهب للفيومى • وظل اهتمام علماء النحو فى الازهر محصورا داخل هذه الدائرة ومع ذلك فقد جاءت المحاولة الاولى لعرض النحو العربى عرضا حديثا بعيدا عن هذه المتون والشروح على يد عالم من علماء الازهر هو رفاعة الطهطاوى الذى ألف أول كتاب يعرض للنحو العربى عرضا مختلفا عن طريقة المتون والشروح • وسمى كتابه هذا « التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية » وقد ألف رفاعة هذا الكتاب فيما يبدو على نمط مؤلفات الفرنسيين فى النحو التى أعجب بها أثناء بعثته الى

فرنسا ، فخرج فيه على طريقة معاصريه من علماء الازهر فى الشروح والحواشى والتعليقات والتقريرات فجاء الكتاب بسيط العبارة سهل العرض ، ليس له متن أو شرح كما استخدم فيه لاول مرة الجداول الايضاحية(٢٧) .

وبذلك بدأ رفاعة ما يسمى بحركة اصلاح الكتاب النحوى فى العصر الحديث والمقصود بها تخليص الكتب النحوية من العبارات الغامضة والاختلافات النحوية ، والشروح الجزئية ، واعادة صياغتها بأسلوب سهل واضح ، وبأمثلة من اللغة الحية المستعملة ولكن ذلك كله كان يتم فى اطار النظرية النحوية التقليدية لا يخرج عنها قيد أنملة . وألف هذا النوع من الكتب تيارا ظل متدفقا حتى يومنا هذا ، فما زالت تظهر كتبه تحت أسماء وعناوين مختلفة مثل النحو الواضح والنحو الوافى ، والنحو الوظيفى ، والتطبيق النحوى ، والنحو المصفى ، والنحو الميسر .. الخ. وتقدم هذه الكتب لطلاب المدارس والجامعات لغاية تعليمية خالصة ، وكلها لا تزيد على التغيير فى التبويب والاسلوب ولكنها لا تمس الجوهر أو تقترب منه(٢٨) .

ولكن حركة الاصلاح والتيسير لم تقف عند حدود الكتاب النحوى بل اتصلت بها وواكبتها حركة أخرى نادت باحياء النحو عن طريق اعادة النظر فى أصوله ومبادئه ، وظهرت آثار هذه الحركة فى صورة مؤلفات نحوية تختلف عن حركة اصلاح الكتاب النحوى فى ظاهرها ودعواها لا غير ، ولكنها فى مجموعها تعكس ادراكا حقيقيا لوظيفة اللغة فى الاتصال والتعبير . ومن ثم كانت حركة لاحياء وبعث للجانب الحى الذى ينبغى أن يستعمل من قواعد النحو ، ولكنها ، رغم ذلك لم تكن معارضة للنظرية النحوية التقليدية ، وانما كانت وثيقة الاتصال بأصولها ومبادئها رغم أن بعض دعاتها ادعى التجديد ، ولم يتمسك بمبدأ الاحياء الذى كان أكثر دقة ودلالة على ما يفعلون .

---

(٢٧) د. محمود فهمى حجازى ، علم اللغة العربية ص ٩٤ .
وانظر أيضا الشيخ محمد الطنطاوى ، نشأة النحو ص ٢٩٢ ـ ٣٠٣ .
(٢٨) راجع عبد الوارث مبروك فى اصلاح النحو العربى ص ٥٩ـ٨٠

وكان كلا الاتجاهين ، أعنى تجديد الكتاب النحوى واحياء النحو بعيدين كل البعد عن علم اللغة الحديث ومناهجه ، رغم أن بعض أصحاب دعوى الاحياء والتجديد كانوا يعملون فى الجامعة ، وقد ترامت الى أسماعهم بلا شك أصداء عن علم اللغة التاريخى المقارن ، بل ربما أيضا أصداء من علم اللغة الوصفى ، اذ كانت الجامعة قد بدأت آنذاك فى استدعاء بعض المستشرقين الذين أخذوا فى تدريس العربية ودراستها وفق هذين المنهجين . الا أن هذه المناهج العلمية الحديثة ، والتى لم تعرفها العربية من قبل لم تؤثر فى عملهم الا قليلا[٢٩] ولعل السبب فى ذلك هو شدة ارتباط أغلب دعاة الاحياء بالتقاليد اللغوية القديمة كما عرفوها وتعلموها سواء فى الازهر أو دار العلوم حتى أنهم كانوا وهم فى أشد مواقفهم نقدا للقديم مرتبطين بأصوله ومبادئه ولم يفكروا فى وضع غيرها أو استبدالها على هدى مما يسمعون أو يقرأون من مناهج جديدة فى دراسة اللغة .

وقد بدأت أولى محاولات الاحياء هذه بظهور كتاب « احياء النحو » للاستاذ ابراهيم مصطفى عام ١٩٣٧ الذى حرك قضية اصلاح النحو وتيسيره بشدة ، فتوالت من بعده محاولات أخرى من أهمها :

وزارة المعارف (١٩٣٨) يعقوب عبد النبى (٤١ ــ ١٩٤٥) أمين الخولى (١٩٤٣) شوقى ضيف (١٩٤٧) عبد المتعال الصعيدى (١٩٤٧) محمد أحمد برانق (١٩٥٨) د. مهدى المخزومى (١٩٦٦) د. محمد كامل حسين (١٩٧٢) وآخر هذه المحاولات كان للدكتور شوقى ضيف (١٩٨٢) .

ولن نتعرض لهذه المحاولات جميعا اذ سبق لعدد من الباحثين

---

(٢٩) أنظر ابراهيم مصطفى ، احياء النحو ص ٤٣ ــ ٤٧ .

دراستها وتقويمها[٣٠] وسنكتفى منها بالمحاولة الاولى اذ هى الرائدة ، ثم محاولة د٠ مهدى المخزومى لانه وصفها بأنها على المنهج العلمى الحديث ثم محاولة د٠ شوقى ضيف لانها آخر هذه المحاولات ، ولعلنا بذلك نستطيع أن نتبين ما طرأ على تيار الاحياء من تغير خلال نصف قرن تقريبا منذ أن بدأت أولى محاولاته عام ١٩٣٧ ، وكذا مدى قربها أو بعدها عن المنهج العلمى فى دراسة اللغة لكى نستكمل بذلك صورة درس العربية قبل الاتصال بعلم اللغة الحديث ومن ثم نمضى قدما فى بيان مظاهر التجديد فى الفكر اللغوى العربى بعد الاتصال بعلم اللغة من حيث مصادره ومظاهره ٠

أقام الاستاذ ابراهيم مصطفى محاولته فى احياء النحو على أصلين هما :

١ ــ أن النحو هو قانون تأليف الكلام وليس دراسة أحوال أواخر الكلم اعرابا وبناء فحسب ، لان تحديد النحو فى المفهوم الاخير تضييق شديد لدائرة البحث النحوى وتقصير لمداه وحصر له فى جزء يسير مما ينبغى أن يتناوله[٣١] ولهذا يطالب بدرس واف لاحكام نظم الكلام

---

(٣٠) حول دراسة هذه المحاولات وتقويمها أنظر على سبيل المثال :
١ ــ عبد المتعال الصعيدى ، النحو الجديد ، القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٩٤٧ ٠
٢ ــ عبد الوارث مبروك ، فى اصلاح النحو العربى ص ٩٩ ــ ١٧٢ ٠
وقد اقتصرت دراسة الاول على المحاولات التى ظهرت قبيل عام ١٨٤٧ ، أما الثانى فقد درس معظم هذه المحاولات فيما عدا محاولة د٠مهدى المخزومى (١٩٦٦) ومحاولة د٠ شوقى ضيف (١٩٨٢) رغم أن الكتاب الثانى صدر عام ١٩٨٥ ولكن يفهم من مقدمة مؤلفه أن الكتاب ألف منذ عشر سنوات ولم تكن محاولة د٠ شوقى ضيف الاخيرة قد نشرت بعد ، أنظر مقدمة الكتاب ص ٠م٠

(٣١) احياء النحو ص ١ ، ومن الغريب حقا أن الاستاذ ابراهيم مصطفى ــ رحمه الله ــ لم يكن قد وضع عنوانا لكتابه حتى بعد الانتهاء من تأليفه وعندما عرضه على د٠ طه حسين اقترح عليه أن يسميه «احياء النحو» فاستكثر الاستاذ ابراهيم مصطفى الاسم وأشفق منه ولكن د٠ طه حسين الح عليه فلم يستطع مخالفته ٠ أنظر مقدمة د٠ طه حسين ص ن٠

وأسرار تأليف العبارات بما لها من صلة بالمعنى ، كما يطالب بوجه خاص بدراسة طرق الاثبات والنفى والتأكيد والزمن والتقديم والتأخير[٣٢] .

٢ ــ استبعاد الفلسفة الكلامية كما تتمثل فى نظرية العامل وما يترتب عليها من اختلاف العوامل والمعمولات مما أدى الى التوغل فى التعليل على حساب المعنى[٣٣] .

وبناء على هذين الاصلين أخذ يعيد تصنيف أبواب النحو وفق المبادىء الآتية :

١ ــ ليست حركات الاعراب حكما لفظيا وأثرا يجلبه العامل فحسب ، وانما هى دوال على المعانى .

٢ ــ للاعراب فى العربية علمين هما الضمة والكسرة ، أما الضمة فهى علم الاسناد ودليل أن الكلمة مرفوعة يراد أن يسند اليها ويتحدث عنها ، وأما الكسرة فانها علم الاضافة واشارة الى ارتباط الكلمة بما قبلها ، وأما الفتحة فليست علامة اعراب ولا دالة على شىء بل هى الحركة الخفيفة المستحبة عند العرب التى يراد أن تنتهى بها الكلمة نظير السكون فى اللغة العامية ، فالاعراب اذن الضمة والكسرة وليست بقية من مقطع بل هما من عمل المتكلم ليدل بهما على معنى فى تأليف الجملة ونظم الكلام .

وقد ترتب على هذا أن جمع فى باب واحد ما فرقه النحاة فى أبواب متعددة وانتهى الى أن المبتدأ والفاعل ونائب الفاعل باب واحد لان كلا منهما مسند اليه[٣٤] .

٣ ــ لا توجد علامات أصلية وعلامات فرعية للاعراب فلا حاجة

---

(٣٢) المصدر السابق ص ٣ ــ ٨ .
(٣٣) المصدر السابق ص ٢٢ ــ ٤٢ .
(٣٤) المصدر السابق صفحات ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٧٨ .

الى أبواب فرض لها النحـــاة استقلالا نتيجـــة لذلك حيث وضعوا بابا للاسماء الستة وبابا لجمع المذكر وبابا لجمع المؤنث وبابا لما لا ينصرف، والرأى عنده أن الاسماء الستة وجمع المذكر السالم لا تعرب بالحروف وانما تعـــرب بحركات طويلة تكتب على صـــورة الحرف وشذ عن ذلك اعراب المثنى ، كما رأى أن جمع المؤنث السالم وما لا ينصرف يجريان على الاصل فى الاعراب ولكنهم أغفلوا النصب فى الاول حملا على جمع المذكر السالم الذى أغفلوا فيه الفتح وأغفلوا اعـــراب الثانى بالكسرة حتى لا يختلط فى حالة الكسر بالمضاف الى ياء المتكلم اذا حـــذفت ياؤه وحذفها كثير فى لغة العرب[٣٥] .

٤ ــ التوابع عنده هى النعت والبدل لا غـــير ، ويدخل فى النعت خبر المبتدأ لان الخبر تابع للمبتدأ كما تتبع الصفة الموصوف ، أما النعت السببى فالاصل فيه أن يكون مبتدأ ولكنه جرى نعتا من قبيل الاتباع على المجاورة كالاتباع فى قراءة بعضهم «الحمد لله» بكسر الدال اتباعا لكسرة اللام وكالاتباع فى قولهم «هذا جحر ضب خرب» بكسر خرب اتباعا لكسر ضب لوقوعه فى جواره .

ويدخل فى البدل عنده التوكيد وعطف البيان ، أما العطف فليس نوعا من التوابع لان اعراب المعطوف هو الاصل لا على الاتباع ومن ثم فـــان العطف يشارك المعطوف عليه فى الحكم ولذا يستحق أن يشـــاركه فى الاعراب[٣٦] .

٥ ــ التنوين علامة التنكير وغيابه عـــلامة التعريف ، فاذا عددنا المعارف لم نجد التنوين يدخل واحدا منها الا العلم وان كان الاصل فيه الاينون وانما يلحقه التنوين اذا كان فيه معنى التنكير وأريد الاشارة اليه ، وبناء على ذلك فلا محل لما لا ينصرف بالشكل الذى قدمه النحاة من البحث فى العلل الموجبة لعدم الصرف[٣٧] .

---

(٣٥) المصدر السابق ص ١٠٨ ــ ١١٣ .
(٣٦) المصدر السابق ص ١١٥ ــ ١٢٨ .
(٣٧) المصدر السابق ص ١٦٥ ــ ١٧٧ .

هذه هى الاصـــول والمبادىء التى أقـــام عليها الاستاذ ابراهيم مصطفى ــ رحمه الله ــ احياء النحـــو ، وربما كان احيـــاء بمعنى من المعانى من حيث طرحه لقضية اللغة والنحـــو والدعوة الى البحث فيها بعيدا عن الفلسفة والعلل المنطقية وكذا من حيث اكتشاف أوجه القصور فى النظرية اللغوية التقليدية التى اكتسبت هيبة واحتراما بمرور الزمن، ولكن هذا الاحياء رغم هذه الدعوة الواضحة الى اعادة النظر فى درس العربية انتهى الى الابقاء على الجانب التعليمى وحـــده وابرازه بغض النظر عن الاصول ومنهج البحث فى الفقه ، وهذا كله لا يدخل فى باب التجديد الذى يقوم على أصول جديدة ومنهج جديد ونظرية جديدة ، وهو مالم يغب عن د٠ طه حسين فى تقديمه للكتاب قائلا : «تقرأه فلاتجد انك تنتزع من النحو القديم انتزاعا وانما تحس انك تمعن فيه امعانا وكأنك تقـــرأ كتب الائمة المتقدمين من أعـــلام البصرة أو الـــكوفة أو بغداد »[٣٨] ٠ وشارك طه حسين فى هذه الملاحظة بعض الذين نقـــدوا الكتاب[٣٩] بالرغم من أن هدف المؤلف من الكتاب ــ كما قال ــ أن يغير منهج البحث النحوى للغة العربية وأن يرفع عن المتعلمين اصر هذا النحو ويجعلهم منه أصولا سهلة يسيرة تقربهم من العربية[٤٠] ٠

والذى لا شك فيه أن صاحب احياء النحو قد استفاد كثيرا من آراء الفراء وابن مضاء القرطبى فيما ذهب اليه من حمل المبنى على المعنى أو الغاء نظرية العامل ، بل لقد استفاد من آراء غيرهما من النحـــاة حتى فى قوله بدلالة الحركات على المعانى ، فهو رأى قديم أشار اليه أكثر النحاة عندما قالوا ان الرفع علامة الفاعلية أو العمدية وأن النصب علامة المفعولية أو الفضلات والجر علامة الاضافة ، بل ان قوله ان الفتحة هى الحركة المستحبة عند العرب وليست علامة اعراب يتعارض مع فكرته

---

(٣٨) المصدر السابق ص ٠ ط٠

(٣٩) محمد عرفة ، النحو والنحاة بين الازهر والجامعة ، فى كتاب النحو الجديد ص ٥٥ ــ ٨١ ٠ وأنظر أيضا عبد الوارث مبروك ، فى اصلاح النحو العربى ص ٩٩ ــ ١١٢ ٠

(٤٠) احياء النحو ص أ ٠

الاساسية التى أقام عليها كتابه وهى أن علامات الاعراب دوال على المعانى ، وكون الفتحة حركة مستحبة لا ينفى عنها الدلالة فضلا عن أن المستحب وغير المستحب معيار لا يثبت أمام النظر العلمى ، فليس فى النظام اللغوى ما يستحب وما يكره ولو كان ذلك صحيحا فلماذا وقف العرب بالسكون على الكلمات التى تنتهى بالفتحة وكان أولى بهم أن يلتزموا بها استمتاعا بما يحبون ولعله أقرب الى الموضوعية ما قاله القدماء من أن النصب علامة على التكملة أو الفضلة • بل لعل أهم من ذلك كله أن ننظر الى احياء النحو من منظور لم يلتفت اليه أحد من الذين نقدوه عند ظهوره أو بعد ظهوره بسنوات وهو مدى ما استفاد المؤلف من مناهج البحث اللغوى الحديث التى سمعها فى الجامعة المصرية القديمة والجديدة من المصريين والمستشرقين ، وكان النحو كما يقول طه حسين فى مقدمة الكتاب من أشد الموضوعات خطرا وأكثرها جريانا فيما بينه وبين المؤلف حتى أنهما ضاقا بأصوله القديمة منذ عهد الازهر وأخذا ينكران هذه الاصول أيام الجامعة القديمة • كما أخذا يلتمسان له أصولا جديدة منذ أن التقيا فى الجامعة الجديدة[٤١] •

والحق أن الباحث ليقف حائرا ، فآثار التفكير اللغوى الحديث ظاهرة فى الكتاب ، ولكنها لا توجه البحث ، أو تأخذ به نحو نظام أو نموذج جديد • ففى الفصل الذى عقده عن رأى المستشرقين فى أصل حركات الاعراب[٤٢] نراه لا يعرض لهذه الآراء لكى يناقشها ، وانما يكتفى بعرضها لكى يقرر أن كل ما ذهب اليه المستشرقون فى هذا الموضوع فروض ، وهم فى ذلك متأثرون بنظام لغاتهم[٤٣] • وكانت فكرة النظام اللغوى من أهم الافكار التى ألم بها الكتاب ورأى فيها المؤلف أساسا تقوم عليه اللغة وأن رعاية هذا النظام واتباع قوانينه هما

---

(٤١) مقدمة طه حسين لكتاب احياء النحو ص هـ/و •
(٤٢) احياء النحو ص ٤٣ •
(٤٣) المصدر السابق ص ٤٥ •

السبيل الى الابانة والافهام وأنه اذا عدل بالكلام عن سنن هذا النظام لم يفهم معناه ، ولا يدل على ما يراد منه[٤٤] .

ومع ذلك فهو لا يقف أمام هـذه الفكرة ليرى ماهية هـذا النظام وعلاقة أنظمة اللغة الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية بعضها ببعض، وانما يتعامل مع فكرة النظام على أنها تتمثل فى النحو أو التركيب دون بقية أنظمة اللغة الاخرى ، وهو المفهوم الضيق للنحو ، كما استقر عند متأخرى النحاة ، حتى عندما حاول أن يصل بين النظام الصوتى ، وهو ما أطلق عليه « علم مخارج الحروف »[٤٥] ينسى فكرة النظام التى أشار اليها من حيث علاقة الحركات بما قبلها وما بعدها فى البنية اللغوية ، ويكتفى بوصف الفتحة بأنها ، سواء كانت قصيرة أو طويلة ، « لا تكلف الناطق الا ارسال النفس حرا وترك مسرى الهواء أثناء النطق بلا عناء فى تكييفه »[٤٦] .

ويصف نطق الفتحة القصـيرة والطويلة بأنها تكلفك ضم الشفتين ومطهما وتدويرهما حتى يتحقق نطق الضمة أو الواو ، كما يصف نطق الكسرة وامتدادها بأنها تكسر مجرى الهواء ، وتحنى طرف اللسان عند اللثة ليمثل الصوت ما تريده من الكسرة أو الياء . لكى ينتهى من هذا الوصف الى أن الفتحة أخف من السكون وأيسر نطقا[٤٧] .

وواضح أن هذا الوصف لا يتصل بعلم الاصوات من قريب أو بعيد، وفيه تجوز كبير فيما يتصل بآلية نطـق الحـركات ، والفرق الكمى والكيفى بين الحركات الطويلة والقصيرة ، فضلا عن اغفاله لاهم صفة من صفات هذه الحركات ، وهو الجهر . وأهم من ذلك كله تلك الاحكام المعيارية التى انتهى اليها من تفضيل حـركة على حركة أو صوت على صوت وهو ما لا يتفق وفكرة النظام اللغوى .

---

(٤٤) المصدر السابق صفحات ٢ ، ١٦ .
(٤٥) المصدر السابق صفحة ٧٩ .
(٤٦) المصدر السابق نفس الصفحة .
(٤٧) المصدر السابق ص ٧٩ ـ ٨١ .

وهكذا جاء احياء النحو لا تجديد فيه رغم أنه ادعى التجديد ، لان أهم ما جاء فيه ، حتى فيما يتصل بالغاء نظرية العامل قديم • لان محاولة التجديد انما تكون بالرأى الجديد ولا يمكن أن تكون بالرأى القديم ، لانه هو الذى يراد احداث التجديد فيه •

أما المحاولة الثانية التى سنعرض لها فى نطاق دعوات التيسير والاصلاح فهى محاولة لتلميذ من تلاميذ الاستاذ ابراهيم مصطفى رحمه الله ، وهو الدكتور مهدى المخزومى • وتتمثل هذه المحاولة فى كتابين أخرجهما الواحد تلو الاخر • أما الكتاب الاول فهو بعنوان «فى النحو العربى نقد وتوجيه (١٩٦٤) وأما الكتاب الثانى فبعنوان « فى النحو العربى قواعد وتطبيق على المنهج العلمى الحديث » (١٩٦٦) • والكتاب الاول يمثل الاصول النظرية والكتاب الثانى يمثل التطبيق على هذه الاصول والذى يهمنا فى الكتابين معا هو « المنهج العلمى الحديث » الذى حرص المؤلف على أن يشير اليه فى صدر كتابه الثانى ، التطبيقى أى أن الكتاب الاول ، كما أشرت يحتوى على المبادىء النظرية لهذا المنهج العلمى الحديث ، حيث نجد فى مدخل الكتاب مايشير الى بعض جوانب هذا المنهج ، والتى تتمثل فيما يلى :

١ ــ ليس من وظيفة النحوى الذى يريد أن يعالج نحو لغة من اللغات أن يفرض على المتكلمين قاعدة أو يخطىء لهم أسلوبا •

٢ ــ النحو دراسة وصفية تطبقية •

٣ ــ النحو عارضة لغوية تخضع لما تخضع له اللغة من عوامل الحياة والتطور •

٤ ــ النحو متطور أبدا لان اللغة متطورة أبدا •

٥ ــ النحوى الحق هو الذى يجرى وراء اللغة ويتبع مسيرتها •

٦ ــ وظيفة النحوى أن يسجل لنا ملاحظاته ونتائج اختباراته فى صورة أصول وقواعد تمليها عليه طبيعة اللغة واستعمالات أصحابها•

٧ ــ النحوى يستند الى استقراء واع •

٨ ـ ليس للنحوى أن يفلسف أو يبنى على حكم من أحكام العقل.

٩ ـ اللغة ظاهرة اجتماعية تخضع لما يخضع له المجتمع[٤٨] .

وهى مبادىء ، كما سنرى فيما بعد ، تتصل فى كثير من جوانبها بالدراسة الوصفية للغة ، بل هى من أهم مبادىء الدراسة الوصفية وأبعدها أثرا فى توجيه دراسة اللغة حديثا . وبناء على هذه المبادىء يحكم على التراث اللغوى العربى ودراسة اللغة العربية قديما بأنها « تدرس الى اليوم على تلك الاسس التى اجتهد القدماء فى بنائها وفى متنهم الفراهيدى والفراء ، ولم يضف اليها جديد سوى مناقشات مدرسية لا يستفاد منها فى المباحث اللغوية الجديدة[٤٩] .

ومع ذلك فهو لا يقبل المفهوم الشامل للنحو ، كما كان عند الخليل والفراء . ويرى أن ما جاء به الخليل والفراء ليس من النحو الخالص ، وانما كان درسا شاملا لفروع الدراسة النحوية واللغوية ، وكذلك لم يكن كتاب سيبويه عنده كتابا فى النحو الخالص ، ولكنه كان يتناول بالدرس مسائل لغوية وصرفية بالاضافة الى مسائل النحو[٥٠] ومن ثم فهو يشعر بحاجة العربية الماسة الى نحو جديد بدلا من هذه الدراسة الشاملة التى قام بها الخليل والفراء . يقول : « لقد أصبحت الحاجة ماسة الى نحو جديد خلو مما علق به فى تاريخه الطويل من شوائب ليست منه ، مدروس وفق منهج يلائمه ، مبرأ من هذه التعليلات الفلسفية التى اصطنعها القوم ، والتى أتت على حيوية هذا الدرس اللغوى »[٥١] فما هو هذا المنهج الذى أصبحت الحاجة ماسة اليه ؟ يقول : « أصبحت الحاجة ماسة الى تفريق الموضوعات التى تناولها الخليل والفراء ومن عاصرهما مختلطة متشابكة .. وأن ينبرى لكل موضوع دارسون متخصصون يتناول كل فريق منهم موضوعه باحاطة

---

(٤٨) د. مهدى المخزومى فى النحو العربى ص ١٩ .
(٤٩) المصدر السابق ص ٢٤ .
(٥٠) المصدر السابق ص ٢٥ .
(٥١) المصدر السابق ص ٢٧ .

وعمق • لكى يتعاون الدارسون جميعا فى تقديم ما يحصلون عليه ليتم للدارسين بحث لغوى ناضج »[٥٢] • غير أنه يعود مرة أخرى الى فكرة الشمول التى رفضها من قبل ويرى لها أهمية بالغة فى دراسة اللغة بعامة والعربية خاصة يقول : « ان موضوعات العربية مختلفة ، بعضها يعتمد على بعض فالدراسة الصوتية والدراسة الصرفية ، والدراسة المعجمية، والدراسة النحوية كلها موضوعات لغوية تهدف الى ناحية تطبيقية تفيد منها الاجيال فيما تقرأ وفيما تقول وفيما تكتب »[٥٣] •

وعلى الرغم من هذه الرؤية الواضحة للصلة بين فروع الدراسة اللغوية وعلاقاتها المتشابكة ، والتى تتناقض مع رفضه السابق لفكرة الدراسة اللغوية الشاملة ، أقول على الرغم من ذلك فاننا نلمح أيضا سيطرة المعيارية والهدف التعليمى على فكر المؤلف • فهو يرى أن الهدف النهائى من الدراسة اللغوية هو الجانب التطبيقى وحده ، أى ما يترتب على هذه الدراسة من آثار تعليمية لا علمية تظهر فائدتها فى القراءة والكتابة والكلام • وهو ما أشار اليه من قبل حينما قال أن النحو دراسة وصفية تطبيقية ، وليس هذا هو الهدف الاول أو الهدف الاساسى من المنهج العلمى الحديث فى دراسة اللغة ، وانما هذا الهدف يأتى فى مرتبة تالية للوصف والتحليل • غير أن هذا الاضطراب بين الوصفية والقواعد المعيارية لا يحول دون ادراكه لمستويات التحليل اللغوى التى يحددها فى ثلاثة مستويات هى :

١ ــ الدراسة الصوتية هى الدراسة اللغوية الاولى التى يعنى بها اللغويون وموضوعها هو الصوت اللغوى من حيث مخرجه وصفته وامتزاجه بغيره من الاصوات • وبها يعرف الدارس كثيرا من الظواهر اللغوية التى تدرس فى كتب النحو من ابدال واعلال وادغام الى غيرها

---

(٥٢) المصدر السابق نفس الصفحة •
(٥٣) المصدر السابق نفس الصفحة •

من ظواهر لغوية لا تفهم فهما مستوعبا الا اذا أخذت الدراسة الصوتية لها مكانا فى درس العربية .

٢ ــ موضوع الدرس الصرفى هــو الكلمة المفردة من حيث بنيتها ووزنها واشتقاقها وتجردها وزيادتها ، وهو يلى الدراسة الصــوتية ويترتب عليها طبيعيا .

٣ ــ موضوع الدرس النحوى هو الكلمة مؤلفة مع غيرها ، أو هو الجملة ، وتدرس فيه من حيث نوعها وما يطرأ على أركانها من تقديم وتأخير وذكر وحذف واستفهام ونفى وتوكيد ، وكل هذا يرتبط بموضوع الدرس النحوى(٥٤) .

أما المستوى الدلالى فلا يحدد موضوعه أو يشير اليه ، وانما يرى أن علماء المعانى هم الذين استأثروا بالدرس النحوى الحق.بل هم النحاة الحقيقيون الذين دفعوا بالدرس النحوى الى الامام ، وقدموا للدارسين نتائج طيبة خليقة بأن يستفاد منها(٥٥) .

هذا هو المفهوم النظرى للمنهج العلمى الحــديث فى دراسة اللغة عند الدكتور مهدى المخزومى ، وهو مفهوم اذا نظرنا اليه بصورة عامة وجدناه يقترب الى حــد ما من تصور علماء اللغــة المحدثين للدراسة العلمية للغة ، وخاصة فيما يتعلق بطبيعة العلاقات بين مستويات التحليل اللغوى وتداخلها ، وكذا طبيعة كل مستوى منها وموضوعه ، وذلك بغض النظر عن اغفاله *المستوى الدلالى واشارته الغامضة الى علم المعــانى* مما يدل على أن الدكتور المخزومى قد اطلع بصورة أو بأخرى على الفكر اللغوى الحديث ، لان علماء العربية القدماء ، رغم درسهم للجــوانب الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية . لم يكن لديهم هــذا التصور الواضح لمنهج الدراسة اللغوية ، كما يشير اليه الدكتور المخزومى ، على الاقل ، على المستوى النظرى .

---

(٥٤) المصدر السابق ص ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٥ ، ٣٦ .
(٥٥) المصدر السابق ص ٢٩ .

على كل حال نحن فى نهاية الامر أمام تصور واضح . ولا أقول دقيق لمنهج وصفى فى دراسة اللغة يتمثل فى المبادىء التى ذكرها المؤلف وأشرنا اليها من قبل . فكيف استفاد د. المخزومى من هذا المنهج فى دراسة العربية ؟ وكيف طبقه عليها ؟ .

الحق أن الاجابة عن هذا السؤال قد تحتاج الى دراسة مفصلة لكتابى الدكتور المخزومى النظرى والتطبيقى . ولكننا سنكتفى هنا من الجانب النظرى بمناقشة مفهوم النحو عنده باعتباره الموضوع الرئيسى للكتابين ، ثم مفهوم الجملة من حيث هى الوحدة الاساسية فى الدراسة النحوية ، وعلى ضوء ذلك سننظر الى الجانب التطبيقى .

أما عن مفهوم النحو ، فقد رأينا من قبل أن المؤلف يرفض فكرة النحو بالمعنى الشامل الذى كان عند الخليل والفراء ، أى من حيث هو العلم الذى يقدم لنا النظام الصوتى ، والنظام الصرفى ، والنظام النحوى الذى يتحكم فى طريقة العرب فى الكلام ليتسنى لغير العرب تعلم العربية . وهذا المفهوم الشامل هو ما نجده فى كتاب سيبويه كما أشرنا من قبل ، على الرغم من عدم وجود مستويات صوتية وصرفية ونحوية ودلالية واضحة ومحددة فى الكتاب . كما لا يوجد ادراك واضح لطبيعة العلاقات بين هذه المستويات وهذا المفهوم الشامل عند سيبويه يختلط فيه مفهوم النحو بالمعنى العلمى ، أى من حيث هو بنية مجردة ، ذات علاقات داخلية ومفهوم النحو بالمعنى التعليمى المعيارى ، من حيث هو مجموعة من القواعد التى يجب على المتكلم الالتزام بها .

غير أن المنهج العلمى الحديث الذى أشار اليه الدكتور المخزومى يرى أن النحو يتصل بالمفهوم الاول ، أى بالمعنى التجريدى الوصفى دون الجانب التطبيقى[٥٦] الذى حرص المؤلف على أن يقرنه دائما بالنحو ومعنى هذا أن مفهوم النحو عنده لا يختلف عن مفهوم القدماء ،

---

(٥٦) Hartmann & stor K. Dic. of Long & Ling. P. 89.

رغم أن علم اللغه الحديث يفرق بينهما تفريقا واضحا ، وهو ينتقد فى نفس الوقت هذا المفهوم الشامل عند القدماء ، ويعزوه لجهل القوم بموضوع دراستهم[٥٧] .

وبناء على ذلك يخطو خطوة أخرى فى تحديد مفهوم النحو بعد رفضه للمفهوم الشامل ، مستندا الى المنهج اللغوى الحديث ، الذى يفرق بين موضوعات الدرس اللغوى ، ويميز بعضها عن بعض ، كما يقول[٥٨] ومن ثم يحدد مفهوم النحو بقوله : «لما كان موضوع الدرس النحوى هو الجملة ، صدرت هذه الفصول بفصل عن الجملة تثبيتا لوجهة النظر هذه واشعارا بأهمية الجملة فى الدرس النحوى الحديث[٥٩]».

نحن اذن أمام أكثر من مفهوم للنحو عند الدكتور المخزومى هل هو بالمعنى التجريدى الوصفى ، أم بمعنى القواعد المعيارية التعليمية أم بمعنى دراسة الجملة . فاذا سلمنا بالتحديد الاخير للنحو بأنه دراسة الجملة ، فلا نجده يحدد بوضوح هل يقصد بدراسة الجملة فى اللغة العربية الدراسة العلمية التجريدية ، أم الدراسة المعيارية التعليمية ، وبما أن المنهج التعليمى هو الذى يسيطر ويوجه عمل الدكتور المخزومى، فانه لا يقترب من مفهوم النحو من حيث هو دراسة علمية . يدل على ذلك المفهوم النظرى للجملة عنده .

يعرف د. المخزومى الجملة تعريفا مجردا فى أى لغة من اللغات بعدة تعريفات هى :

١ ــ الجملة هى الصورة الصغرى للكلام المفيد فى أى لغة من اللغات .

٢ ــ هى المركب الذى يبين المتكلم به أن صورة ذهنية كانت قد تألفت أجزاؤها فى ذهنه .

---

(٥٧) فى النحو العربى ص ٢٩ .
(٥٨) فى النحو العربى ص ٢٩ .
(٥٩) المرجع السابق ص ٣٠ .

٣ ــ الوسيلة التى تنقل ما جال فى ذهن المتكلم الى ذهن السامع.

٤ ــ الجملة هى الوحدة الكلامية الصغرى(٦٠) .

ويبدو أنه يفرق بين مفهوم الجملة ومفهوم الجملة التامة . لانه خلال هذه التعريفات يحدد ما يسميه بالجملة التامة بأنها تلك التى تعبر عن أبسط الصور الذهنية التامة التى يصح السكوت عليها ويرى أنها تتألف من ثلاثة عناصر رئيسية هى :

١ ــ المسند اليه ، أو المتحدث عنه ، أو المبنى عليه .

٢ ــ المسند الذى يبنى عليه المسند اليه ، ويتحدث به عنه .

٣ ــ الاسناد ، أو ارتباط المسند بالمسند اليه .

وليس فى العربية غالبا لفظ يدل على الاسناد ، كما فى غيرها من اللغات ، كما يقول(٦١) .

ولكنه لا يطمئن الى هذه التعريفات جميعا فيضع تعريفا جديدا للجملة فى أقصر صورها ، كما يقول ، بأنها : « هى أقل قدر من الكلام يفيد السامع معنى مستقلا بنفسه وليس لازما أن تحتوى على العناصر المطلوبة كلها ، فقد تخلو من المسند اليه لفظا ، أو المسند لوضوحه وسهولة تقديره(٦٢) .

من هذه التعريفات نخرج فى الحقيقة بعدة صور للجملة عند د. المخزومى وهى :

١ ــ الجملة .

٢ ــ الجملة التامة .

---

(٦٠) المرجع السابق ص ٣١ .
(٦١) المرجع السابق ص ٣١ ، ٣٢ .
(٦٢) المرجع السابق ص ٣٣ .

٣ ــ الجملة فى أقصر صورها •

وهى أيضا :

١ ــ الصورة الصغرى للكلام •

٢ ــ الوحدة الكلامية الصغرى •

ولاشك أن وضع تعريف علمى دقيق للجملة من أشق مباحث الدرس اللغوى ، مثلها فى ذلك مثل الكلمة والاسم والصفة ، وبقية أجزاء الكلام، حتى أن بعض علماء اللغة يرون أن الهدف النهائى من الدراسة النحوية لاى لغة من اللغات هو تحديد الجمل وأنواعها فى هذه اللغة • ومع ذلك فان أى محاولة فى هذا الصدد كتلك المحاولة التى قام بها د• المخزومى لابد أن تستند الى معايير ثابتة وشاملة ودقيقة[٦٣] فما المعـايير التى استند اليها د• المخزومى فى تحديد مفهوم الجملة فى اللغـات واللغة العربية كما قال ؟

الواقع اننا نجد عنده عدة معايير اختلط بعضها ببعض ، تتصل أحيانا بطول الجملة وقصرها وأحيانا تتصل بدلالة الجمـلة على المعنى التام الذى يحسن السكوت عليه أو هى الصورة الذهنية واحيانا أخرى تتصل بالتركيب وعناصره ووحداته مثل المسند والمسند اليه والاسناد ، ولكن القاسم المشترك الذى يجمـع بين هذه المعايير جميعا هـو أنها ليست معايير لغوية وانما هى معايير فلسفية ومنطقية تستخدم ألفاظا ليست من ألفاظ النحويين ولا أوضاعهم كما يقول الزجاجى[٦٤] •

فالمعنى التام أو الكلام المفيد شىء خارج عن اللغـة يقرره العقل والمنطق لان المعنى المفيد هـو علاقة ذهنيةتربط بين صـوت معين أو مجموعة من الاصواتوشىء خارج عن اللغة ماديا كان أو معنويا أو هو

---

(٦١) المرجع السابق ص ٣١ ، ٣٢ •

(٦٣) Grytal Op. Cit. p. 79-81.

(٦٤) الايضاح فى علل النحو ص ٤٨ •

تصور ذهنى كما قال لا يتصل باللغة الا كما يتصل الرمز بالمرموز اليه ومن ثم فان تعـريف الجمـلة بأنها ذات معنى تام أو مفيد أو يحسن السكوت عليه لا يؤدى فى النهاية الى شىء محدد وانما هو تعريف يدور حول نفسه ولايكاد يؤدى مفهوما أى أننا اذا سألنا أنفسنا اذا كانت الجملة تؤدى معنى تاما فما هو المعنى التام وغالبا ما ستقول بأن المعنى التام هـو الذى تؤديه الجملة ، كما أن المعنى التام أو المفيد لا يحكمه النظام النحوى وحده وانما يتدخل فيه السياق الذى تقال فيه الجملة أى أن المعنى تتدخـل فيه أحيـانا عوامل غير لغـوية اجتماعية وغير اجتماعية .

ويتصل أيضا بمصطلحات الفلاسفة تحـديده للجمـلة بأنها صورة ذهنية تتحول الى صورة لفظية ، وهذا أيضا ليس من تصورات المنهج العلمى الحديث فى دراسة اللغة ، وانما هـو أمر يتصل بعلاقة اللغـة بالفكر ودلالتها عليه . كما يتصل التعريف الثالث للجملة بأنها وسـيلة لنقل ما يجول فى ذهن المتكلم الى ذهن السامع بوظيفة اللغـة بعامة ، لا الجملة وحدها .

أما المعيار الثانى الذى يستند اليه فى تحديد الجملة ، فهـو معيار الطول والقصر ، أى التركيب الطولى أو الافقى للجمـلة . فيرى أن الجملة هى الوحدة الكلامية الصغرى ، أو هى أقل قدر من الكلام يفيد السامع معنى مستقلا . أما أنها الوحدة الكلامية الصغرى فهو تعريف لم يقل به المنهج العلمى الحديث ، بل العكس هو الصحيح ، أى أن الجملة هى الوحدة الكلامية الكبرى . أما الوحدة الكلامية الصغرى فهو الفونيم(٦٥) .

وأما المعيار الثالث الذى يستخدمه د. المخزومى فى تحديد الجمـلة فهو التركيب الذى يتألف من مسند ومسند اليه وعلاقة الاسناد ، وهو

---

(٦٥) Hartmann & stork. Op. Cit. p. 206-207.

معيار أيضا لا يتصل باللغة وانما يتصل بفكرة الإسناد وأركانه ، أى بالتحديد المنطقى للجملة ، كما يتصل أيضا بالدراسة النحوية التقليدية التى يرفضها د. المخزومى ولعل سيبويه هو أول من استخدم هـذا المعيار فى تحديد الجملة . يقول : « هذا باب المسند والمسند اليه ، وهو ما لا يغنى واحد منهما عن الاخر ، ولا يجد المتكلم منه بدا ، فمن ذلك الاسـم المبتدأ والمبنى عليه ، وهـو قولك ، عبد الله أخـوك ، وهذا أخوك[٦٦] ولعلنا قد لاحظنا أن مصطلح المبنى عليه أيضا ، من مصطلحات سيبويه التى استخدمها د. المخزومى .

نحن اذن أمام عدة معايير فى تحديد الجمـلة متناقضة مختلطة ، بعضها خاطىء وبعضها غامض . فاذا كان النحو غير واضح المفهـوم والجملة أيضا غـير واضحة المفهوم ، فكيف كان التطبيق ، أو بعبارة أخرى اذا كان هذا هو التصور النظرى لمفهوم النحو ومفهوم الجمـلة، فكيف تم التعامل معهما على المستوى التطبيقى ، وهما على هذا النحو من الاضطراب وعدم الوضوح .

يردد الدكتور المخزومى فى كتابه : « النحو العربى ، قواعد وتطبيق على المنهج العلمى الحديث » (١٩٦٦) ما سبق أن ردده فى كتابه النحو العربى ، نقد وتوجيه (١٩٦٤) فيما يتصل بمفهوم النحو والجملة[٦٧] الا أنه ـ تطبيقا للمنهج العلمى الحديث الذى ينادى به ـ يتخلى عن مفهوم النحو بالمعنى الضيق الذى استقر عليه فى كتابه النظرى من حيث هو دراسة الجملة ليبدأ الجانب التطبيقى بتمهيد عن الاصوات ، وهى دراسة فى تفاصيلها ومنهجها تتصل بطريقة القدماء ومنهجهم فى دراسة الاصوات العربية . فهى لا تتحدث عن آلية النطق أو أعضاء النطق ، أو مخارج الاصوات ، وانما تكتفى بترتيب الاصوات العربية طبقا لحيز النطق ، كمـا هى عند الخليل لينتقل بعد ذلك الى ظواهر صوتية مثل

---

(٦٦) الكتاب ١/٢٣ ط. عبد السلام هارون .
(٦٧) فى النحو العربى قواعد وتطبيق ص ٨٢ ـ ٨٤ .

الاعلال والابدال والادغام فيحدد مواضعها ومظاهرها فى العربية ، ثم يعرض للجهر والهمس ، والاطباق والانفتاح بما لهما من صلة وتأثير فى تجاور الاصوات وتمازجها ، كما يقول • ويقسم الاصوات العربية الى مجهورة ومهموسة ، ويعرف الصوت المجهور بأنه « الصوت الذى يمتنع النفس عن الجريان عند النطق به » أما المهموس فهو « الصوت الذى يظل النفس عند النطق به جاريا لا يعوقه شىء »[٦٨] •

وهما تعريفان لا يضيفان شيئا الى ما قاله الخليل أو سيبويه وكأنه لم يسمع وهو فى بداية العقد الثانى من النصف الثانى من القرن العشرين عن دور الوترين الصوتيين فى تصنيف الاصوات اللغوية الى مجهورة ومهموسة • وعندما يتعرض للصوائت والصوامت يستعمل أكثر من مصطلح للدلالة على الصوائت ، فهى مرة صائتة ومرة معتلة ، والصوامت صامتة أو صحيحة أو ساكنة[٦٩] ثم يقسم الاصوات المعتلة الى طويلة وقصيرة ، فالطويلة هى الالف والواو والياء ، والقصيرة هى الفتحة والضمة والكسرة ، ولا فرق بينهما الا فى الكم ، كما يقول ، ولكنه لا يحدد هذا الكم ، هل هو زمنى أم كيفى أم هما معا ، كما لم يحدد العلل الطويلة ، هل هى الواو والياء والالف مطلقا ، أم فى مواضع معينة من بنية الكلمة[٧٠] • وبذلك تنتهى الدراسة الصوتية عنده لينتقل بعد ذلك الى الدراسة الصرفية من حيث بنية الكلمة المفردة ، والميزان الصرفى ، والوقف والابتداء والتقاء الساكنين • وهو لا يستغل فى مباحثه الصرفية أية معارف صوتية ، وانما يكتفى بترديد ما جاء فى كتب القدماء حول الظواهر الصرفية[٧١] •

أما على المستوى النحوى فيستهله بتحديد أقسام الكلام ، وهى عنده أربعة تتمثل فى الاسم والفعل والاداة والكناية • والاسم عنده هو

---

(٦٨) المرجع السابق ص ٨٧ •
(٦٩) المرجع السابق ص ٩ •
(٧٠) المرجع السابق ص ١٠ •
(٧١) المرجع السابق ص ١١ ـ ١٩ •

ما دل على معنى فى نفسه غير مقترن بالزمن • أما الفعل فهو ما دل على معنى فى نفسه مقترنا بأحد الأزمنة • أما الاداة فهى ما لا تدل على معنى الا فى أثناء الجملة • وأما الكنـاية فتتمثل فى الضمائر والاسماء الموصولة وأسماء الاشارة وأسماء الاستفهام ، وغيرها(٧٢) •

ولسنا فى حاجـة الى مناقشة هـذه التعريفات لانها لا تخرج عن تعريفات القدماء فى شىء • وتستخدم معايير غير لغوية • ومعنى هذا كله أن المنهج العلمى الحديث فى دراسة اللغة عند الدكتور المخزومى لايكاد يبتعد عما قاله القدماء قيد أنملة ، وان صاحبته دعوى لم يتحقق منها شىء ، سواء على المستوى النظـرى أو التطبيقى • اللهم الا وضـع دراسة الاصوات فى صدر الكتاب التطبيقى مع عـدم الاستفادة منها بشىء • وانتهت الدراسة النظرية والتطبيقية الى ثوب متعدد الالوان ، لا ينتمى الى نموذج واضح ولكن ألوانه مستعارة أحيانا من الفراء أو ابن مضاء • فهو يستخدم الاداة بدلا من الحرف ، والخفض بدلا من الجر ، والفعل الدائم بدلا من اسم الفاعل ، والنصب على الخلاف بعد واو المعية • وجواز تقديم الفاعل على الفعل ، واسقاط نظرية العامل ، ورفض التعليل والتأويل والتقدير ومتعلقات الفعل مثل المصدر والتمييز والحال ، والمفعول به فهى تتعلق بالفعل وليست معمولات له ، والنعت السببى ليس من أقسام النعت ، وانما هو اتباع على المجاورة •

كما استعار من أستاذه ابراهيم مصطفى اخراج العطف والتوكيد من باب التوابع ، وبذلك أصبحت التوابع عنده ثلاثة هى النعت وعطف البيان وخبر المبتدأ ، وكل ما أضافه من عنده يتصل بالتقسيم والتبويب لاغير • فقد جمع بين أبواب وزعها النحاة فى باب واحد مثل جمعه أدوات الاستفهام والنفى والشرط وتفريقه بين أدوات العطف من حيث دلالتها على المعنى•وكل هذا وغيره لايظهر فيه أثر المنهج العلمى الحديث فى دراسة اللغة• وانما جاء هذا النموذج المتعدد الالوان لا ينتمى الى القدماء أو

---

(٧٢) المرجع السابق ص ١٩ ـ ٢٠ •

المحدثين ويظهر ذلك جليا فى طاقم المصطلحات التى استعملها فى دراسته، فلاهو أبقى على النموذج التقليدى كما هو ، فهو فى النهاية بناء متماسك ومتجانس فى حد ذاته ، ولا هو أعاد النظر فى هذا النموذج وقدم بديلا له مما يتفق وتطور علم اللغة فى النصف الثانى من القرن العشرين • ولعل الاثر الواضح لعلم اللغة فى هذه المحاولة ومحاولة الاستاذ ابراهيم مصطفى من قبل يتجلى فى الوقوف ضد المنطق وتحكمه فى دراسة اللغة، وهى احدى المقولات الاساسية التى مهدت لظهور علم اللغة الوصفى والتى سيرددها الوصفيون العرب ، كما سنرى فيما بعد •

وأما آخر محاولات التيسير والاصلاح ، فهى محاولة د• شوقى ضيف (١٩٨٢) تحت عنوان «تجديد النحو العربى» وقد كان للدكتور شوقى ضيف دعوة ورأى عن حاجة النحو العربى الى تصنيف جديد بناء على نظرية ابن مضاء عندما قام بنشر كتاب الرد على النحاة لاول مرة (١٩٤٧) ، حيث قدم الاصول والمبادىء التى ينبغى اعادة تصنيف النحو العربى على أساسها ، وهى عنده تتمثل فى أمرين هما :

١ ــ الاستغناء عن نظرية العامل •

٢ ــ منع التأويل والتقدير[٧٣] •

ولم يقحم د• شوقى ضيف نفسه فى دعــوى تطبيق المنهج العلمى الحديث فى دراســة اللغة ، وانما حــدد عمله فى اطار النظرية النحوية التقليدية ، ولكن مع اعادة تنسيق وتصنيف أبواب النحو[٧٤] وهو يعتمد فى اعادة التنسيق والتصنيف على الاسس التالية :

١ ــ الغاء الاعــراب التقديرى فى المفردات مقصــورة ومنقوصة ومضافة الى ياء المتكلم ، ومبنية •

---

(٧٣) أنظر مقدمة كتاب الرد على النحاة ص ٤٨ ــ ٦٧ ط• ثانية •
(٧٤) أنظر د• شوقى ضيف ، تجديد النحو العربى ، المقدمة ، ص ٤ والمدخل ص ١١ •

٢ ــ عدم اعراب كلمة لا يؤدى اعرابها الى فائدة فى صحة نطقها

٣ ــ وضع تعريفات وضــوابط دقيقة لابواب المفعول المطــلق ، والمفعول معه ، والحال ، تجمع صور التعبير فى كل منها جمعا وافيا .

٤ ــ حذف زوائد كثيرة فى أبواب نحوية ، تعرض دون حاجة اليها.

٥ ــ زيادة اضافات لابواب ضرورية بجانب اضافات فرعية لتمثل الصياغة العربية وأوضاعها تمثيلا دقيقا[٧٥] .

وبناء على ذلك يقسم الكتاب الى ستة أقســام ، قسمان للصرف وأربعة أقسام للنحو ، وقد بدأ القسم الاول من الصرف بدراسة لاصوات اللغة العربية فيما أسماه « نطق الكلمة » التى يحدد أقسامها ، كمــا حددها القدماء ، الى اسم وفعل وحرف . ويعتمد على المعيار الدلالى فى تحديد أقسام الكلام هــذه . فالاسم ما دل على معنى ولم يقترن بزمان . والفعل ، ما دل على حدث واقترن بزمان ، والحرف لا يستعمل بمعنى وانما للاتصال بغيره[٧٦] . ثم ينتقل الى أصوات العربية ، غير انه لا يستعمل مصطلح الصوت مطلقا . وانما يستعمل مصطلح الحرف للدلالة على الصوت ، وهو مصطلح تقليدى أدى الى كثير من اللبس ، كما سنرى فيما بعد . وقد اتخذ من الدراسة الصوتية عند علماء التجويد اساسا لعرض وتصنيف أصوات اللغة العربية ، وذلك لدقة دراسة علماء التجويد ووصفهم لاصوات اللغة ولانهم يعينون لكل حرف مخــرجه بمنتهى الدقة كما يقول ، من أقصى الحلق الى الشفتين[٧٧] . وهو يعتمد على طريقة الخليل بن أحمد فى ذوقه للحرف . أى يلفظه ساكنا ويضع قبله همزة مفتوحة أو مكسورة فيقول مثلا : لنتبين نطق حرف كالباء : أب ونطق السين : أس[٧٨] .

---

(٧٥) المرجع السابق ، المقدمة ص ٤ ــ ٥ .
وانظر أيضا مدخــل الكتاب حيث يحدد مواضع الحــذف والزيادة والاضافة فى أبواب النحو .
(٧٦) المرجع السابق ص ٤٩ .
(٧٧) المرجع السابق ، نفس الصفحة .
(٧٨) المرجع السابق ، نفس الصفحة .
وانظر أيضا ، كتاب العين ، ص ٥٢ .

ثم يصنف الصوامت العربية مقتفيا تصنيف القدماء من حيث موضع النطق وصفته ، ولكنه يعرف الصوت المجهور بأنه الصوت الذى تتضح فيه شدة الجرس والمهموس الذى يتضح فيه لين الجرس وانخفاض الشدة • وتتوسط بقية الحروف عنده بين الجهر والهمس[٧٩] • وهو تصنيف لا يعتمد ــ كما نرى ــ على علم الاصوات الحديث ، وانما يعتمد غالبا على الاثر السمعى لهذه الاصوات وهى فى حالة التجريد • أما الصوائت فتنقسم عنده الى الحركات ، ويضيف اليها التشديد والتنوين[٨٠] • وتنقسم الحركات الى حركات طويلة ، هى حروف المد واللين ، أو حروف العلة ، وهى الالف والواو والياء • فاذا جانستها الحركات السابقة لها ، سميت معتلة ممدودة ، أو حروف مد • أما اذا لم تسبقها حركات تجانسها فهى حروف لين فقط • والمد عنده هو زيادة مط فى حرف المد على المد الطبيعى ، بحيث تزداد مدته[٨١] • ثم ينتقل بعد ذلك الى همزتى القطع والوصل ، ثم الادغام فالابدال[٨٢] •

وبذلك تنتهى دراسة الاصوات عنده وهى دراسة كافية للتدليل على أن تجديد الدكتور شوقى ضيف يتم فى اطار وصف القدماء لقواعد اللغة العربية ، بل لوصف البصريين على وجه الخصوص ، دون التطوير الذى أحدثه الفراء على النظرية البصرية • غير أننا نلاحظ أنه قد خالف القدماء فى وضع الدراسة الصوتية والصرفية ، فى مقدمة الدراسة النحوية فى حين أن سيبويه والقدماء كانوا يضعونها كما نعلم بعد الدراسة النحوية أو فى مقدمة الدراسة الصرفية • كما استخدم الجداول فى بيان تصريف الافعال بأنواعها المختلفة مع الضمائر[٨٣] •

واذا كان رفاعة الطهطاوى هو أول من استخدم الجداول الايضاحية

---

(٧٩) المرجع السابق ، ص ٥٠ •
(٨٠) المرجع السابق ، ص ٥٢ •
(٨١) المرجع السابق ، ص ٥٣ ــ ٥٤ •
(٨٢) المرجع السابق ، ص ٥٤ ــ ٥٦ •
(٨٣) المرجع السابق ، ص ٥٦ •

فى كتب النحو العربى[٨٤] فان وضع الدراسة الصوتية والصرفية ، قبل الدراسة النحوية هو بلاشك أثر من آثار الاطلاع على الدراسات اللغوية الحديثة ، التى لا نجد لها أثرا يذكر فى كتاب تجديد النحو فالمصطلحات التقليدية والتقسيمات كما هى عند البصريين تماما ، وصور الابواب النحوية بقيت كما هى،الا من بعض تعديلات تم فيها ادماج بعض الابواب فى بعض ، وفيما عدا ذلك لا نجد تجديدا يقوم على نظرية جديدة ، أو منهج يخالف منهج القدماء •

التجديد والتيسير والاصلاح اذن كلها مصطلحات اطلقت منذ العقد الثالث من هذا القرن ويقصد بها أمران هما :

١ ــ من الناحية النظرية اعادة النظر فى وصف القدماء للنظام النحوى للغة العربية دون بقية النظم اللغوية الاخرى الصوتية والصرفية والدلالية •

٢ ــ من الناحية العملية اعادة تصنيف القواعد النحوية فى اطار وصف القدماء لها ، وبمصطلاحاتهم وتقسيماتهم •

ولم يدع أحد ممن تصدوا لهذا العمل تطبيق منهج علم اللغة الحديث يستوى فى ذلك رائد حركة التيسير والاصلاح،الاستاذ ابراهيم مصطفى رحمه الله ، وآخر ممثليها الدكتور شوقى ضيف ، اذا استثنينا من ذلك الدكتور مهدى المخزومى • كما أن معظم جهود أصحاب حركة التيسير والاصلاح انصبت على الجانب التعليمى العملى دون الجانب المنهجى النظرى ، فلم يفكر واحد منهم فى استبدال النموذج القديم بنموذج جديد يقوم على استقراء جديد للغة العربية المعاصرة مثلا • حتى عندما قالوا بالغاء نظرية العامل وهى أصل من أصول القدماء استندوا فى ذلك الى دعوة ابن مضاء القرطبى • ولكن ذلك أيضا كان على مستوى النظر دون التطبيق • حيث تعاملوا جميعا مع آثار نظرية العامل وهم فى الوقت

---

(٨٤) د• محمود فهمى حجازى • علم اللغة العربية ص ٩٤ •

نفسه يرفضونها • فقد أجمعوا مثلا على أن الافعال تنقسم الى متعد ولازم ، وهذا التقسيم للافعال يقـوم على النظر اليها من حيث هى عوامل تتعدى الى معمولات • ومثل ذلك أيضا فى تعاملهم مع حركات الاعراب التى حاولوا أن يلتمسوا لها تفسيرا غير التفسير الذى قدمه القدماء من أنها أثر يجلبه العامل ، فسلموا بوجودها ولكنهم حـاولوا البحث عن دلالة لها • ومثل ذلك أيضا فى استخدام المصطلحات النحوية والصرفية ، بل انهم عندما حاولوا أن يتعاملوا مع علم الاصوات ، وهو من العلوم التى شاعت فى محاضرات المستشرقين وغيرهم فى الجـامعة المصرية القديمة والجديدة ، لم يستفيدوا شيئا من مفاهيم هذا العلم الحديث وحصروا أنفسهم فى نطاق تصنيف القدماء للاصوات العـربية بكل ما فيها من غموض أحيانا ، وبعض الاخطاء أحيانا أخرى •

غير أننا لا نستطيع أن نترك حركة التيسير والاصلاح دون أن نشير الى تيار نشأ داخل هذه الحركة وارتبط بها ، وهو تيار النظر الى اللغة العربية وعلاقتها بالحضارة الحديثة والتقدم ويتمثل هذا التيـار فى الدعوة الى تطوير اللغة الفصحى أحيانا ، أو اصطناع العامية بدلا منها أحيانا أخرى • ويمثل هذا التيار سلامة موسى والدكتور محمد كامل حسين ، أما الاول فكان من دعاة العامية الذين دعوا الى احلالها محل الفصحى ، أو احلال الحروف اللاتينية محل الحروف العربية فى الكتابة• وهى دعوة سبقه اليها عدد من العرب وبعض الاوروبيين الذين لا ترتفع دعوتهم الى ذلك عن مستوى الشبهات(٨٥) • ولكن الضمـير القومى والدينى رفض التخلى عن الفصحى وتصدى لهذه الدعوة المشبوهة•

---

(٨٥) أنظر مثالا من كتابات سلامة موسى حول احلال العامية محل الفصحى فى :
١ ـ مجلة الهلال ـ عدد يوليو ١٩٢٦ •
٢ ـ كتاب البلاغة العصرية واللغة العربية ط ٢ المطبعـة العصرية ١٩٥٣ • وحول تفاصيل الدعوة الى العامية انظر :
د• نفوسـة زكريا ، تاريخ الدعوة الى العـامية وآثارها فى مصر الاسكندرية ـ دار نشر الثقافة ـ ١٩٦٤ •

أما الدكتور محمد كامل حسين فقد حاول أن يغير من النموذج النحوى التقليدى بناء على الاستعمال اللغوى ومستوياته المعاصرة . وذلك فى كتابه اللغة العربية المعاصرة (١٩٧٦) وهو يقسم فى هذا الكتاب مستويات العربية الى ثلاثة مستويات هى :

١ ـ الفصحى العالية ، وهى لغة الادب الرفيع والخطب والمواعظ والحكم .

٢ ـ الفصحى المخففة ، وهى اللغة الشائعة بين المثقفين والمتعلمين

٣ ـ العامية المنقحة ، وهى تقوم على احلال وتغيير بعض الاصوات والمفردات وطرق النفى والاستفهام الفصيحة محل ما يقوم مقامها فى العامية .

٤ ـ العامية الخالصة(٨٦) .

وهو يرى أن الفصحى المخففة هى الجديرة بالدراسة،دون الفصحى العالية أو العامية المخففة . ويتنبأ بأن هذه الفصحى المخففة سيكتب لها الذيوع والانتشار يقول : « الفصحى المخففة هى اللغة التى أدعو الى الاعتراف بها صراحة ، وهى اللغة الشائعة بين المتعلمين ، وهى وسط بين العامية المنقحة والفصحى العالية . وهى وحدها التى سيكتب لها الذيوع، وعلينا أن ندرس خصائصها ونضع لها قواعد تنظمها حتى لا تصبح مهلهلة كالعامية أو عسيرة كالفصحى العالية »(٨٧) .

وهكذا نسمع لاول مرة فى تاريخ الفكر اللغوى العربى من يدعو الى وضع نموذج جديد للغة العربية طبقا لمستوى لغوى غير المستوى الذى حدده القدماء . وهو ينطلق فى هذه الدعوة ، كما يقول ، من الواقع اللغوى . ويرى أن تجاهل هذا الواقع عيب من عيوب التفكير اللغوى

---

(٨٦) د. محمد كامل حسين . اللغة العربية المعاصرة ص ٧٠ ، ٨٣، ٨٦ ، ٨٨ .

(٨٧) المرجع السابق ، ص ٨٨ .

العربى • وأن القواعد اللغوية التى وضعها القدماء ليست متساوية فى أقدارها ووجوب اتباعها فهى على أنواع مختلفة بالنسبة للاستعمال اللغوى المعاصر • فمنها ما يجب المحافظة عليه ، ومنها ما يحسن اتباعه، ومنها ما يمكن التساهل فى تطبيقه ، ومنها ما لا يفيد الكاتب أو القارىء، ومنها ما هو مفتعل افتعالا ولا أصل له فى مادة اللغة • ومنها ما يجب نبذه(٨٨) •

والواقع أن الدكتور محمد كامل حسين قد مس فى كتابه هـذا جانبا حقيقيا من مشكلة اللغة العربية وصعوبة قواعدها التقليدية فمن الافكار الشائعة فى التفكير اللغوى القديم ، بل وعند بعض المحدثين أيضا ، أن التركيب اللغوى للمجتمع العربى يقوم على محورين الفصحى فى أقصى اليمين ، والعامية فى أقصى اليسار ، دون أن يكون بينهما لقاء • ومع ذلك فان علم اللغة الاجتماعى Sociolinguistic بل علم اللغـة العام الذى نؤمن به وندرسه فى الجامعة يتناقض مع تلك الافكار المتعلقة بالعربية ويقوم هذا العلم على أساس هام هو استحالة الفصل بين ألوان النشاط اللغوى داخل المجتمع الواحد ، سواء على الامتداد الرأسى ، أو الامتداد الافقى للغة • فنحن ندرس مثلا أن النشاط الافقى داخل المجتمع يتنوع فيما يسمى باللهجات الجغرافية Regonal dilects كما ندرس أيضا أن النشاط اللغوى يمتد رأسيا ويتنوع فيما يسمى باللهجات الطبقيـة Social dilects ومع ذلك فان أحدا لم يحاول دراسة اللغة العربية طبقا لهذه المقولة العلمية ، الا هذه الدعوة التى بادر بها د• محمد كامل حسين ، ثم ترددت مرة أخرى على لسان توفيق الحـكيم عندما نادى بالنمط المتوسط للاستعمال اللغوى والذى أطلق عليه مصطلح اللغـة الثالثة ، ولم ير أحد فى هذه الدعوة واقعا لغويا موجودا بل تخيلوا أن هذه الدعوة محاولة لايجاد شىء ليس موجـودا ، ولكن هـذه الدعوة أخذت صورة دراسية علمية على يد الدكتور السعيد بدوى عندما قام

---

(٨٨) المرجع السابق صفحات ٥٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ٠

بدراسة مستويات العربية المعاصرة فى مصر[٨٩] ولكن هـذه الدراسة وقفت عند حدود الدعوة ولم تخرج الى حيز التطبيق العملى، رغم علميتها وواقعيتها .

على أى حال فقد حاول د. محمد كامل حسـين أن يضـع نموذجا جديدا لما أسماه بالفصحى المخففة ، ويدعو الى تعلمه ، ويرى أن المنهج الذى ينبغى أن يقوم عليه تعليم هذا المستوى اللغوى يلتزم بالتدرج من أدنى مراتبه فى العامية المنقحة ، الى أعلى مراتبه فى الفصحى العالية .. وهذا التدرج يتعـلق بسن المتعلم والمرحـلة الدراسية التى يمر بها . فتعليم قواعد هـذه الفصحى المخففة يبدأ من العـامية المنقحة ، لان الاطفال يدخلون المدارس وهم يتحدثون العامية ويستخدمونها بطلاقة. ومن ثم ينبغى أن ننقحها تنقيحا يسيرا . ونوجه الطفل الى هذا المستوى المنقح من العامية . فبدلا من أن يقول الطفل (احنا) يقول (نحن) وفى النفى بدلا من أن يقول (ماكانش) يقول (ما كان) وفى الاستفهام يقول (لماذا) بدلا من (ليه) وفى الاشارة (هذا) بدلا من (ده) وهكذا . وفى الاصوات يرى أن من السهل نطق القاف بدلا من الهمزة أو الجيم[٩٠].

أما الفصحى المخففة ، وهى المستوى الذى يدعو الى استخدامه ، ووصف نظـامه ، واشاعة تعـليمه ، وهـو يتمثل فى النمـوذج الذى وضعه[٩١] فيقوم على عدم التمسك بالاعراب الا فى الحالات الواضحة التى لا لبس فيها ، كما يقوم على اطراد أبواب الفعل وصيغ المصادر وجموع التكسير الا فيما هو مشهور ، والعدول عن مطابقة الفعل للفاعل عندما يكون مبنيا ، واغفال مخاطبة الرجال والنساء فى حالات الجمع ، واباحة النطق بالكلمات غير الشائعة بالصيغ المختلفة . وأن المعنى هو

---

(٨٩) انظر د. السعيد بدوى ، مستويات العربية المعاصرة فى مصر ، القاهرة ، دار المعارف (١٩٧٣) .

(٩٠) اللغة العربية المعاصرة ، ص ٨٤ .

(٩١) انظـر وصف قواعد هـذا النموذج فى المرجع السابق ص ٩٦ ـ ١٤٢ .

الذى يحدد الاعراب ، وغير ذلك من القواعد التفصيلية التى تضمنها هذا النموذج المقترح للفصحى المخففة •

وعلى الرغم من أن علم اللغة الحديث لا يرفض فكرة تقسيم اللغة الى مستويات طبقا للاستعمال ، كما أشرت قبلا — وكما سنرى فيما بعد، الا أن هذا العلم يفرق أيضا بين النظم المختلفة لهذه المستويات ومع ذلك فان د• محمد كامل حسين عندما حاول وضع النموذج الوصفى لما أسماه بالفصحى المخففة ، لم يضع ذلك بناء على استقراء علمى للغة المستعملة فى هذا المستوى • وانما اكتفى ، كما فعل أصحاب التيسير والاصلاح بالنظر فى النموذج التقليدى ، واجراء عمليات حذف وتعديل لبعض قواعده حتى أصبحت قواعد هذه الفصحى المخففة تحتاج الى الاطلاع على النموذج التقليدى لكى تفهم مصطلحاتها ، ناهيك عن استعمالها متداخلة مع قواعد وأصول النموذج القديم •

وصفوة القول أن حركة التيسير والاصلاح كانت خاضعة خضوعا تاما للتفكير اللغوى التقليدى لاسباب عدة فمعظم من نادى بها قد تعلم فى ظل النموذج التقليدى ، سواء فى الازهر أو دار العلوم ومن ثم تمسكوا به حتى بعد أن ترامت الى أسماعهم مبادىء وأصول علم اللغة الحديث • وأصبح هذا النموذج جزءا لا يتجزأ من طبيعة التفكير اللغوى عندهم ينظرون من خلاله ويفكرون على هدى من أصوله • ولا يظهر فى أعمالهم أدنى أثر لعلم اللغة الا بطريق غير مباشر يتمثل فى دراسة الاصوات والدعوة الى استبعاد المعايير المنطقية والفلسفية من الدراسة اللغوية • وحتى فى مثل هذه الدعوات نجد أصداء لها فى التراث العربى• أما هؤلاء الذين دعوا الى تطبيق منهج علم اللغة الحديث فلم يعرفوا الا مظاهر هذا العلم دون أصوله ومبادئه ، فلم يوجه هذا العلم أية دراسة من دراسات أصحاب التيسير والاصلاح توجيها واضحا حقيقيا• وهكذا فشلت جميع جهود أصحاب دعوات التيسير والاصلاح سواء على المستوى النظرى أو المستوى التطبيقى التعليمى • فلم يستطيعوا امداد الفكر اللغوى بنموذج جديد طبقا لاصول جديدة وبالتالى لم

يستطيعوا تقديم قواعد معيارية أيسر وأسهل لافتقارهم جميعا الى نظرية جديدة ، باستثناء د. محمد كامل حسين ومن ثم ظل النموذج التقليدى بقواعده وأصوله متربعا على عرش اللغة العربية فى المدارس والجامعات حتى هبت عليه رياح فكر لغوى جديد آت من الغرب . فهل استطاع هذا الفكر الجديد أن يزحزحه عن مكانه . هذا ما سنحاول أن نتبعه فى الباب الثانى من هذا البحث .

الباب الثانى

الفكر اللغوى العربى الحديث والبنيوية

الفصل الأول

البنيـوية الوصفيـة

بلغت الدراسات اللغوية الحديثة والمعاصرة درجة من الدقة والضبط والموضوعية والشمول ما أتاح لها أن تتبوأ مكانا مرموقا بين فروع المعرفة الانسانية • بل لقد أخذت هذه الدراسات زمام المبادرة فى هدم الاسوار التى أقيمت بلا مبرر علمى واضـح ، بين العلوم الطبيعية والعـلوم الانسانية،وهو ما عبر عنه بصدق «ليفى شتراوس» عالم الانثروبولوجيا حين قال «اننا نجد أنفسنا ازاء علماء اللغـة فى وضع حرج ، فطوال سنوات متعددة كنا نعمـل معهم جنبا الى جنب ، وفجـأة يبدو لنا أن اللغويين لم يعودوا معنا وانما انتقلوا الى الجانب الاخر من ذلك الحاجز الذى يفصل العلوم الطبيعية الدقيقة عن العلوم الانسانية والاجتماعية، والذى ظل الناس يعتقدون طويلا باستحالة عبوره • وهكذا أخذ اللغويون يشتغلون بتلك الطريقة المنضبطة التى تعودنا أن نعترف باستسلام أنها وقف على العلوم الطبيعية وحدها»[1] •

ولم تكتسب هذه العلوم اللغوية هـذه الصفة العلمية الا بعد أن أدركت الفرق الجوهرى بين الدراسات التاريخية المقارنة للغة والدراسة الوصفية للبنية اللغوية فى ذاتها ، وهـو فرق يتمثل فى النظرة الجزئية للغة والنظرة الكلية الشاملة لها • ولذلك حرص «دى سوسير» (١٨٥٨ — ١٩١٣) فى بداية محاضراته على أن يوجز تاريخ الدراسة اللغوية فى أوربا حتى عصره لكى يبين الفرق بين الوصفية البنيوية التى أرسى هو أصولها

---

(١) د. فؤاد زكريا ، جذور البنائية ص ٨ .

كما سنرى فيما بعد ، وبين ما سبقها من دراسات ، وهو يوجز هذا التاريخ[٢] فى مراحل ثلاثة هى :

١ ـ المرحلة الاولى : وتبدأ باليونان فيما يسمى بالاجرومية Grammar ثم أتمه الفرنسيون ابان عصر النهضة ، وهذه الدراسة كانت ترتكز على المنطق ، ومن ثم فهى تفتقر الى المنهج العلمى ، وبعيدة كل البعد عن دراسة اللغة فى ذاتها • وانما استهدفت وضع قواعد لتمييز الصواب والخطأ • والصحيح وغير الصحيح من طرق الصياغة اللغوية •

٢ ـ المرحلة الثانية : وهى المرحلة الفيلولوجية Philology وقد بدأت هذه المرحلة مبكرة فى الاسكندرية القديمة ، الا أن هذا المصطلح له صلة أيضا بالحركة العلمية التى أسسها « فردريك أوجست وولف » منذ عام ١٧٧٧ ومازالت مستمرة حتى أيامنا هذه (أى أيام دى سوسير) ولم تكن اللغة هى وحدها موضوع الدراسة الفيلولوجية ، وانما كانت هذه الدراسة تتجه ، قبل كل شىء ، الى تصحيح النصوص وتفسيرها والتعليق عليها ، ولكن هذا الاتجاه مال أيضا الى العناية بالتاريخ الادبى وتاريخ الاخلاق والعادات وما اليها • وشاع منهجه القائم على النقد Critisism وعلاج المشاكل اللغوية من خلال مقارنة

---

(2) De saussure, course in general linguistic. p. 1-5.

وانظر أيضا د• مصطفى مندور ، اللغة بين العقل والمغامرة ، ص ١٥٢ ـ ١٥٦ حيث ترجم باختصار هذه المقدمة التاريخية لدى سوسير عن الفرنسية • وقد استعنت بها مع ترجمتى لها عن الانجليزية فاختلفت الترجمتان فى بعض المواضع واتفقت فى كثير منها •

وحول أعمال علماء اللغة الذين سيذكرهم دى سوسير فى ملخصه هذا لتاريخ الفكر اللغوى قبل عصره ، انظر ، باللغة العربية :

١ ـ عبد الرحمن الحاج صالح ، مدخل الى علم اللسان ، مجلة اللسانيات ، الجزائر ، المجلد الاول العدد الاول ، (١٩٧١) ، المجلد الثانى (١٩٧٢) •

٢ ـ مونين جورج ، تاريخ علم اللغة ترجمة د• بدر الدين قاسم ص ٥٠ وما بعدها • وبغير العربية انظر :

1. Robins. A short history of linguistics. p.p. 164-197, 198-240.
2. Ivic milka Op. Cit., pp. 37-107.

النصوص التى تنتمى الى عصور مختلفة لتحديد اللغة الخاصة لكل كاتب وشرح النصوص القديمة والغامضة • ولاشك أن هذه الدراسات قد مهدت الطريق الى علم اللغة التاريخى Historical linguistics ولكن هذا المنهج وقع فى خطأ واضح وهو اهتمامه باللغة المكتوبة واهمال اللغة الحية ، كما اقتضت العناية باللغتين اليونانية واللاتينية كل الجهود.

٣ ــ المرحلة الثالثة : وهى مرحلة فقه اللغة المقارن Comparative Philology ، وفيها اكتشف اللغويون أن اللغات يمكن أن تقارن بعضها ببعض • ففى عام ١٨١٦ نشر فرانز بوب Franz Bopip. كتابه عن التصريف فى اللغة السنسكريتية حيث قارن بين هذه اللغة واللغات الالمانية واليونانية واللاتينية • ولم يكن « بوب » أول من لاحظ هذا التشابه بين هذه اللغات ، وانما سبقه الانجليزى ويليام جونز W. Jones (ت ١٧٩٤) ولكن ملاحظات ويليام جونز الجزئية المعزولة لم تكن كافية لاثبات أهمية ودلالة المقارنات اللغوية حتى عام ١٨١٦ • واذا كان (بوب) قد أخفق فى اكتشاف أن اللغة السنسكريتية هى أصل لبعض اللهجات الاوروبية والاسيوية ، الا أن الفضل يعود اليه فى ادراك أن العلاقة بين اللغات ذات القرابة ، يمكن أن تصبح موضوعا لعلم مستقل• اذ لم يسبقه أحد فى القاء الضوء على لغة بدراسة لغة أخرى• ولاشك انه لولا اكتشاف السنسكريتية لما استطاع « بوب » أن يضع أصول هذا العلم • فقد قدمت له هذه اللغة سندا قويا بجوار اللغتين اليونانية واللاتينية •

وبجانب «بوب» كان هناك أيضا عدد من علماء اللغة البارزين ، منهم «جاكوب جريم» Gacob Grimm مؤسس الدراسات اللغوية الالمانية وقد نشر كتابه عن قواعد اللغة الالمانية فى الفترة من عام ١٨٢٢ــ١٨٣٦ •وكذلك « بوت » "Pott" الذى قدمت أبحاثه ودراساته الاشتقاقية التأصيلية Entymological مادة غزيرة للباحثين،ثم جاء من بعدهما «كوهن»"Kuhn" الذى تركت أبحاثه حول الدراسات اللغوية والميثولوجيا المقارنة وكذلك « بنفى » Benfey الذى اهتم بالتراث الهندى وغيرهما •

ولكن من بين رجال هذه المدرسة يبرز الدور الهام الذى قام به كل من « ماكس موللر » Max Muller و « ج كورتس» G. Curtius و « أوجست شـــليشر » Aug. Schleicher الذين شاركوا جميعـــا فى الدراسات المقارنة وأثروها • وكان كتاب « ماكس موللر» دروس فى علم اللغـــة Lessons in the science of language الذى نشر عام ١٨٦١[٣]• هو الذى أكسبه شهرة واسعة ، كما كان «كورتس» واحدا من أوائل الفيلولوجيين الذين مزجوا بين فقه اللغة المقارن وفقه اللغة الكلاسيكى Classical Philology • غير أنه كان يراقب نمو وتطور العلم الجديد بشك • كما كانت كل مدرسة تنظر الى أختها بعين الشك أيضا •

ولكن « شليشر » كان أول من قنن النتائج التى وصلت اليها هذه الدراسات ، ويعتبر كتابه عن النحو المقارن للغـــات الهندية الجرمانية الذى نشر فى الفترة من عام ١٨٦٢ — ١٨٦٣ نوعا من الدراســـة العلمية المنهجية التى وضع « بوب » أصولها وأسسها • ولذلك فهو أول كتاب يبرز ملامح مدرسة المقارنة اللغوية التى وضعت اللبنة الاولى فى تاريخ علم اللغات الهندية الاوروبية •

ولكن هذه المدرسة التى كان لها فضل ارتياد حقل جديد ، وخصب من الدراسة اللغوية قد أخفقت فى تحديد الموضوع الحقيقى لعلم اللغة • فقد فشلت فى ابراز وتحديد طبيعة موضوع الدراسة ولكن ، من الحق أيضا أن نقول انه لولا هذه الخطوة الهامة التى خطتها تلك المدرسة ، لما استطاع علم اللغة أن يطور أى منهج علمى فى دراسته •

غير أن الخطأ الاول الذى وقع فيه هؤلاء الفيلولوجيين ، وكان سببا فى سلسلة أخرى من الاخطاء ، أنهم لم يسألوا أنفسهم أبدا عن معنى هذه المقارنات ، ودلالتها بما لها من علاقة بالصلات التى اكتشفوها بين

---

(٣) فى الطبعة الرابعة من الكتاب نشر باسم «محاضرات علم اللغة» Lectures on the science of lanuage.

انظر الكتاب ، الطبعة الرابعة London 1864

اللغات • كما كان المنهج الغالب عليهم هو المنهج المقارن لا التاريخى • حقا ان المقارنة من ألزم الادوات للدراسة التاريخية ، ولكنها وحدها لا تؤدى الى نتائج ايجابية ، وكان كل ما فعلوه أنهم أخذوا ينظرون الى تطور أى لغتين يقارنون بينهما ، كما ينظر عالم التاريخ الطبيعى Naturalist الى تطور نباتين مختلفين ، ومن ثم انحصر تفكيرهم فى المنهج المقارن وحده ، مما أدى الى عدد من النتائج الزائفة التى لا صلة لها بواقع اللغة • كما لم تستطع هذه النتائج أن تكشف عن حقيقة الكلام لأنهم نظروا الى اللغة كمرحلة رابعة من مراحل المملكة الطبيعية • وقد أدى ذلك الى نوع من التفكير أثار دهشة أصحاب العلوم الاخرى • ونحن لا نستطيع اليوم أن نقرأ عدة سطور من هذه الاعمال التى كتبت فى ذلك الوقت ، دون أن نصطدم بالحجج الواهية التى قدموها ، وكذا بالمصطلحات التى وضعوها لتبرير هذا التفكير • ومع ذلك فان الاخطاء التى ارتكبها علماء الفيلولوجيا المقارنة من وجهة نظر التفكير المنهجى ، لم تكن بلا قيمة ، لان أخطاء العلم الناشىء هى التى تبرز وتوضح قيمة التفكير العلمى الصحيح •

ولم يبحث اللغويون عن الاصول والمبادىء التى تحكم اللغات الا فى عام ١٨٧٠ حينما وضح التشابه الذى يربط بينها ، وأن هذا التشابه ليس الا وجها واحدا من وجوه الظاهرة اللغوية ، وأن المقارنة ليست الا وسيلة أو منهجا لاعادة بناء الحقائق اللغوية •

ولكن علم اللغة المقارن استطاع أن يحتل مكانه الصحيح حينما بدأ « ديز » Diez فى دراسة اللغات الرومانية الجرمانية • ونشر كتابه عن قواعد هذه اللغات فيما بين عامى ١٨٣٦ — ١٨٣٨ فبدأ علم اللغة يقترب من موضوعه الصحيح • لان كل ما كان غير واضح أو محدد فى اللغات الهندية الاوروبية اتضح واستكمل من خلال دراسة « ديز » للغة اللاتينية ، وهى اللغة الام للغات الرومانية كما مكنت كثرة الوثائق من تتبع تطور اللهجات المحلية لهذه اللغات • وكل ذلك أدى الى انزواء

الافتراضات العقلية لتحل محلها ملامح واضحة ومحددة لموضوع علم اللغة •

وحينما نشر عالم اللغة الامريكى « وتنى » Whitney كتابه « حياة ونمو اللغة » life and growth of language عام ١٨٧٥ ، كان ذلك ايذانا ببداية اتجاه جديد فى دراسة اللغة اذ سرعان ما تكونت مدرسة جديدة هى مدرسة « النحاة الجدد » Neogrammarians التى كان كل رؤوسها من الالمان • منهم «بروجمان» Brugmann و « أوسبتوف » Osthoff و «لاسكين» Leskien وغيرهم • ويرجع الفضل الى هذه المدرسة فى وضعها لكل النتائج التى أسفرت عنها الدراسات المقارنة فى منظور تاريخى ، مما أدى الى تسلسل الحقائق فى نظامها الطبيعى وبفضلهم أيضا لم نعد نرى الظاهرة اللغوية وكأنها كائن عضوى ينمو مستقلا بذاته ، وانما أصبح كل شىء ينسب الى العقل الجمعى ، Collective mind للجماعات اللغوية • وبذلك أدرك علماء اللغة فداحة الاخطاء التى أسفرت عنها الدراسات الفيلولوجية • ولكن مهما كانت النتائج التى قدمتها هذه المدرسة فانها لم تستطع أن تحدد تحديدا كافيا موضوع علم اللغة • ومن ثم فمازلنا نشعر أن القضايا الاساسية فى علم اللغة تحتاج الى حل •

هذه هى المعالم الكبرى التى شاء دى سوسير أن يتوقف عندها فى مراجعته لتاريخ الفكر اللغوى قبل عصره • والتى شرع فى نهايتها ، فى طرح نظريته التى دار حول أصولها التفكير اللغوى الحديث والمعاصر ، والتى طرحت لاول مرة ، الحل الذى كان يبحث عنه ويتمثل ذلك فيما يمكن أن نطلق عليه المنهج الوصفى البنيوى فى دراسة اللغة •

١ ـ مدرسة جنيف Geneva school

يمكن أن نحصر أصالة ما قدمه دى سوسير وقامت على أصوله هذه المدرسة اللغوية فيما يتصل بعلم اللغة بعامة والعلاقة بين المنهج الوصفى

والتحليل البنيوى خاصة فيما يلى[٤] :

١ ــ فرق بدقة بين الثنائى الذى كان مترادفا عند الفيلولوجيين ، وهو اللغة Langue والكلام Parole على أساس أن اللغة فى حقيقتها نظام اجتماعى مستقل عن الفرد ، وأن الكلام هو الاداء الفردى للغة الذى يتحقق من خلاله هذا النظام ، والصلة بينهما هى عين الصلة بين الجوهرى (اللغة) والعرضى (الكلام)[٥] .

٢ ــ اللغة نظام يتألف من مجموعة من العلامات اللغوية ، والعلامة اللغوية Linguis.ic sign عبارة عن صورة صوتية (الدال) تتحد مع تصور ذهنى (المدلول) ويندرج الدال تحت النظام المادى للغة لانه عبارة عن أصوات ، بينما يندرج المدلول تحت النظام الذهنى والعلاقة بين الدال والمدلول علاقة مواضعة تتحقق من خلال هذين العنصرين أى الصوت والمدلول ، بحيث لا يحتوى الدال على أية قيمة أو صورة لحقيقة المدلول .

٣ ــ العلاقة بين الدال والمدلول علاقة رمزية ، ومن ثم فان علم اللغة هو جزء من نظام أوسع وأشمل هو النظام السميولوجى ، وهو أيضا جزء من علم سيظهر فيما بعد هو علم الرموز Semiology .

٤ ــ يتألف النظام اللغوى من عناصر داخلية Internal ، وعلاقات

---

(٤) أنظر : De saussure Op. Cit. p. 7, 15, 20, 65, 91, 101, 140, 232
وانظر أيضا ، باللغة العربية : د. عبد الرحمن الحاج صالح ، مجلة اللسانيات ، المجلد الثانى ، العدد الاول ، ١٩٧٢ ص ٣٩ ــ ٥٤ ، و د. زكريا ابراهيم ، مشكلة البنية ص ٤٧ ــ ٥٧ ، و د. تمام حسان ، مناهج البحث فى اللغة ص ٣٨ ــ ٤٣ وبغير العربية أنظر :

1. Robins Op. Cit. pp. 199-201.
2. Ivic mi'ka Op. Cit. pp. 125-129.

(٥) وقد عبر تشومسكى عن هذه العلاقة بين اللغة والكلام فيما أطلق عليه «القدرة» Competance و « الاداء Freformance » حيث تتمثل القدرة فى البنية العميقة deep structure والاداء فى البنية السطحية surfece structure أنظر : Robins Op. Cit. pp. 227-228.

خارجية External . أما العناصر الداخلية ، وهى لها الصدارة فتتمثل فى دراسة نظام اللغة الداخلى . أما العلاقات الخارجية فتتمثل فى دراسة العلاقات القائمة بين اللغـــة وما يؤثر فيها مثل الحضارة والاجتمـــاع والتاريخ وعلم النفس .

٥ ــ الدراســـة الوصفية للغة هى النظر فى عـــلاقة كل عنصر من العناصر اللغوية الداخلية بغـــيره من العناصر الاخرى المكونة للنظـــام اللغوى لان أى عنصر منها لا قيمة له دون العناصر الاخرى . ومن ثم فان النظام اللغوى يقوم على التشابه Identit من ناحية ، والاختلاف Differ من ناحية أخرى .

ولكى يوضـــح دى سوسير فكرة العناصر الداخـــلية والعـــلاقات الخارجية يضرب مثلا بلعبة « الشطرنج » فهذه اللعبة قد انتقلت من الشرق الى الغرب ، وهو أمر خارجى لا يمس نظام اللعبة الداخلى ، ولا قواعدها فاذا استبدلنا مثلا القطع الخشبية بقطع من العاج فان هـــذا التغير لا يمس النظام الداخلى للعبة . ولكننا اذا أنقصنا أو زدنا عدد القطع ، أو لعبت هذه اللعبة بطريقة تخالف القوانين التى وضعت لها،فهذا التغير يخل ويمس نظام اللعبة وقواعدها . أما عن قيمـــة العلاقة بين العناصر اللغوية وبعضها فانها تشبه قيمة قطع الشطرنج أيضا على رقعة اللعب . حيث تستمد كل قطعة قيمتها من الموضع الذى تحتله على الرقعة مقابل المواقع التى تحتلها القطع الاخرى . ومثل ذلك أيضا العلاقة بين العناصر أو الوحدات اللغوية التى لا تظهر قيمتها الا فى وجود غيرهـــا من العناصر ، أى بما يرمز اليه داخل اللعبة ، فلو أخذنا مثلا «البيدق» فسنجده فى ذاته عبارة عن عنصر من عناصر اللعبة وليس نتيجة للمادة المصنوع منها لانه خارج الرقعة أو المربع الذى يشغله ، لا قيمة له لمن يلعب ، وانما يستمد هذه القيمة من ارتباطه بالرقعة وبالقطع الاخـــرى وبنظام اللعب ، لاننا نستطيع أن نستبدله اذا فقد أو تحطم بأى شىء آخر شريطة أن نعطى هذا الشىء قيمة البيدق داخل اللعبة ، وهى عين

العلاقة الرمزية التى تقوم عليها اللغة الانسانية من حيث علاقة عناصرها الداخلية بعضها ببعض داخل النظام اللغوى[٦] .

٦ ــ اللغة Langue طبقا لوجهة النظر الزمانية تدرس من ناحيتين :

أ) الدراسة الآنية Synchronic (الوصفية) .

ب) الدراسة التعاقبية Diachronic (التاريخية) .

حيث تمثل الدراسة الآنية محورا أفقيا يتم فيه دراسة العناصر اللغوية على أساس ثابت Static ليس للزمن أى دخل فيه . بينما تمثل الدراسة التعاقبية محورا رأسيا تقوم فيه العلاقات بين العناصر اللغوية على أساس الحركة Dynamic طبقا للتغير الزمنى ، أو التطور التاريخى للغة وذلك طبقا للشكل التالى :

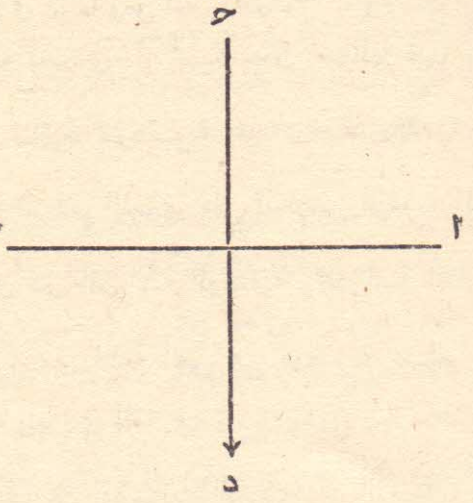

حيث يمثل المحور الافقى أ ب الدراسة الوصفية الثابتة Static ويمثل المحور الرأسى جـ د الدراسة التاريخية Dynamic يدل على ذلك السهم الموجود فى نهاية المحور الرأسى . ويمكن أن نقسم المحور

---

(٦) De saussure Op. Cit. p. 22, 88, 110.

الرأسى بخطوط أفقية توازى المحور الافقى حيث ترمز كل مسافة بين خطين أفقيين لمرحلة ، أو حالة من حالات اللغة تاريخيا ، يمكن دراستها دراسة وصفية ، فكل مرحلة من مراحل حياة اللغة العربية مثلا فى العصر الجاهلى أو صدر الاسلام أو العصر العباسى تمثل حالة من حالات اللغة العربية ، يمكن دراستها دراسة وصفية • ومعنى هذا نظريا أننا لن نستطيع القيام بالدراسة التاريخية الا بعد الانتهاء من الدراسة الوصفية(٧) •

٧ ــ استخدام الرياضيات ضرورة فى عملية التحليل اللغوى ووصف اللغة •

وبناء على هذه المبادىء والاصول استطاع دى سوسير فى النهاية أن يحدد موضوع علم اللغة « ان موضوع علم اللغة الصحيح والفريد هو دراسة اللغة فى ذاتها ومن أجل ذاتها»(٨) • ولاشك أن البحث اللغوى الحديث مدين له بمبادىء أساسية يمكن اجمالها فيما يلى :

١ ــ مبدأ ثنائية التركيب • Duality of structure

٢ ــ أولية النظام اللغوى على العناصر اللغوية المكونة له •

٣ ــ الفرق بين الدراسة الوصفية والدراسة التاريخية للغة •

٤ ــ التمييز بين اللغة التى هى موضوع علم اللغة ، والكلام الذى هو الاداء الفردى للغة •

٥ ــ الكشف عن الجانب البنيوى من اللغة ، وان لم يستعمل مصطلح « بنية » فالمفهوم الاساسى عنده هو النظام ، بل أسبقية النظام على العناصر المكونة له • ومن ثم فان الكشف عن النظام يعنى اكتشاف

---

(٧) De saussure, Op. Cit. pp. 80-81.
(٨) Ibid, p. 232.

البنية ، وبالتالى اكتشاف العلاقات المتصلة بالعناصر اللغوية الواصلة بين أجزائها والمكونة لها •

وبالرغم من مضى أكثر من نصف قرن على هذه المبادىء لم تسلم خلالها من النقد والتعديل ، شأنها فى ذلك شأن أى نظرية علمية الا أنها أصبحت منذ أذاعها صاحبها تمثل القاعدة الصلبة التى بنيت عليها علوم اللغة الحديثة والمعاصرة • وبذلك كان دى سوسير أول من زود عـلم اللغة بأسس نظرية سليمة ، كما قامت على هذه الاصول والاسس مدرسة لغوية عرفت فى تاريخ الفكر اللغوى باسم « مدرسة جنيف» •

ولعل « تشومسكى » هو الذى استطاع من بين علماء اللغة أن يظهر أوجه القصـور فى نظرية دى سوسير لاخطأها ، فهو لم يهـدم أصول البنيوية الديسوسيرية ، وانما رأى أن هذه النظرية غير كافية لتفسير الظاهرة اللغوية ، بما لها من صلة بالعمليات العقلية والنفسية عند بنى الانسان • والواقـع أن نظرية دى سوسـير كانت أقرب الى الوصف والتصنيف منها الى التعليل والتفسير وتولد التراكيب اللغوية بعضها من بعض وهو العمل الذى أتمه تشومسكى فيما بعد •

غير أننا ينبغى ألا نتصور أن المفـاهيم والاصول التى جـاء بها دى سوسير كانت غير معروفة أو متداولة فى عصره فمؤرخو الفكر اللغوى يشيرون الى عالم لغوى روسى هو «بدوان دى كورتينى» Baodauin de cortenay (١٨٤٥م – ١٩٢٩م) الـذى نشر بحثـا حول مفهوم الفـونيم Phoneme (١٨٩٣م) وهـو الذى وضع هـذا المصطلح ، وصكه من كلمة روسية[٩] ويرى بعض هؤلاء المؤرخين أنه هـو الاب الحقيقى لعلم اللغة البنيوى • يقول جورج مونين « ومهما كانت أعمال دى سوسير جليلة ، ومهما كان تأثيره عميقا ومباشرا فى بعض النواحى وقاصرا فى نواح أخرى فاننا نبسط التاريخ اذا نصبنا له تمثالا رائعا

---

(٩) Robins, Op. Cit. p. 204.

منعزلا عند مفترق طرق خاوية »[١٠] .

وهـو يشير بذلك الى أعمـال معاصرى دى سوسير من علماء اللغة وبخاصة أعمال دى كورتنى الذى أرسى دعائم التحليل الفونولوجى ، مقابل التحليل الصوتى المجرد ، كما كون مدرسـة لغوية فى « كازان » Kazan school ويبدو أن دى سوسير استمد من هـذه المدرسة أصول التحليل الفونولوجى الذى يظهر فى محاضراته وأبحاثه ، فقد نشر فى عام ١٨٧٨م بحثا عن نظام الصوائت Nowels فى اللغـات الهندية الاوروبية ، استخدم فيه مصطلح الفونيم ليدل به على العنصر الصوتى Sound element الذى يتميز وينفرد عن بقية العناصر الصـوتية الاخرى فى ذات النظام الفونولوجى بغض النظر عن الطريقة التى ينطق بها ، كما قدم تصورا آخر للفونيم من الناحية النفسية[١١] وكل ذلك يدل على أن فكرة الفونيم كانت متداولة ومطروحة بين علماء اللغة واذا كانت مدرسة كازان ورائدها دى كورتنى صاحب الفضل فى التمهيـد لمدرسة لغوية فونولوجية هى مدرسة براج ، الا أن هناك بعض الرواد الذين توصـلوا أيضـا لفكرة الفـونيم مثل الانجليـزى «هنرى سويت» Henry Sweet (١٨٤٥ م ــ ١٩١٢ م) والفرنسى بول باسى Paul Passy (١٨٥٩ ــ ١٩٣٩) اللذان أشارا الى ضرورة دراسة الخصائص الصوتية للنطق بما لها من صلة بدلالة الكلمات ، ولكن ذلك لم يؤد الى وضع نظرية علمية حول الفونيم رغم أن ملاحظاتهما قد لفتت أنظـار معاصريهم من العلماء فى أوروبا وأمريكا[١٢] .

٢ ــ مدرسة براج Praug School

قامت هذه المدرسـة على المبادىء والاصـول النظرية التى أرسى دعائمها دى سوسير ، كما اتخذت من تصور بدوان دى كورتنى للفونيم

---

(١٠) مونين جورج ، تاريخ علم اللغة ، ترجمة د. بدر الدين قاسم ص ٢٢٦ ، وانظر أيضا : Robins, Op. Cit. pp. 204-205.

(١١) IVIC, milka, Op. Cit p. 133.

(١٢) Ibid, pp. 132-139.

فأقامت نظرية كاملة فى التحليل الفونولوجى ، وهو العمل الذى اضطلع به عالمان من أكبر علماء هذه المدرسة وهما نيكولاى تروبتسكوى N. Trubetzkoy (١٨٩٠م – ١٩٣٨م) ورومان ياكبسون R. Jakobson (ولد ١٨٩٦م) ونتيجة لاعمال هذه المدرسة أخذت البنيوية الوصفية صورة تحليلية دقيقة وواضحة • ومن ثم انطلقت البنيوية الى آفاق غير لغوية ، فلسفية واجتماعية وأدبية ونقدية ، بل وسياسية[١٣] • وقد بدأ تروبتسكوى حياته العلمية بدراسة الاثنولوجيا ، ثم تخصص فى دراسة اللغات الفنلندية وعلم اللغة العام • وقد بدأ أبحاثه من حيث انتهى دى سوسير • فهو يقيم تصوره للفونيم على التفرقة التى وضعها دى سوسير بين اللغة Langue والكلام Parole •حيث ينتمى الفونيم الى مفهوم اللغة بالمعنى الديسوسيرى • أما الاصوات فتنتمى الى الكلام[١٤] • أى بعبارة أخرى أن تروبتسكوى فرق بين علم الاصوات Phonetics وبين الفونولوجيا Phonology • على أساس أن علم الاصوات هو العلم الذى يحلل ويصف أصوات اللغة وهى فى حالة التجريد ، أى مستقلة عن غيرها ومعزولة خارج البنية اللغوية • وبغض النظر عن دورها فى المعنى • أما الفونولوجيا فهو العلم الذى يعالج الظواهر الصوتية بوظيفتها داخل البنية اللغوية • فنحن مثلا اذا قلنا أن النون [ن] صامت مجهور سنى أغن ، فنحن نصف هذه النون باعتبارها وحدة صوتية ، أو صوتا منعزلا غير متصل أو مجاور لغيره من الاصوات • ولكن ثمة درجات أو تنوعات من النون بحسب سياقها الصوتى • فالنون مثلا فى كلمة (نهر) من الناحية الصوتية الخالصة ، أى من حيث تكوينها النطقى والفسيولوجى ، غير النون فى كلمة مثل منك ، وعنك • وقد أدرك علماء العربية القدماء هذا الفرق فسموا النون فى منك وعنك النون الخفيفة • أى أن ما نسميه صوتا واحدا قد يتردد بنفسه أكثر من مرة فى كلمة من الكلمات ، ولكنه ينطق فى كل مرة بصورة

---

(١٣) Piaget, Jean Op. Cit. pp. 3-16.

(١٤) Robins, Op. Cit. pp. 204-205.

مختلفة • فكلمة مثل بطر ، سنجد أن الفتحة الاولى غير الفتحة الثانية من الناحية الصوتية ، وكذلك غير الفتحة الثالثة وثمة اختلافات فردية بين متكلمى أى لغة مردها الى اختلافات عضوية أو عادات نطقية • ولكن ، على الرغم من ذلك فاننا ندرك أن كلمة ما هى نفس الكلمة التى ينطق بها هذا الرجل أو تلك المرأة أو ذاك الطفل • فما الذى يجعلنا نتغاضى عن أمثال هذه التنوعات الفردية الراجعة الى سياق صوتى معين ، فنسوى بين الفتحات الثلاث الواقعة فى كلمة مثل الكلمة السابقة بطر• ونرى فيها شيئا واحدا ؟ • ان هذه الفتحات الثلاث وهى مختلفة من حيث تكوينها، الا أنها متطابقة من حيث الوظيفة اللغوية التى تؤديها • ومعنى هذا أن مصطلح صوت له فى الحقيقة معنيان :

١ ــ معنى تجريدى عام يقصد به النوع لا الافراد ، مثل النون أو الباء أو الفتحة •

٢ ــ معنى خاص يطلق على الصوت الجزئى مع مراعاة صفاته النطقية والسمعية • وذلك مثل صوت النون المختلفة فى كلمات مثل نهر منك ، عنك • ولتفسير ذلك بصورة أدق نقول : ان [ن] صوت واحد بوصفها ليست [ت] أو [ب] مثلا • أى بوصفها ذات وظيفة لغوية اذ هى بهذه الصفة قادرة على تغيير معانى الكلمات أحيانا فنقول ناب ــ تاب حيث نجد أن الفرق فى معنى الكلمتين راجع الى وجود [ن] فى الكلمة الاولى ، و [ت] فى الكلمة الثانية • ومن ثم كان كل منهما صوتا واحدا لا عدة أصوات :

أما أفراد [ن] أو صورها المختلفة ، فلها وظيفة نطقية محضة • أى أنه يمكن تمييزها فى النطق والسمع • ولكن هذه النونات ليست بذات وظيفة لغوية ، وبالتالى لا نستطيع أن نتخذ منها مميزا للكلمات لانها لاتستطيع أن تغير معانى الكلمات باحلال احداهما محل الاخرى • وذلك لسبب بسيط وهو أن النون فى قولنا عنك لا يمكن أن تحل محل النون فى قولنا منك ، ثم يؤدى الى تغير معنى الكلمة • ومعنى هذا أن أفراد النون وصورها المختلفة فى كلمات مثل منك وعنك ونهر ، لا تصلح أن

تتبادل فيما بينها فى الموقع أو البنية • ومن ثم فهى لا تؤدى الى أدنى تغير فى المعنى • وبالتالى لا تصلح أن تكون ، وهى على هذه الصفة مميزا، وانما هذه الصور المختلفة للنون ترجع كلها فى الحقيقة الى أصل واحد أو شيء واحد عام • وبالتالى ، رغم الاختلاف النطقى والسمعى الفردى لها فانه يمكن اعتبارها ، كما لو كانت شيئا واحدا ، وتسمى باسم واحد هو النون [ن] •

ولكن اذا حل صوت آخر محل [ن] هذه ، تغير مدلول البنية الصوتيه الواقع فيها هذا التغير ، وهذا الصوت بهذا المعنى الاخير هو ما أطلقت عليه مدرسة براج مصطلح الفونيم Phoneme [١٥] وحدده تروبتسكوى بقوله انه عبارة عن النماذج الصوتية التى لها قدرة على تمييز الكلمات وأشكالها ، أو الانماط الصوتية المستقلة التى تميز الحدث الكلامى المعين عن غيره من الاصوات الاخرى[١٦] • وبناء على ذلك فان كل فونيم يؤدى وظيفتين :

١ ــ وظيفة ايجابية ، وذلك حين يساعد على تحــديد معنى الكلمة التى تحتوى عليه •

٢ ــ وظيفة سلبية ، وذلك حين يحتفظ بالفرق بين كلمة ما والكلمات الاخرى •

وعلى هذا فان [ن] هى فونيم /ن/ تشترك مع الفونيمات الاخرى فى كلمة مثل نام لتحديد مدلولها ، وهى الوظيفة الايجابية أو الاساسية للفونيم • أما الوظيفة السلبية أو الثــانوية فتتمثل فى حفــظ كلمة نام مختلفة عن كلمات قام ، حام ، صام • وتتضح الوظيفة الاساسية أو

---

(١٥) أنظر : Ivic milka, Op. Cit. pp. 136-137.
وأنظر أيضا : O'connor, Phonetics pp. 66-77.
وبالعربية أنظر : د• السعران ، علم اللغة ص ٢١٢ ــ ٢١٤ • و د• كمــال بشر ، علم اللغة العام (الاصوات) ص وأنظر ايضا كتابنا الكلمة ، دراسة لغوية ، ص ٤٠ ــ ٤٢ •

(١٦) Uramsky, The word as a linguistic unit. p. 30.

الايجابية بصورة أوضح اذا ما حذف الفونيم من كلمة واستبدل به فونيم آخر فيتغير المعنى • فاذا حذفنا مثلا فونيم /ص/ من كلمة صام ، واستبدل به فونيم /ق/ فستصبح الكلمة قام •

الفونيمات اذن كأصوات لها سماتها الخاصة ، وهى قادرة على التمييز بين الكلمات فى معظم اللغات • بل هى قادرة على التمييز من ناحية ترتيبها وموقعها فى بنية الكلمة • ويتضح لنا ذلك فى التقابل بين الكلمتين act و cat فى اللغة الانجليزية • حيث تكونت كلمتان مختلفتان من نفس الفونيمات ولكن بترتيب مختلف • ويشبه هذا الى حد كبير فكرة التقاليب والتباديل فى الاشتقاق الاكبر • فتقاليب مادة ضرب اذا أخذنا فى الحسبان المستعمل والمهمل منها ، ما هى الا تغير فى ترتيب الفونيمات بحيث يؤدى ذلك الى بناء كلمات جديدة ، وهى الفكرة التى بنى عليها الخليل بن أحمد معجم العين(١٧) •

غير أننا لابد أن نلاحظ أنه اذا كان وضع صوت مكان صوت آخر يؤدى الى كلمة جديدة ، أى يميز بين كلمة وأخرى • فان كلا من هذين الصوتين يعتبر فونيما مختلفا ، والا فهما تنوعان لفونيم واحد ، مثل النون فى قولنا عنك ومنك •

وقد فطن علماء العربية القدماء لخطورة الحركات فى التمييز بين الكلمات فجاءت العلامات المعروفة وهى الفتحة والضمة والكسرة للدلالة على فونيمات حين تكون قصيرة ، أما حين تكون هذه الفونيمات طويلة فقد رمزوا لها بحروف أ/و/ى/و/و• ونجد ذلك واضحا حين تفرق الحركات بين اسم الفاعل واسم المفعول من غير الثلاثى ، باعتبار أن كلا منهما كلمة تختلف عن الاخرى مثل مرسل ومرسل ، وقد أورد الثعالبى فى كتابه فقه اللغة نماذج من هذا التفريق بين الكلمات عن طريق الحركات(١٨) •

---

(١٧) مقدمة كتاب العين ص ٦٦ •
وانظر أيضا ابن جنى ، الخصائص ، ١/٥ •

وفى اللغتين الانجليزية والفرنسية يوجد الصوتان (Z) , (S) ولكن على أنهما فونيمان مستقلان ، لانهما يفرقان بين الكلمات • ولكن الصوتين موجودان فى الاسبانية ولكن على أنهما تنوعان لفونيم واحد لانهما لا يميزان بين الكلمات •

وبناء على هذا المفهوم للفونيم ووظيفته اللغوية ، وقيمته فى التحليل اللغوى ، أقامت مدرسة براج نظرية الفونيم • وقد أثبتت الدراسات اللغوية فيما بعد أن هذه النظرية استطاعت على المستوى التطبيقى والعملى أن تحل كثيرا من المشكلات العلمية فى تعلم اللغات كما ساعدت على اكتشاف بعض أخطاء النطق والاتجاه الذى ينبغى أن يسير فيه علاج مثل هذه الاخطاء[١٩] • أما على المستوى النظرى ، فقد كشف التحليل الفونولوجى عن النظام الذى تنطوى عليه وظيفة الصوت داخل النظام اللغوى لاى كلمة • وهى خطوة حددت معنى البنية تحديدا وظيفيا وتجريديا فى آن واحد •

كما استطاعت هذه المدرسة أيضا ، وبخاصة ياكبسون أن تطور الدراسات الفونولوجية ، مضيفا اليها فكرة الملامح المميزة Distinctive Features [٢٠] التى يتداولها الان علماء اللغة ويتوسعون فيها على مستويات التحليل اللغوى المختلفة ، بل على مستوى اللغات المختلفة ويقصد ياكبسون بهذا المصطلح الخصائص الصوتية التى تميز فونيما عن فونيم آخر • ومن ثم أصبح مفهوم الفونيم عنده عبارة عن مجموعة من الملامح المميزة التى تنبع من الخصائص النطقية والسمعية التى تحدد كل صوت من أصوات اللغة مثل موضع النطق وصفته • فتقسيم الصوائت Vowels والصوامت Consonants مثلا ليس مبنيا على أساس فسيولوجى فقط من حيث اندفاع الهواء دون اعتراض مع الصوائت واعتراضه فى موضع معين من جهاز النطق مع الصوامت • وانما مبنى أيضا على اعتبارات سمعية هى الاختلاف فى الملامح المميزة لكل منهما

---

(١٩) Ivic milka, Op. Cit., p. 139.
(٢٠) Ibid, p. 145.

من حيث الوضوح فى السمع ، ومن حيث طول الصوت وارتكازه وتنغيمه. فاذا تساوى صامت وصائت فى الطول والارتكاز والتنغيم ، فسنجد أن الصائت أشد بروزا من الصامت. والصوامت المجهورة أشد بروزا من الصوامت المهموسة. وأصوات اللام والصوامت الانفية المجهورة أشد بروزا من سائر الصوامت المجهورة . أما الصوامت المهموسة فهى تتصف بقدر من البروز يقل كثيرا عن المجهورة ، كما يحتاج نطقها الى قوة فى اخـراج الهواء أو النفس أكبر من تلك التى يتطلبهـا نطق الصوامت المجهورة .

ولعلدقة هذه الملامح المميزة لكل فونيم واحتياجها الى التحديد الدقيق هى ما دعا ياكبسون الى ادخال الاجهزة والآلات ، والاستعانة بهـا فى الدراسة الصوتية مما أدى الى تطور هذه الدراسة فيمايعرف اليوم باسم علم الاصوات التجريبى Experimental Phonetics أو علم الاصوات الآلى Instrumental Phonetics

وبناء على فـكرة المـلامح المميزة هـذه أقام ياكبسـون نظريته الفونولوجية على مبدأ الازدواجيـة أو الثنـائية Binarism وهى تمثل خطوة أصيلة فى الدراسات الفونولوجية ، فالوحـدات الصوتية تحدث وتظهر نتيجة لتقـابلات صوتية معينة ، اذا وجـدت أصبحت الوحدة الصوتية معلمة أو ذات علامة Marked واذا غابت أصبحت غير معلمة Unmarked مثل التقابل بين انتشـار الصوت وكثافته ، أو النغمة العالية أو الهابطة وغير ذلك من الملامح المميزة لكل صوت لغوى . وفكرة العـلامة هذه استفاد منها عـلم اللغة المعـاصر فى مجالات تحليلية ، وخاصة فى علم الدلالة Semantics حين تقسم الكلمات وفـق عناصر دلالية خاصة الى كلمات معلمة وكلمات غير معلمة . كما حاول ياكبسون أيضا تطبيق فكرة الملامح المميزة فى التحليل المورفولوجى الذى يعد من رواده فقد وضع نظاما مورفولوجيا من خـلال دراسته لنظام الفعل فى اللغة الروسية . وقد أقام هـذه الدراسـة على مبدأ الثنائية أيضا . فالمورفيم المعلم ، أيضا هو الذى يتحقق معه ظهور ملمح معين من ملامح المعنى الذى يحدد بدوره نوعه وحدود استعماله فى مقابل المورفيم غير

المعلم Unmarked الذى يتحدد بغياب نفس الملمح الدلالى[٢١] .

ولكن جهوده فى ميدان المورفولوجيا لا تقارن بتلك التى قام بها على المستوى الفونولوجى . ويبدو أن البحث المورفولوجى كان مقدرا له الانتظار ليأخذ حظه من الدراسة على يد مدرسة بلمفيلد ، كما سنرى فيما بعد .

واذا كانت مدرسة براج،وبخاصة تروبتسكوى وياكبسون قد أسهمت على هذا النحو الذى أجملناه فى النظرية اللغوية الحديثة،وبخاصة فى الجانب الفونولوجى منها الا أن البرنامج الذى وضعته مدرسة براج بزعامتها وصدر عام ١٩٢٩ يعد اسهاما من لون جديد يتصل بفلسفة البحث اللغوى أو بأهداف النظرية اللغوية . فقد وجه هذا البرنامج أنظار علماء اللغة الى ميادين من البحث اللغوى لم تظهر آثارها الا فى العقدين السادس والسابع من هذا القرن ونستطيع أن نلخص هذا البرنامج فيما يلى :

١ ــ لابد لعلماء اللغة من دراسة الوظيفة الحقيقية للغة وهى الاتصال ، كيف يتم ، ولمن يوجه ، وفى أى مناسبة ، لان اللغة فى المقام الاول هى نظام للاتصال والتعبير من أجل الرقى بالتفاهم المشترك .

٢ ــ اللغة ظاهرة طبيعية ذات واقع مادى يتصل بعوامل خارجة عنها فى البيئة الاجتماعية بعضها يتصل بالسامع ، وبعضها يتصل بالموضوع الذى يدور حوله الاتصال أو الكلام . ومن ثم فمن الضرورى أن نفرق ، على المستوى النظرى والعملى أيضا ، بين لغة الثقافة بصفة عامة وبين لغة الاعمال الادبية ولغة المجلات العلمية ولغة الصحف ولغة الشارع .

٣ ــ تتصل اللغة بكثير من المظاهر العقلية والنفسية للشخصية الانسانية ، ومن ثم فان البحث اللغوى ينبغى أن يدرس العلاقة بين البنية اللغوية والافكار والعواطف التى توصلها هذه البنية .

---

(٢١) Lions, John, semantics Vol. I pp. 305-311.

٤ ــ تختلف اللغة المنطوقة عن اللغة المكتوبة ، فلكل واحدة منهـا خصائصها المميزة ، ومن ثم فان العلاقة بينهما تحتاج الى دراسة علمية.

٥ ــ الدراسة الوصفية للغة ينبغى أن تكون هدف علماء اللغة الاول لانها تتصل بالحقائق اللغوية الواقعية اتصالا مباشرا ولكن هذا لا يعنى أن نستبعد من البحث اللغوى الدراسة التاريخية وانما ينبغى أن تكون هذه الدراسة فى ضوء الوصفية دائما ، لان كل دراسة وصفية تحمل فى طياتها عملا لم يتم ، واتجاها نحو دراسة وصفية أخرى • فالنظـام اللغوى الكامل لابد أن يكون تاريخيا ، ولكن فى ضوء الوصفية • وعلى الدراسة التـاريخية أن تستبعد من منهجها تفسـير الالفاظ والكلمات المهجورة وتهتم أولا بالنظام اللغوى •

٦ ــ ان البحث الفونولوجى يجب أن يتجه أولا الى دراسة التقابلات الفـونيمية لانها ذات دلالة ومعنى على المستوى المورفـولوجى[٢٢] • • وقد انبثق من هذا البرنامج العديد من المبادىء والافكار التى وجهت الفكر اللغوى الى دراسات لم تظهر آثارها الا فيما بعد • فالمبدأ القائل بأن اللغة تظهر فى مستويات متعددة من الاستعمـال ، قد فتح آفـاقا جديدة فى دراسة علم اللغة الاجتماعى Sociolinguistics وعلم اللغـة النفسى Pchicolingistics ودراسة الاسلوب Stylestics بل لقد بدأ ياكبسون الدراسة الاسلوبية قبل أن يهاجر الى الولايات المتحدة ، ثم واصل هذه الدراسة بعد هجرته • ففى الفصل الذى عقده جوناثان كلر فى كتابه « البوطيقا البنيوية »[٢٣] • يقدم تصور ياكبسون لمفهوم الشعر وطريقة دراسة أسلوبه • وذلك من خلال دراسة ياكبسون لاحدى قصائد بودلير حيث يرى أن البوطيقا هى جزء لا يتجزأ من علم اللغة ، ويعرفها بأنها هى الدراسة اللغوية للوظيفة الشعرية[٢٤] • وبناء على ذلك المفهوم

---

(٢٢) Ivic, Milka, Op. Cit. pp. 142-143.

(٢٣) أنظر عرضا لهذا الكتاب فى مجـلة فصول ، المجلد الاول ، العدد الثانى ١٩٨١ ص ٢٤٦ ــ ٢٥٠ •

(٢٤) المرجع السابق ص ٤٦ •

يركز في تحليله الاسلوبى للقصيدة على التوازى فى بناء الجملة والمجاز فيها • ولكى يحقق ذلك يقسم القصيدة الى مقطوعات حيث يبين فى هذا التقسيم كيف أن التوزيع المتناظر للعناصر النحوية من اسم وفعل وحرف وصفة وغير ذلك ، ينظم المقطوعات على شكل مجموعات متنوعة ، وخاصة المجموعات المكونة من عدد زوجى ، وتلك المكونة أيضا من عدد فردى ، ثم المقطوعات الخارجية والداخلية والسابقة واللاحقة وفى تحليله لاسلوب هذه القصيدة أيضا يشرح توزيع الضمائر الشخصية وتوزيع الصفات تمهيدا لعزل بيت أو عدة أبيات مركزية يرى أن كل قصيدة لابد أن تدور حولها • وهذه الابيات تمتاز عن سائر أبيات القصيدة لان الشعر كالصنع يتطلب مركزا يدور حوله • وهو يستخدم فكرة التقابل فى عزل وتحديد هذه الابيات المركزية • ثم ينتقل ياكبسون بعد ذلك الى القافية من حيث دلالتها على المعنى لان القافية عنده ما هى الا صورة من صور التكرار الفونيمى لا يجوز أن ينظر اليها من زاوية تردد الصوت فقط لانها تتضمن بالضرورة علاقة معنوية بين الوحدات المقفاة • ويرى بشكل عام أنه ينبغى فى دراسة أسلوب الشعر تقويم أى تشابه واضح فى الصوت على ضوء التشابه وعدم التشابه فى المعنى •

ومن الآثار التى ترتبت على هذه المبادىء أو هذا البرنامج ، الذى أذاعته مدرسة براج ، التحديد العلمى للفرق بين الدراسة التاريخية والدراسة الوصفية • حقا لقد أشار دى سوسير الى هذا الفرق ، بل وحدده أيضا ، ولكن مدرسة براج قدمت الدليل العلمى والعملى على صحة هذه التفرقة ومنهجيتها فثبتت من أركانها فالدراسة التاريخية للظواهر اللغوية يجب أن تكون تابعة للدراسة الوصفية للنظام اللغوى المحدد بفترة زمنية معينة • فمعرفة النظام اللغوى يجب أن تسبق معرفة التغيرات التى طرأت عليه • وليس المقصود من ذلك ادانة الدراسة التاريخية للغة ، بل ادانة النظرة الجزئية فى هذه الدراسة بعزلها للبنية اللغوية ودراستها مقطوعة الصلة بغيرها • فالتغير الذى يطرأ على هذا العنصر أو ذاك من عناصر اللغة يظهر أولا من طبيعة هذا العنصر ، وطبيعة العناصر الاخرى المصاحبة له ، والمكونة له • ثم علاقته بالعناصر

الاخرى فى فترة زمنية ، وهذا لا يحدث الا اذا سبقت الدراسة الوصفية الدراسة التاريخية •

كما كانت فكرة التقابلات الفونولوجية ملهمة لكثير من المناهج التحليلية لدراسة الادب وغير الادب • فكثيرا ما يتحدث علماء اللغة والادب عن التناظر والتقابل لا على المستوى الصوتى أو الفونولوجى ، ولكن على مستوى الصيغ والتراكيب النحوية ، وهى أفكار قائمة على أصول التحليل الفونولوجى ، كما نادت به مدرسة براج ، بل لقد أصبحت المفاهيم الفونولوجية من ركائز التحليل البنيوى للغة مهما تعارضت أو اتفقت الاتجاهات والمدارس اللغوية المعاصرة وكأنما نظرية الفونيم قد صيغت من معدن نفيس لا يصدأ أبدا وهكذا أصبح فى أوروبا مع نهاية العقد الثالث من هذا القرن مدرستان هما مدرسة جنيف التى وضع أصولها وأسسها دى سوسير ، ومدرسة براج التى أخذت أصول دى سوسير وطورتها بزعامة تروبتسكوى وياكبسون • ولكن ثمة مدرسة لغوية أوروبية ثالثة لم تحظ بالشهرة التى حظيت بها مدرستا جنيف وبراج ، وهى :

٣ ــ مدرسة كوبنهاجن :

وهى مدرسة أسسها العالم اللغوى الدنماركى هلمسليف Hielmslev بالاشتراك مع كل من برندال Brondall و أولدال Uldall • ومن أشهر علمائها أيضا أوتو يسبرسن Otto Jesperson [٢٥] وهى مدرسة بنيوية فى أصولها ، ولكن شهرتها تعود الى هلمسليف الذى وضع فى عام ١٩٣٤م نظرية لغوية أطلق عليها اسم الجلوسيماطيقا Glossematics وهو اسم مشتق من اللفظ اليونانى Gloss بمعنى اللسان أو اللغة[٢٦] • وقد أقام

---

(٢٥) وهو صاحب كتاب : اللغة بين الفرد والمجتمع الذى ترجمه د• عبد الرحمن أيوب • وقد أشار الى هذه الترجمة وعلق عليها أستاذنا المرجوم الدكتور محمود السعران • أنظر «اللغة والمجتمع» ص ١٦ •

(٢٦) Ivic Milka Dp. Cit. p. 178.

هلمسليف نظريته تلك على أصول رياضية صورية احتاج فى التعبير عنها لمصطلحات جديدة وغريبة كانت سببا فى الحد من انتشار هذه النظرية ، ولكن بعد الحرب العالمية الثانية استقرت المفاهيم والمصطلحات الخاصة بها وأصبحت أكثر شهرة بين علماء اللغة خارج الدنمارك • غير أن نسبة هذه النظرية الى هلمسليف ومدرسة كوبنهاجن لا يجعل منها نظرية دنماركية خالصة ، وانما هى نظرية ذات وشائج قوية بتعاليم دى سوسير من ناحية ، ومدرسة براج من ناحية أخرى • وكان هلمسليف يعتبر دى سوسير رائد الحركة اللغوية الحديثة بلا منازع • ومن ثم انطلق من أصلين استمدهما من دى سوسير وهما :

١ — أن اللغة ليست مادة Substance وانما هى صورة أو شكل Form

٢ — أن جميع اللغات تشترك فى كونها تعبيرا Expression ثم محتوى Content (٢٧).

غير أن بنية اللغة عند هلمسليف هى عبارة عن نظام أو شكل فريد قائم بذاته ولذلك فهى تتطلب أدوات خاصة لتحليلها • ومن ثم فان عالم اللغة لابد له من وضع نظرية صورية تصدق على جميع اللغات وتكون بمثابة علم الجبر فى الرياضيات • ومعنى هذا أن مهمة عالم اللغة عند هلمسليف تنصب على الصورة أو الشكل • اذ هو مناط الخلاف بين اللغات فى حين أن الدلالات أو المعانى هى أمر مشترك بينها •

وقد ترتب على هذا الفهم لطبيعة اللغة عند هلمسليف أن جعل دراسة العلاقات بين وحدات اللغة تأتى فى المرتبة الاولى قبل دراسة هذه الوحدات فى ذاتها • اذ أن كل وحدة من وحدات اللغة ، مهما صغرت ، لا يمكن معرفة طبيعتها الا فى وجود الوحدات الاخرى • وبالنظر فى طبيعة العلاقة بينهما • أى بعبارة أخرى ، أن كل عنصر من عناصر اللغة

---

(٢٧) Ibid, p. 178.
وانظر أيضا Todorov, Ency. Dict. of sciences of lang. p. 20.

المنطوقة أو المكتوبة لايزيد على كونه نقطة فى شبكة من العلاقات ، فمثلا نحن نعرف أن الفرق بين الصامت Consonant والصائت Vowel يكمن فى أن الصائت قد يقوم بنفسه فى مقطع من المقاطع ، بينما الصامت لا يمكن أن يقوم بنفسه فى بعض اللغات وفى بعض اللغات الاخرى قد نجد أن الصفة تتبع الموصوف فى الاعراب والافراد والجمع والتذكير والتأنيث وغير ذلك • ولكن الجلوسيماطيقا لا تكتفى بمثل هذه الظواهر التى تتصل بوحدة معينة أو بعنصر معين وانما حاولت أن تبحث عن القانون العام الذى يحكم مثل هذه الظواهر ومن ثم أعادت صياغة الاحكام والقوانين اللغوية بصورة جديدة فبدلا من أن تقول ان حرف الجر مثلا يختص بالاسماء تقول ، ان ظهور حرف الجر فى جملة ما لابد أن يصاحبه ظهور الاسم • وبدلا من أن تقول ان الصفة تتبع الموصوف تقول ان ظهور الصفة تؤدى الى ظهور الموصوف • وأن ظهور أى صامت فى مقطع ما لابد معه من ظهور الصائت • ومعنى هذا أن ظهور أى عنصر لغوى يحكمه ظهور عنصر لغوى آخر •

وهذه الامثلة ما هى الا تبسيط لافكار وأصول هذه النظرية التى لا تقف عند هذه الحدود ، وانما تتجاوزها الى صياغة رياضية صورية فنقول مثلا ان ظهور العنصر (س) فى تركيب ما يؤدى الى ظهور العنصر (ص) أو أن ظهور العنصر (ص) فى تركيب ما يؤدى الى ظهور العنصر (س) فى التركيب نفسه • ومعنى هذا أن هذه النظرية تتعامل مع عدد من العلاقات القائمة على عدد من العناصر اللغوية التى ينبغى التعبير عنها رياضيا أو صوريا • ويترتب على ذلك أن أى عنصر لغوى مثل الاسم أو الحرف أو الصائت أو الصامت لا يمكن تحديده أو تعريفه الا فى وجود العنصر الاخر أو العناصر الاخرى • فهذه العناصر ليست قابلة للتحليل اللغوى لانها مستقلة وانما هى قابلة للتحليل من حيث هى عناصر ذات علاقات محددة مع عناصر أخرى داخل بنية معينة فى لغة معينة •

والمتأمل فى نظرية هلمسليف اللغوية يلاحظ أنها محاولة لانشاء أو اقامة بناء منطقى رياضى للغة يستند الى جهاز كامل من المصطلحات

والتعريفات • صحيح أن هذه النظرية تنطلق من فكرة دى سوسير فى العلاقة اللغـوية ، كما تتحدث عن التعبـير والمحتـوى بدلا من الدال والمدلول ، ولكنها تمزج بين عـلم اللغة وعـلم المنطق الرياضى بصورة تجريدية لان هلمسليف يقرر أن البنية اللغوية ما هى الا كيان صـورى مستقل يتمثل فى مجموعة من العلاقات الداخلية • ومن هنا فان بنيوية هلمسليف تأخذ شكلا ثابتا لا متغيرا ، فهو يعطى أهمية كبرى للعـلاقات الثابتة أكثر من التغيرات أو التحولات التى تطرأ على اللغة(٢٨) •

واذا كان بعض علماء اللغة يرون أن اللغة ما هى الا تحليل خـاص للواقع بحيث أن أى وصف لاى لغة من اللغات انما هو فى الحقيقة وصف لطريقة خاصة فى تنظيم العالم • الا أن هلمسليف على العكس من ذلك يؤكد أنه اذا كان من شأن اللغة أن تشيع ضربا من النظام فى الاشياء فان ذلك يرجع الى أنها تسقط نظامها الخاص على الاشياء(٢٩) • وعلى الرغم من الدقة الرياضية البالغة التى اتسمت بها معظم التحليلات اللغـوية فى هذه النظرية ، الا أنها لم تقدم الا عددا ضئيلا من التطبيقات اللغوية ، فضلا عن أنها ــ كما لاحظ كثير من مؤرخى الفكر اللغوى الحديث ــ لم تتجاوز مرحلة التصنيف للعناصر اللغوية ومن ثم فقد بقيت هذه النظرية مجرد وجهة نظر بنيوية تصنيفية •

٤ ــ مدرسة بلومفيلد

اذا تركنا أوروبا وعبرنا الاطلنطى الى الولايات المتحدة الامريكية قبل أن يرحل اليها ياكبسون حاملا معه مبادىء وأصول الفكر اللغـوى الاوروبى ممثلا فى مدرستى جنيف وبراج ، فسنجد أن البنيوية الوصفية فى أمريكا قد بدأت بصورة مختلفة عن تلك التى بدأت بها فى أوروبا • ومن ثم تميزت بمبادىء وأفكار تختلف عن تلك التى عرفتها أوروبا ولكنها

---

(٢٨) Ivic milka Op. Cit. p.
وانظر أيضا د• زكريا ابراهيم ، مشكلة البنية ، ص ٦٨ •
(٢٩) د• زكريا ابراهيم ، المرجع السابق ، نفس الصفحة •

تلتقى معها فى أن اللغة بنية وأن هذه البنية لكى تدرس لابد أن تحل الى مكوناتها • ولكن الحقيقة أن البحث اللغوى فى أمريكا لم يكن منبت الصلة تماما عن أوروبا • فالرواد الاوائل لعلم اللغة الامريكى مثل فرانز بواز F. Boas (١٨٥٨م ــ ١٩٤٨م) وادوارد ردسابير E. Sapir (١٨٨٤م ــ ١٩٣٣م) وليونارد بلومفيلد L. Bloomfield (١٨٨٧م ــ ١٩٤٩) كانوا على صلة بصورة أو بأخرى بالتراث الاوروبى فى دراسة اللغة ، وبخاصة المدرسة التاريخية فى القرن التاسع عشر وذلك عن طريق العالم الامريكى وتنى Whitney (١٨٢٧م ــ ١٨٩٤م) الــذى كان متأثرا بالاتجــاه التاريخى فى أوروبا ، وقد أشار اليه دى سوسير كما ذكرنا من قبل فضلا عن أن «بواز» و «سابير» قد ولدا فى أوروبا أما «بلومفيلد» فقد درس قواعــد علم اللغة التــاريخى التى وضعتهــا مدرسة النحاة الجــدد Neogrammarian [٣٠] وقد أشار الى دى سوسير والى المنهج الوصفى الذى أذاعه فى المقدمة التاريخية لكتابه اللغة[٣١] والتى تتبع فيها تاريخ الفكر اللغوى عن الهنود واليونان والرومان والعرب والعصور الوسطى، ثم العصر الحديث فى أوروبا حتى دى سوسير[٣٢] •

غير أن الذى يعطى طابعا مميزا لعلم اللغــة الامريكى أنه بدأ وفق تقاليد وأصول علمية أملتها طبيعة اللغات التى وجدوها فى القارة الجديدة وهى لغات لم تكن معروفة وليست مكتوبة ، ومن ثم لم يكن النمــوذج التاريخى الذى طبق على اللغات الهندية الاوروبية كافيا لتفسيرها ، بل ربما أدى الى نتائج غير صحيحة • وبالتالى لم يكن أمامهم الا تطبيق المنهج الوصفى •

وكانت البداية الحقيقية لعــلم اللغة الامريكى على يد فرانز بواز الذى أدرك أنه يتعامل مع لغات تختلف فى تركيبها عن اللغــات الهندية

---

(٣٠) Bloomfield, language. p. 16.
وانظر أيضا : Robins Op. Cit. p. 207.
(٣١) Bloomfield, Op. Cit. p. 19.
(٣٢) Ibid pp. 3-19.

الاوروبية التى درس قواعدها وفق المنهج التاريخى • ومن ثم نحى هذا المنهج جانبا ووضع لنفسه مبدأ جديدا ، وهـو أن كل لغـة لها منطقها التركيبى الخاص بها • وأن منهج التحليل المناسب تفرضه طبيعة المادة اللغوية نفسها • وقد التزم بهذا المبدأ وقام بدراسة وصفية لعـدد من اللغات الهندية الامريكية وجمعها فى كتاب أطلق عليه اسم دليل اللغات الهنـدية الامريـكية (١٩١١) Handbook of the American-Indian language ويعد هـذا الكتاب دستور البحث اللغـوى الامريكى الذى ضم مبادىء الوصف اللغوى الدقيق لتسع عشرة لغة من اللغات الامريكية الهندية ، ومازالتمقدمة هذا الكتاب تعد من المقدمات الممتازة فى عـلم اللغة،فضلا عن أن اشارات بواز الى علم النفس وعلم الاجتماع ودورهما فى معرفة وفهم الظواهر اللغوية • وقد كان هـذا الكتاب مناط اهتمام علماء اللغة الامريكيين جميعا • ولعل ذلك ما دعا بلومفيلد الى وصف بواز بأنه المعلم الاول لعلماء اللغة فى أمريكا(٣٣) •

أما ادوارد سابير فهو رائد البنيوية الامريكية ومعلم أجيال من علماء اللغة الامريكيين وتلميذ من تلامذة بواز• وكان واسع الثقافة له اهتمامات علمية كثيرة ومتنوعة ، ويبدو أنه قد بدأ دراسته للغة بعيدا عن أفكار دى سوسـير ، ولـكن فكرة النمـاذج اللغـوية Linguistic patterns التى نادى بها(٣٤) لاتبعد كثيرا عن التفرقة التى وضعها دى سوسير بين اللغة والكلام • ويقصد سابير بالنماذج اللغوية أن كل انسان يحمل فى داخله الملامح الاساسية لنظام لغته ، أى أن جميع النماذج الفعلية التى تقدمها اللغة لتأكيد عملية الاتصال ، هى نماذج ثابتة ، وهى الخليقـة بالدراسة لانهـا الاهم والاكثر حيـوية فى حياة اللغـة • وذلك مقابل الاستخدام الفعلى للغة المتمثل فى المادة اللغوية المنطوقة •

وقد ظهرت أصداء لتلك الفكرة عند تشومسكى فيما بعد ، فيما أطلق

---

(٣٣) Ivic milka, Op. Cit. p. 153.
(٣٤) Sapir, Language p. 16.

عليه القدرة اللغوية Competence فى مقابل الاداء اللغوى Performance غير أن سابير بحكم ثقافته أرجع معرفة وفهم هذه النماذج الى الحياة الثقافية والاجتماعية وهو يستعمل مصطلح ثقافة بالمعنى الشامل ليدل به على مجموعة التصورات والمفاهيم والعادات والسلوك التى يتألف منها تصور شعب من الشعوب عن العالم الذى يحيط به . ولذلك فان اللغة عنده هى جزء أساسى من هذه الثقافة ، بل هى احدى مكوناتها فهى وسيلة الاتصال الانسانية غير الغريزية للتعبير عن العواطف والافكار والرغبات وفق نظام من الاصوات الانسانية الاعتباطية(٣٥) .

فالعلاقة بين اللغة والثقافة عند سابير علاقة فاعلة ومتفاعلة وقد أدى تصوره هذا للعلاقة بين اللغة والمجتمع الى تطور الابحاث الانثروبولوجية وعلاقتها باللغة . وقد كان لسابير تصور للفونيم يختلف عن ذلك التصور الذى وضعته مدرسة براج ، فهو يرى أن الفونيم ماهو الا وحدة نفسية معقدة لها ارتباطات متعددة بعضها يتصل بالصوت اللغوى النموذجى وبعضها يتصل بالصوت اللغوى الفعلى الذى هو محاكاة لهذا النموذج النفسى(٣٦) .

ولكى يتعرف على طبيعة الفونيم يرى سابير أن المعيار التوزيعى Dist ibutional هو المعيار الحاسم الذى يمكننا من التعرف على الفونيم، وهو يقصد بالمعيار التوزيعى المواضع التى يظهر فيها فونيم معين مع الفونيمات الاخرى التى تشترك معه فى نظام لغوى واحد وسرعان ماأصبحت فكرة التوزيع هذه أصلا من أصول علم اللغة الامريكى وبصورة عامة فان اسهام «سابير» فى تطور علم اللغة فى أمريكا يظهر بوضوح فى كشفه عن آفاق جديدة من دراسة اللغة بما لها من صلة بالثقافة والحياة الاجتماعية .

---

(٣٥) Ibid p. 8.
وانظر ايضا شرح وتعليق أستاذنا د. حسن ظاظا على تصور سابير للغة وتعريفه لها فى اللسان والانسان ص ٢٨ وما بعدها .

(٣٦) Sapir, Op. Cit. p. 55.

أما «بلومفيلد» فقد استطاع أن يكون مدرسة لغوية واضحة ومستقلة هى المدرسة السلوكية أو مدرسة ييل Yale school وهو اسم الجامعة التى كان يعمل بها استاذا ، وقد تلقى بلومفيلد دراسته اللغوية وفق المنهج اللغوى التقليدى وركز أبحاثه حول علم اللغة التاريخى ولكنه ظل مخلصا لثقافته اللغوية أكثر من سابير ، فهو لغوى ينصب اهتمامه على مجال محصور ومحدد هو اللغة ، بعكس «سابير» الذى حلق فى آفاق أنثروبولوجية ونفسية وثقافية ولذلك فان أصول البحث اللغوى عند بلومفيلد أكثر وضوحا وأبقى أثرا فى تاريخ الفكر اللغوى الامريكى ، كما كان على اتصال بعلم اللغة فى أوروبا يتابع تطوراته عن كثب .

وقد التزم بلومفيلد بالمنهج البنيوى الوصفى ولكن بطريقة خاصه أصبحت علما عليه وعلى مدرسته ، ولعل اتصاله بعالم النفس السلوكى « فايس » Weiss كان له أكبر الاثر فى توجيه نظريته اللغوية وفق تعاليم ومبادىء المذهب السلوكى Behaviourism وهو مذهب يرى أن اختلاف الناس يرجع الى اختلاف البيئة التى يعيشون فيها وأن سلوكهم رهن بهذه البيئة ، لأن جميع أشكال السلوك الانسانى وصوره انما هى رد فعل لهذه البيئة ، بمعنى أنها استجابة لمثير خارجى هو البيئة التى يعيش فيها الانسان ، وبناء على ذلك فان علم النفس ينبغى أن يهتم أولا بفحص ودراسة السلوك الانسانى .

ويشرح واطسون Wattson وهو المؤسس الحقيقى لعلم النفس السلوكى مفهوم السلوكيين لعلم النفس فيقول انه شعبة تجريبية موضوعية خالصة من العلم الطبيعى ، وهدفه النظرى التنبؤ بالسلوك وضبطه وليس الاستبطان جزءا أساسيا من مناهجه لاننا لا نستخدم ألفاظا ومصطلحات مثل الشعور والحالات العقلية والذهن والمضمون والارادة وما أشبه ذلك ، وانما كل هذا يمكن أن تؤديه ألفاظ المنبه والاستجابة(٣٧) .

---

(٣٧) ودورث ، روبرت ، مدارس علم النفس المعاصرة ، ترجمة كمال دسوقى ص ١٠٤ .

أما بول فايس Paul Weiss وهو صاحب كتاب : الاسس النظرية للسلوك الانسانى : Theoretical Baiss of Human Behoviour وهو الكتاب الذى تأثر به بلومفيلد وأقام عليه فهمه للغة ودراستها فانه يرى أن علم النفس هو علم بيولوجى اجتماعى Biosocial لان سلوك أى فرد ما يفعل فعل المنبه فى اثارة سلوك فرد آخر وارتقاء الفرد يهيمن عليه الى حد كبير الموقف الاجتماعى الذى يوجد فيه ومن ثم فان السلوك الانسانى سلوك اجتماعى وفى الوقت نفسه فان كل سلوك هو نشاط بيولوجى ، فالانسان حين يصبح اجتماعيا لن يصبح أقل بيولوجية وكل عملياته بيولوجية كما لو كان حيوانا منعزلا•و معنى هذا كما يقول فان ميدان علم النفس هو دراسة العمليات البيواجتماعية(٣٨)•واللغة عند بلومفيلد هى قمة العمليات البيواجتماعية،بل هى المسؤولة عن تنظيم المجتمع الانسانى(٣٩) كله ولكى يوضح بلومفيلد مقولته هذه فى اللغة ومن ثم يحدد موضوع علم اللغة عنده يأتى بمثاله المشهور المعروف عن جاك وجيل والتفاحة(٤٠) حيث نرى جاك وجيل يسيران فى الطريق وجيل تشعر بالجوع ثم ترى التفاح على الشجرة فتحدث أصواتا (ضجة Noises) بحنجرتها ولسانها وشفتيها فيقفز جاك فوق السور ويتسلق الشجرة ويقطف تفاحة ويحضرها الى جيل فتأكلها •

ويرى بلومفيلد أن هذه الاحداث المتتابعة تصلح لان تكون موضوعا للدراسة من جوانب مختلفة ، ولكن الذى يدرس اللغة خاصة يستطيع أن يميز الحدث الكلامى Act of speech عن سواه من الوقائع التى تسمى الاحداث العملية Practical events ومعنى هذا اننا اذا نظرنا الى هذه القصة من وجهة النظر اللغوية وجدناها تتكون من ثلاثة مراحل طبقا لزمن وقوع أحداثها وهذه المراحل هى :

١ ــ أحداث عملية سابقة على الحدث الكلامى •

---

(٣٨) المرجع السابق ص ١٣٦ •

(٣٩) Bloomfield, Op. Cit. p. 24.

(٤٠) Ibid pp. 22-27.

٣ ـ أحداث عملية لاحقة للحدث الكلامى .

فاذا بدأنا بالاحداث العملية التى تسبق الكلام وجدناها تتصل الفتاة «جيل» التى كانت جائعة ، ومعنى الجوع عند بلومفيلد يفهم من أحداث فسيولوجية مثل تقلص عضلات البطن وتدفق السائل المعوى وغير ذلك ، وعندما رأت التفاحة فان الرؤيا عنده عبارة عن سقوط شعاع من ضوء الشمس ينعكس من التفاحة الى عينيها فتكلمت مع « جاك » الذى لابد أن تكون لها به علاقة سابقة أخوها أو زوجها أو صديقها وهى علاقة ذات أثر فى الحدث الكلامى وكل هذه الاحداث التى تسبق كلام «جيل» يطلق عليها بلومفيلد مثير المتكلم Speaker's stimulus أما الاحداث العملية التى تلى كلام «جيل» فهى تتصل بالسامع «جاك» وهى احضاره للتفاحة واعطاؤها لجيل وهذه الاحداث يطلق عليها بلومفيلد استجابة السامع Hearer's response (٤١) . أما الكلام وهو المرحلة الثانية من مراحل هذه القصة وهو مناط اهتمام عالم اللغة فهو محصلة لظواهر فسيولوجية وفيزيائية ومن ثم لابد من الاستعانة بالعلوم الطبيعية فى دراسة الكلام لان جهاز النطق فى هذا الحدث يقوم بحركات فسيولوجية معينة لكى يصدر أصواتا وهى استجابة Response (R) لمثير معين Stimulus (S) ، فاذا كانت جيل وحيدة فان رد الفعل أو الاستجابة ستختلف فاما أن تتسلق الشجرة وتحضر التفاحة فتأكلها واما أن تبقى جائعة وهى فى هذا تشبه الحيوان الجائع الذى يشم رائحة الطعام فيسعى للحصول عليه ووجه الشبه أن حالة الجوع عند جيل والحيوان ورؤية التفاحة وشم الطعام كلها عبارة عن مثيرات مختلفة ومعنى هذا أن الاستجابة عند الانسان والحيوان واحدة وهى محاولة الحصول على الطعام أى أن كل مثير لابد له من استجابة وذلك على النحو التالى :

(S) → (R)

---

(٤١) Ibid p. 23.

ولكن فى حالة جيل أدى المثير (S) الى حدث آخر وهو الكلام أى أن الكلام حل محل العمل وهو الحصول على التفاحة ومن ثم فهو استجابة بديلة (R) وفى ذات الوقت تحولت هذه الاستجابة البديلة الى مثير (S) بالنسبة لجاك كان له استجابة وهى احضار التفاحة لجيل (R) وذلك على النحو التالى :

(٤٢) R ⟵ s ....,... r ⟵ S

ومعنى هذا أن اللغة عند بلومفيلد وأتباعه من السلوكيين ليست الا نوعا من الاستجابات الصوتية لحدث معين • فالانسان يسمع جملة معينة، أو يرى شيئا ، أو يشعر بشعور فيتولد عن ذلك استجابة كلامية ، دون أن ترتبط هذه الاستجابة بأى صورة من صور التفكير العقلى• والانسان فى هذا يشبه الحيوان أو الآلة • ولذلك رفض بلومفيلد تلك المفاهيم والمصطلحات العقلية التى رأى سابير أنها ذات صلة وثيقة باللغة،وتفسر جوانب هامة منها • وقد رفض تشومسكى كل هذا الذى جاء به بلومفيلد ونادى بالاصول العقلية التى نادى بها سابير ومن قبله ديكارت • وبناء على هذا الفهم لطبيعة اللغة ووظيفتها عند بلومفيلد ، شاع فى تاريخ الفكر اللغوى أن هذه المدرسة رفضت دراسة المعنى وركزت فى دراستها اللغوية على الجانب المادى الطبيعى ، وهو الصوت والبنية التى يتحقق فيها توزيع الاصوات على شكل فونيمات ومورفيمات • لان ذلك يمثل المادة المناسبة للبحث الموضوعى المضبوط ، دون المعنى الذى قد يفتح مجالات للاحكام الذاتية الانطباعية(٤٣) •

والواقع أن بلومفيلد لم يرفض دراسة المعنى ، بل لقد أشار الى أهمية العلاقة بين الصوت والمعنى • وانما كان اهتمامه موجها الى الكشف

---

(٤٢) Bloomfield, Op. Cit. p. 26.
حيث يمثل حرف (S) الكبير المثير الاصلى وحرف (R) الكبير الاستجابة الاصلية أيضا بينما تمثل (s) الصغيرة المثير البديل و (r) الصغير الاستجابة البديلة •

(٤٣) Ibid. p. 27, 74.

عن القوانين العامة التى تحكم السلوك اللغوى والتى قد تؤدى الى الكشف عن القوانين التى تحكم النفس البشرية • ومن ثم كان مقتنعا بأن اقحام الجانب الدلالى قد يعوق الوصول الى هذه القوانين ، ولذلك رأى أنه لكى نعرف المعنى معرفة دقيقة ، لابد أن نكون على علم دقيق بكل شىء فى عالم المتكلم • والمعرفة الانسانية لم تصل بعد الى هذه الدرجة[٤٤] •

وبذلك أصبح بلومفيلد نبى الدعوة الى نبذ العقلانية فى علم اللغة واحلال المذهب الشكلى الآلى ، الذى به تتحقق الموضوعية أو بعبارة أخرى ، الاستعاضة عن التعريفات العقلية للعناصر اللغوية التى كان يدور حولها الفكر اللغوى التقليدى بدراسة سلوك هذه العناصر داخل البنية اللغوية من خلال المواضع والمواقع التى تحتلها فى الكلام • فهذه الوحدات هى وحدات محدودة ولكنها ذات قدرات توزيعية غير محدودة• ومن ثم أصبحت التوزيعية Distributionalism هى المنهج الذى اعتمد عليه بلومفيلد فى وصف ودراسة اللغة • وقامت عليه مدرسة «ييل» اللغوية[٤٥] •

وتقوم التوزيعية على فكرة الابدال والاحلال Substituation حيث تستبدل وحدة لغوية محل وحدة لغوية أخرى فى بيئة لغوية أكبر مثل فونيم فى كلمة أو كلمة فى جملة[٤٦] • مثال ذلك استبدال الفونيم /ق/ فى كلمة قام بفونيم النون /ن/ فى كلمة نام ، واحلال كلمة رجل محل كلمة فرس فى جملة مثل : رأيت فرسا • ومعنى هذا أن الفونيمين /ق/ ، /ن/ ينتميان الى طبقة لغوية واحدة وهى الفونيم • ومثل ذلك أيضا تنتمى كلمتا رجل وفرس الى طبقة الاسماء •

وتحاول التوزيعية بهذا الاسلوب الخلاص من التعريفات التقليدية التى اعتمدت فى تحديد أقسام الكلام على المعيار الدلالى أو الفلسفى أو

---

(٤٤) Ibid. pp. 84-85, 140.
(٤٥) Ivic milka Op. Cit., p. 158.
(٤٦) Hartmann & stork. Op. Cit. p. 225.

العقلى ، كأن نقول مثلا ، كما قال نحاة العربية القدماء • ان الاسم هو الكلمة الدالة على معنى فى نفسها غير مقترنة وان اقترنت بزمان فهى الفعل ، وان لم تدل على معنى فى نفسها بل فى غيرها فهى الحرف(٤٧) •

وواضح أن هذه الحدود أو التعريفات لاقسام الكلام فى العربية ، ما هى الا تعريفات عقلية ، فهناك كلمات لا ينطبق عليها تعريف الاسم ولكنها تعامل معاملة الاسم مثل : كيف وأين وعند وحيث ، وأسماء الاشارة ، والاسماء الموصولة ، والضمائر • وهناك أيضا كلمات لاينطبق عليها تعريف الفعل ، ولكنها تعامل معاملة الفعل ، مثل : اسم الفاعل واسم المفعول والمصدر ، وغير ذلك ، وكذلك الحرف الذى اختلف النحاة فى تعريفه ، وبالتالى فيما يدخل تحت هذا المصطلح ، وما لايدخل •

ومع ذلك فاننا نجد أن المبدأ التوزيعى متحقق فى صنيع علماء اللغة العربية القدماء وفى تحديد أقسام الكلام • فأسماء الاشارة والاسماء الموصولة والضمائر ألحقت بالاسماء لانها تحل محلها وتوزع فى المواضع التى تظهر فيها الاسماء • كما نجد هذا المبدأ متحققا بصورة أخرى عن طريق التوزيع المتلازم بعناصر لغوية معينة ، وهو ما أجمله ابن مالك فى ألفيته حين قال :

بالجر والتنوين والندا و الـ ... ومسند للاسم تمييز حصل
بتا فعلت وأتت ويا افعلى ... ونون اقبلن فعل ينجلى
سواهما الحرف كهل وفى ولم ... فعل مضارع يلى لم كيشم
وماضى الافعال بالتامز وسم ... بالنون فعل الامر ان أمر فهم(٤٨)

حيث نجد أن النحاة قد لاحظوا نوعا من التلازم فى التوزيع وحلول بعض الادوات قبل الاسماء مثل حروف الجر وأدوات النداء ، ودخول الالف واللام ، وهى قرائن لفظية ، والاسناد ، وهو قرينة معنوية لتدل على أن كل من يقبل ذلك يصح انتماؤه الى طبقة الاسماء ومثل ذلك أيضا

---

(٤٧) راجع شرح ابن عقيل على الالفية ١٥/١ •
(٤٨) ابن مالك ، متن الالفية ، ص ٩ – ١٠ •

فى الحروف والافعال ، وكل هذه قيم توزيعية واضحة وكلها أيضا علامات تدخل تحت مفهوم المورفيم Morpheme كما تصوره البنيويون ، سواء كان حرا أم مقيدا • ولذلك حرصت التوزيعية على تحديد مفهوم المورفيم كعنصر لغوى له أهمية واضحة فى سلوك الوحدات اللغوية ، ولكى تحل أيضا مشكلة تعقد الوحدات اللغـوية فى مستوياتها المختلفة مثل الكلمة والجمـلة •

فالمورفيم عند بلومفيلد ــ اذا تجاهلنا المعنى ــ هو عبارة عن فونيم أو مجموعة من الفونيمات داخل بنية معينة(٤٩) • على أساس أن الفونيم الواحد فى اللغة الانجليزية قـد يشكل وحـدة مستقلة كما فى جمع كلمة Girls حيث نجد أن فونيم / (S) / هو مورفيم يدل على الجمع • أما فى اللغة العربية فلا يوجـد مورفيم أقل من فونيمين وذلك اذا استثنينا حركات الاعراب • فحرف الجر (الباء) مثلا هو عبارة عن مورفيم يتألف من فونيمين هما الباء وحركتها • ومثل ذلك فى واو العطف • ولكن عند اعتبار المعنى يختلف تعريف المورفيم عند بلومفيلد ، فهو عبارة عن أصغر وحدة لغوية تحمل معنى أو وظيفة نحوية • وهو ينقسم الى مورفيم حـر Free morpheme ومورفيم مقيد Bound morpheme (٥٠)•

وفكرة المورفيم هى فكرة توزيعية قائمة على تحديد العناصر اللغوية طبقا لوظائفها النحوية والصرفية والدلالية •

ففى اللغة العربية مثـلا نستطيع أن ندرك من قولنـا : ضرب ــ ضربت ــ يضرب ــ يضربون ــ أضرب ــ اضربى ــ ضارب ــ ضاربة ضاربون ــ ضوارب ــ ضاربات ••• الخ نستطيع أن ندرك أن هـذه الكلمات متصلة بعنصر مشترك بينها جميعا هو الجذر (ض ــ ر ــ ب) كما نستطيع أن نميز عناصر أخرى تحدد اذا ما كانت الكلمة اسـما أو فعلا • وكذلك الطبقة اللغوية التى تنتمى اليها من حيث النوع ، مذكر أو

---

(٤٩) Bloomfield Op. Cit. p. 167.

(٥٠) Ibid, pp. 160-164.

مؤنث ، أو من حيث العدد ، مفرد أو مثنى أو جمع • ومن حيث الشخص، متكلم أو مخاطب أو غائب • وهذه العناصر عبارة عن مورفيمات فالمورفيم الذى يحدد أن ضرب مسند الى المتكلم هو المقطع [ت] وفى بضرب نجد المورفيم عبارة عن مقطع أيضا يقع فى أول الكلمة ، أى ، سابقة Prifex [ى] وهو يحدد أيضا أن الفعل مسند الى المفرد الغائب ، كما يدل على زمن وقوع الفعل فى الحال أو الاستقبال • وذلك فى مقابل نضرب أو أضرب ، أو تضرب • كما نجد فى كلمة يضربون المورفيم [و ن] أن الضرب واقع من جماعة الذكور ، وهو لاحقة Suffex كما أن النون مورفيم دال على علاقة هذا الفعل بغيره من العناصر الداخلة فى التركيب ، والواو هى مورفيم آخر يدل على الفاعلين •

أما بالنسبة للاسماء فسنجد أنها أيضا تتكون من الجذر نفسه ، حيث نشتق أسماء تحدد اسميتها مورفيمات معينة • ففى كلمة ضارب نجد أن الالف وكسرة الراء مورفيم يتكون منه اسم الفاعل من الثلاثى • أما التنوين فهو عنصر صوتى يلحق آخر الاسم ليدل على التفكير فى مقابل الضارب الذى يدل المورفيم [ال] على أنه معرفة • أما ضاربة فتحتوى على مورفيمين هما فتحة الباء والمقطع تن • كما أن ضارب وضاربة من حيث العدد هما مفرد يقابلهما ضاربان وضاربتان بزيادة مورفيمين [ا ن] و [تا ن] • ويقابل هذا ضاربون وضاربات بزيادة واو ونون فى الاول وألف وتاء فى الثانى(٥١) •

ومثل ذلك نجده فى اللغات الاخرى ، سواء أكانت معربة مثل العربية واللاتينية ، أو غير معربة كالانجليزية • وقد عرض بلومفيلد لهاتين اللغتين وغيرهما من اللغات الاخرى • وأثبت خضوعها جميعا لهذا التحليل المورفولوجى •

وقد ترتب على هذا المفهوم لطبيعة المورفيم وأشكاله وأنواعه ودوره

---

(٥١) انظر د• محمود السعران • علم اللغة ص ٢٣٧ وما بعدها • وانظر أيضا كتابنا الكلمة ، ص ٦١ وما بعدها •

فى بيان الوظائف الصرفية والنحوية ، أن اختلف مفهوم أقسام الكلام Parts of speech عند المدرسة التوزيعية ، عن مفهومها عند النحاة التقليديين • ومن ثم اختلفت أيضا نظرتهم للقيمة التوزيعية والوظيفية لهذه العناصر ، سواء أكانت فونيمات أو مورفيمات • من حيث العلاقات التركيبية التى تدخل فيها • وبناء على ذلك كان التحليل الى المكونات المباشرة Immediate constituents analysis هو المنهج الذى اعتمد عليه بلومفيلد أولا ، ثم تلاميذه من بعده ، حيث بلغ هذا المنهج التحليلى أوجه مع نهاية الاربعينيات وبداية الخمسينيات من هذا القرن • ويمثل هذا الاتجاه « زلج هارس » تلميذ بلومفيلد وأستاذ تشومسكى • ويقوم هذا التحليل على عرض المكونات اللغوية فى صور بيانية مختلفة من أشهرها التحليل الشجرى(٥٢) • مثال ذلك جملة مثل (ظننت زيدا قائما) تحلل شجريا على النحو التالى :

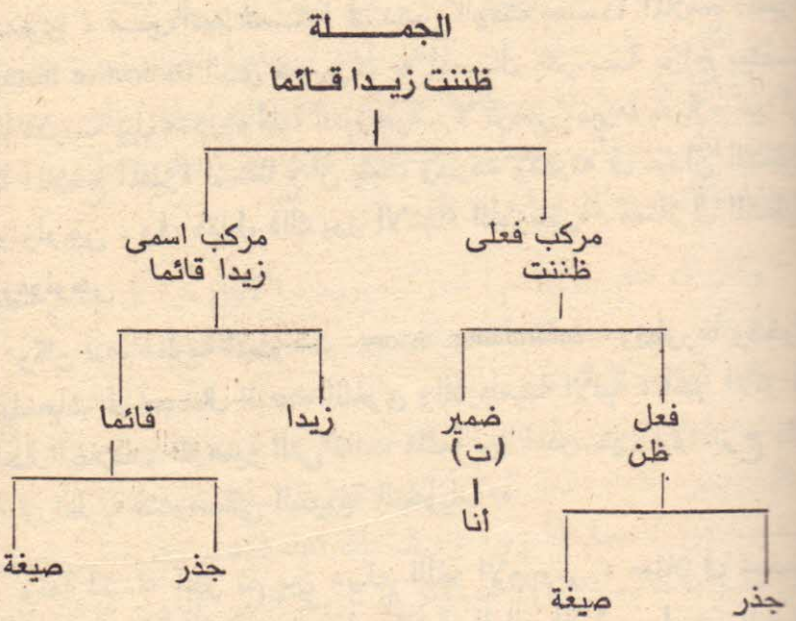

الجملة ← جذر + صيغة + ضمير + جذر + صيغة •

(٥٢) Harris, Zellig, structure linguistics P.V. pp. 2-3.

وقد كانت مدرسة بلومفيلد حتى نهاية العقد الخامس من هذا القرن تعيش فى شبه عزلة عن التطورات فى علم اللغة التى حدثت فى أوروبا أو على الاقل لم تكن على اتصال وثيق وعميق بها ، حتى وصل « رومان ياكبسون » مهاجرا الى الولايات المتحدة فى عام (١٩٥٠م) ومن ثم هاجر معه الفكر اللغوى الاوروبى ممثلا فى واحد من زعماء مدرسة براج وسرعان ما أصبحت جامعة هارفارد Harvard University مركزا لحركة لغوية بزعامة ياكبسون قامت على أصول ومبادىء مدرسة براج • وكان نعوم تشومسكى واحدا من تلاميذ هذه المدرسة وسميت المدرسة الجديدة باسم مدرسة هارفارد Harvard school مقابل مدرسة «ييل(Yale school التى وضع أصولها بلومفيلد،وتزعمها من بعده تلميذه «زلج هارس»(٥٣)•

وفى بادىء الامر وقعت مصادمات عنيفة بين المدرستين ، ولكن ياكبسون وتلاميذه حاولوا الاستفادة من المنهج التوزيعى فى التحليل اللغوى ، غير أنهم تمسكوا فى نفس الوقت بمبدأ الملامح المميزة Distinctive features الذى تميزت به أعمال مدرسة براج بينما ظلت مدرسة ييل متحيزة كلية للتوزيعية ، لا ترضى بغيرها بديلا• غير أن مبدأ الملامح المميزة استطاع أن يثبت وجوده وقدرته فى ميدان التحليل الفونولوجى ، وفى مقابل ذلك برز الاتجاه التوزيعى • ممثلا فى التحليل المورفولوجى •

وكان لنمو نظرية المعلومات Information theory وتطورها ودخول الرياضيات فى مجال البحث اللغوى والترجمة الآلية ، أكبر الاثر فى ازاحة الخلافات الوهمية التى كانت قائمة بين المدرستين ، وامتزج ذلك كله فى نظرية تشومسكى البنيوية التحويلية •

وثمة لقاء آخر تم بين علم اللغة الاوروبى ، ممثلا فى شخص ياكبسون وميدان الانثروبولوجيا ممثلا فى العالم الانثروبولوجى « ليفى شتراوس » الذى هاجر أيضا الى الولايات المتحدة الامريكية فكان هذا

---

(٥٣) Ivic milka, Op. Cit. p. 161.

اللقاء ايذانا بانتقال البنيوية اللغوية من ميدان علم اللغة الى حقل الدراسات الانثروبولوجية والاجتماعية(٥٤). كما كان هناك لقاء آخر بين العالم الانثروبولوجى مالينوفسكى ، وعالم اللغة الانجليزى « فيرث »، أسفر عن ظهور مدرسة لغوية جديدة هى المدرسة اللغوية الاجتماعية بزعامة « فيرث » .

٥ ــ مدرسة « فيرث » :

وهى المدرسة التى أثرت فى الفكر اللغوى العربى الحديث تأثيرا واضحا اذ تلمذ على يد فيرث عدد من علماء اللغة العربية فى العصر الحديث كما سنرى فيما بعد . أما نظرية «فيرث» فقد كانت محصلة للدراسات اللغوية التى بدأت فى بريطانيا منذ نهاية القرن الثامن عشر بكشف السير «ويليام جونز» للغة السنسكريتية وعلاقتها باللغتين اليونانية واللاتينية . وقد أدى هذا الكشف الى وضع أصول علم اللغة التاريخى(٥٥) . وكان نمو الامبراطورية البريطانية عبر البحار أحد العوامل التى ساعدت على نمو الدراسات اللغوية فى بريطانيا . ولكن هذه الدراسات ظلت ردحا من الزمن تهتم بالجوانب العملية والتحليلية دون وضع نظريات لغوية ، وهو جهد استأثرت به أوروبا وأمريكا .

ولكن فى عام (١٩٤٤م) شاركت بريطانيا لاول مرة فى وضع نظرية لغوية عامة على يد فيرث الذى كان يعرف أن اهتمام علماء اللغة فى بريطانيا لم يتجاوز وضع المعاجم والدراسة الصوتية واللهجية . وكان لفيرث اهتمام خاص باللغات الشرقية ، فقد عاش فترة من الزمن فى الهند وتأثر بجهود علماء اللغة الهنود القدماء ووصفهم للغة السنسكريتية ، وبخاصة من الناحية الصوتية ، وكل ذلك أهله لوضع نظرية لغوية قامت على أصولها مدرسة لغوية مستقلة فى تاريخ الفكر اللغوى عرفت باسم

---

(٥٤) انظر د. محمود فهمى حجازى ، أصول البنيوية فى علم اللغة والدراسات الانثروبولوجية . مجلة عالم الفكر ، المجلد الثالث ، العدد الاول ، ١٩٧٢ ص ١٥٢ وما بعدها .

(٥٥) Robins Op. Cit. p. 134.

المدرسة الاجتماعية البريطانية ، وحجر الزاوية فى هذه النظرية هو فكرة السياق(٥٦) .

وعلى الرغم من أن علماء اللغة قديما ، وعلماء اللغة العربية على وجه الخصوص قد أدركوا أهمية السياق ودوره فى الحدث اللغوى ، بل ان فكرة السياق ودلالته على المعانى الحقيقية للكلام كانت مطروحة فى الفكر الانسانى منذ أفلاطون وأرسطو وعلماء البلاغة العرب ، الا أن الفضل فى اعادة الحياة الى هذه الفكرة يعود الى فيرث الذى صاغ منها نظرية علمية قد تلتقى فى بعض جوانبها مع آراء القدماء ، ولكنها بلاشك تختلف من حيث المنهج والتطبيق والتحليل .

وقد تأثر «فيرث» فى وضعه لهذه النظرية بنظرية العالم البولندى مالينوفسكى الذى صادف العديد من الصعاب فى ترجمة بعض آداب الشعوب البدائية ، ووجد من الضرورى وضع الكلمات فى سياقها Context of situation الذى استخدمت أو نطقت فيه(٥٧) . وقد رأى فيرث أن فكرة السياق هذه يمكن أن تمتد وتتسع فى اطار تجريدى عام لدراسة المعنى . ومن ثم وضع أصول نظريته التى أصبح السياق فيها يمثل حقلا من العلاقات Field of relations الداخلية والخارجية . وكان يرى أنه على عالم اللغة ، اذا ما أراد أن يصل الى المعنى الدقيق للحدث اللغوى أو الكلامى ، أن يبدأ بالكشف عن العلاقات بين الوحدات اللغوية المكونة له . ومحاولة تقعيدها وفقا لخواصها التركيبية ، وهذا التحليل يقوم عنده على ثلاثة أركان أساسية هى :

١ ــ أن يعتمد كل تحليل لغوى على السياق أو المقام Context of

---

(٥٦) Ibid p. 213.
وانظر أيضا د. محمود السعران ، علم اللغة ، ص ٣٣٨ . و د. كمال بشر ، دراسات فى علم اللغة ، القسم الثانى ، ص ١٧٢ .

(٥٧) انظر : Mal'nowski, bronislow, "The problem of meaning in Primitive languages" Supplement I in C. K. Odgen and I. A. Richards. "The meaning of meaning" New York 1923 p. 306.

situation مع ملاحظة ما يتصل بهذا السياق من علاقات أو ظروف أو ملابسات وقت الكلام الفعلى • ويتمثل ذلك فيما يلى :

أ) شخصية المتكلم والسامع وتكوينهما الثقافى ، وشخصيات من يشهد الكلام ودورهم •

ب) العوامل والظواهر الاجتماعية والمناخية وعلاقتها باللغة والسلوك اللغوى وقت الكلام •

ج) أثر الكلام فى المشاركين فيه مثل الاقتناع أو الاعتراض أو الالم أو السرور أو غير ذلك •

ومعنى هذا أن من أهم خصائص السياق عند فيرث ابراز الدور الاجتماعى الذى يقوم به المتكلم وسائر المشتركين فى الكلام •

٢ ــ وجوب تحديد بيئة الكلام المدروس لان هذا التحديد يضمن عدم الخلط بين لغة وأخرى ، أو بين لهجة وأخرى • لان هذا الاختلاف يترتب عليه بالضرورة تحديد البيئة الاجتماعية أو الثقافية التى تحتضن اللغة المراد دراستها ، كما يجب أن تكون الدراسة مقصورة على مستوى لغوى واحد كلغة المثقفين أو العوام ، أو لغة النثر أو لغة الشعر •

٣ ــ يجب تحليل الكلام الى عناصره ووحداته المكونة له الكشف عما بينها من علاقات داخلية لكى نصل الى المعنى الذى يتصل أيضا بمستويات Levels التحليل المختلفة الصوتية والفونولوجية والمورفولوجية والنحوية ، مع ملاحظة أن هذه المستويات ترتبط فيما بينها برباط وثيق لكى تصل فى النهاية عبر كل مرحلة أو مستوى الى المعنى اللغوى للكلام •

ومفهوم المعنى عند فيرث ليس شيئا فى الذهن أو العقل كما أنه ليس علاقة متبادلة بين اللفظ والصورة الذهنية للشىء • وانما هو مجموعة من العلاقات والخصائص والميزات اللغوية التى نستطيع التعرف عليها فى موقف معين يحدده لنا السياق• ولتوضيح ذلك بالمثال نقول ان معنى كلمة

(ولد) مثلا هو المحصلة الاخيرة لعدد من العلاقات والوظـائف اللغوية وغير اللغوية التى يوضحها لنا التحليل الآتى[٥٨] :

١ ــ كلمة (ولد) عبارة عن مورفيم حر مركب من عدد معـين من الفونيمات بعضها صوامت وبعضها صوائت ، وهـذه الفونيمات مرتبة ترتيبا مخصوصا وهذا الترتيب هو جزء من معنى الكلمة • لان أى تغير فى الترتيب أو احلال فونيم محل فونيم آخر ، يؤدى الى تغـير المعنى ، كأن نقول (دلو) أو (وجد) •

٢ ــ كلمة (ولد) لها معنى معجمى خاص يختلف عن كلمة (بلد)• ندرك ذلك اذا ما استبدلنا كلمة (ولد) بكلمة (بلد) فى جملة معينة كأن نقول : (ولد نحيل) فاذا قلنا (بلد نحيـل) لم يستقم الكلام ، وهـو ما أسماه فيرث ، «احتمال الوقوع» Co-occurrence فى مقـابل التـلازم Collecation الذى يعنى تلازم وقوع كلمة مع أخرى مثـل الليل والظلام والحر والصيف والمطر والشتاء ، وقد حاول فيرث أن يفسر اختلاف المعنى على أنه اختلاف فى الوقـوع الاحتمالى أو التلازمى فى سياقات متعددة[٥٩] •

٣ ــ كلمة (ولد) لها معنى صرفى يمكن أن ندركه باحصاء السياقات الصرفية التى تستعمل فيها • حيث نجد أن جزءا من معنى هـذه الكلمة أنها قد تستعمل اسما مفردا أو مثنى ، أو جمع تكسير • وقد تصبح فعلا بتغيير بعض الصوائت ، وهذه الخصائص الصرفية تمثل المعنى الصرفى لهذه الكلمة • وهو جزء من معناها •

٤ ــ كلمة (ولد) لها معنى نحوى ، فقد تقع فاعلا أو مفعولا أو

---

(٥٨) Lyons, John, Semantics Vol. (2) p. 609.
وأنظر أيضا د• كمال بشر ، دراسات فى عـلم اللغـة ، ص ١٧٤ ، د• محمود السعران ، علم اللغة ، ص ٣٤٠ •

(٥٩) Ibid, p. 612.

مبتدأ أو خبرا • وقد تقع فى مواقع نحوية أخرى • وهذا الموقع النحوى هو جزء آخر من معناها أيضا •

٥ ــ كلمة (ولد) لها معنى اجتماعى يتم تحديده ورصده من خلال الاستعمالات المختلفة فى بيئة اجتماعية معينة ، ونعتمد فى ذلك على السياق أو المقام ، أى مراعاة الظروف والملابسات التى تستعمل فيها هذه الكلمة • كما يؤخذ فى الحسبان أيضا ما يصاحب الكلام من نبر وتنغيم وحركات جسمية وغير ذلك •

بهذا المنهج التحليلى يتكامل مفهوم نظرية السياق عند فيرث ومعنى هذا أن السياق عنده ينقسم الى نوعين :

أ) السياق اللغوى Linguisticic context ويتمثل فى العلاقات الصوتية والفونولوجية والمورفولوجية والنحوية والدلالية •

ب) سياق الحال Context of situation ويمثله العالم الخارج عن اللغة بما له من صلة بالحدث اللغوى• ويتمثل فى الظروف الاجتماعية والبيئة النفسية والثقافية للمتكلمين أو المشتركين فى الكلام •

ومعنى هذا أننا لكى نصل الى المعنى لابد أن نستخدم طرق التحليل اللغوية التى توصل اليها علم اللغة البنيوى ، ومن ثم اعتبرت نظرية فيرث نظرية بنيوية •

وهكذا نجد أن الوصفية قد ارتبطت بالبنيوية فى تاريخ الفكر اللغوى عبر المدارس اللغوية المختلفة فى النصف الاول من القرن العشرين • وبالرغم من استعانة هذه المدارس بعلم الاجتماع والانثروبولوجيا وعلم النفس ، الا أن حجر الزاوية فيها جميعا كان التحليل البنيوى للغة وخاصة على المستويين الفونولوجى والمورفولوجى • بل ان التحليل الفونولوجى قد قدم منهجا جديدا فى دراسة اللغة الانسانية بحيث أصبح هذا المنهج تحولا حقيقيا ، لا فى دراسة اللغة فحسب ، وانما فى مناهج

البحث فى العلوم الاجتماعية(٦٠) .

فقد قام البحث الفونولوجى فى هذه العلوم بالدور الذى قامت به الفيزياء النووية فى العلوم الطبيعية فلم يعد البحث يتركز على الجزئيات المفردة كما كان الحال فى فقه اللغة المقارن ، بل تحول البحث الى دراسة النظام والبنية . فالجزئيات المختلفة تختلف دلالتها فى الابنية المختلفة ، ومن ثم فلابد من الانطلاق من النظام الكلى عن طريق بحث الجزئيات المكونة له وبيان علاقاتها المختلفة . فالنظام فى ضوء البنيوية لا يظهر بتحديد الجزئيات المكونة له فحسب ، بل ببيان علاقاتها داخل النظام . ومعنى هذا أن الاهمية فى البنيوية للعلاقات التى تربط بين الجزئيات وتفرق بينها ولذلك أصبح التحليل الفونولوجى صورة ناضجة للعلاقات البنيوية بل للنظرية البنيوية سواء فى علم اللغة أو العلوم الاجتماعية. لان الفونولوجيا لا تبحث العناصر أو الوحدات الصوتية فى ذاتها بل ببيان العلاقات المحددة والمميزة لكل وحدة داخل النظام اللغوى . ولهذا اعتبر التحليل الفونولوجى اتجاها مغايرا كل المغايرة للنظرة الوصفية التى سادت الفكر اللغوى قبل ظهور هذه النظرية .

وثمة جانب آخر فى التحليل الفونولوجى جعله أصلا من أصول البنيوية فى الدراسة اللغوية والاجتماعية ، وهو أن النزعة التطورية التى سادت علم اللغة والدراسات الاجتماعية ، كانت ترى أن ادراك الشىء وفهمه وتفسيره يتمثل فى معرفة أصله وتطوره التاريخى . ولكن التحليل الفونولوجى أثبت أن هذا ليس ايضاحا لطبيعة الشىء ، وانما لكى نفهم طبيعة الظاهرة لابد من دراستها داخل النظام حتى تتضح مكانتها من حيث هى جزء من كل ، وحتى نتبين العلاقات المحددة لها ، ومن ثم تتضح وظيفتها . ومن هنا ارتبطت البنيوية بالوصفية ، ولهذا لم يعد تصنيف الوحدات أو الجزئيات ، طبقا للمعيار التاريخى أمرا مقبولا . وبذلك أصبحت هذه الاسس النظرية للتحليل الفونولوجى أصولا للتحليل

---

(٦٠) د. محمود فهمى حجازى . اصول البنيوية ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الثالث ، العدد الاول ١٩٧٢ م ، ص ١٦٦ .

البنيوى فى معظم النظريات اللغوية الحديثة والمعاصرة ، حتى فى أشدها تجريدا وصورية مثل نظرية «هلمسليف» .

لقد استطاع علم اللغة البنيوى أن ينتقل بالدراسة اللغوية من المعيارية الى الوصفية ، واتخذ من دراسة العلاقات ووصفها وصفا موضوعيا فلسفة عامة جمعت بين النظريات اللغوية المختلفة بحيث قدمت كل نظرية نموذجا Model تحليليا مختلفا ، ولكنه فى الحقيقة يقوم على أصول بنيوية .

وهكذا نجد أن البنيوية الوصفية هى فى النهاية نظرية علمية تقول بسيطرة النظام اللغوى على عناصره ، وتهدف الى استخلاص هذا النظام من خلال العلاقات القائمة بين هذه العناصر ، كما تحرص على ابراز الطابع العضوى لشتى التغيرات التى تخضع لها اللغة . فكيف انتقلت هذه النظرية الى اللغة العربية ؟ وكيف طبقت عليها ؟ وما النتائج التى أسفرت عنها ؟ كل هذه الاسئلة وغيرها هى موضوع الفصلين الثانى والثالث من هذا الباب .

الفصل الثانى

(العربية وبداية الاتصال بالفكر اللغوى الغربى)

قد يكون من الصعب تحديد البدايات الاولى لانتقال الفكر اللغوى الحديث الى ميدان التفكير اللغوى فى مصر والعالم العربى ، ولكن الذى لاشك فيه أن هذه البدايات الاولى ترجع بصورة أو بأخرى الى بداية الاتصال بالحضارة الغربية فى العصر الحديث والتى بدأها رفاعة الطهطاوى فقد أثار فى بعض كتبه الاهتمام بدراسة اللغات واللغة الفرنسية أثناء بعثته هناك ودعا الى انشاء مجمع للغة العربية على غرار المجمع العلمى الفرنسى ، كما ظهرت بعض أفكار الدراسة اللغوية الحديثة فى مقالات نشرها المقتطف وفى كتابات جورجى زيدان الذى نشر فى فترة مبكرة كتابين فى اللغة أحدهما كتاب « الفلسفة اللغوية والالفاظ العربية » (١٨٨٦م) والثانى « اللغة العربية كائن حى » وفى هذين الكتابين حاول أن يعرض شيئا مما كان متداولا بين علماء اللغة فى الغرب عن طبيعة اللغة ووظيفتها وطرق تحليلها وأن يستفيد من ذلك فى دراسة اللغة العربية ، وكان يعتمد على الترجمة من كتب المستشرقين ، وخاصة الالمان منهم .

كما كان لانشاء الجامعة الاهلية (١٩٠٨م) أثر فى تداول واشاعة جانب من الدراسة اللغوية الاوروبية ، وزاد هذا الاهتمام عقب تولى الدولة أمر الجامعة (١٩٢٥م) وكان علم اللغة التاريخى المقارن للغات السامية هو المنهج السائد فى دراسة وتدريس اللغات طوال هذه الفترة وبعدها أيضا. اذ كان هذا الفرع من الدراسة اللغوية من المواد الاساسية التى تدرس فى قسم اللغة العربية واللغات الشرقية بكلية الآداب بالجامعة المصرية.وارتبط التدريس والبحث حينئذ بعدد من المستشرقين،

معظمهم من الالمان استقدمتهم الجامعة للتدريس بها ، منهم «أنو ليتمان» و «بول كراوس» و «شاده» و «برجشتراسر» وقاد هؤلاء المستشرقون حركة علمية للتدريس والبحث فى فقه اللغات السامية • وتلمذ عليهم عدد من الباحثين •

ويعد كتاب المستشرق الالمانى برجشتراسر « التطور النحـوى للغة العربية » ممثلا لهذا الأتجاه التاريخى المقارن فى فقه اللغـات السامية فهو عبارة عن مجموعة من المحاضرات ألقاها هذا المستشرق فى الجامعة المصرية عام (١٩٢٩م) • وفى هذا الكتاب نجد المنهج التاريخى المقارن مطبقا على اللغة العربية بالاضافة الى بعض أفكار البنيوية الوصفية • ويبدو ذلك واضحا فى مقدمة الكتاب يقول : « ان الغرض من محاضراتى التى سألقيها عليكم هو درس اللسان العربى من الوجهة التاريخية ، أى من جهة نشأته وتكونه وأصول حروفه وأبنيته وأشكال الجمـلة فيه ، والتغيرات التى وقعت فيه مع توالى الازمان[1] •

ويشير الى المنهج الوصفى تحت مصطلح « النظامية » وهـو عنده المنهج المقابل للمنهج التاريخى المقارن • يقول : « والوجهة الثانية التى يمكننا اتجاهها فى علم اللسان هى النظامية ، وهى أن ننظر الى طور معين من أطوار تاريخ لغة معينة ونتساءل أى هى خصائص اللغة فى هذا الوقت وكيف ترتبط كل وحدة منها بسائرها ، وما فائدة حروفها وأبنيتها ، وما تحسوزه من الوسائط لتأدية المعـانى وكيف تستعملها[2] • وبالرغم من غموض بعض الجوانب التى أشار اليها وعدم اتصالها بالمنهج الوصفى أو النظامية كما يقول ، مثل فائدة الحروف والابنية ، وكيف تؤدى المعانى الا أنه يشرح الفرق بين المنهج التاريخى والنظامية فيقول : « ولتبين الفرق بين هاتين الوجهتين نورد مثل الجمع المكسر فى اللغة العـربية • فالمسألة التاريخية فيه هى ، ما هو أصله ، وكيف نشأ من ذلك الاصـل فنجد أنه من الاصل ليس بجمع ، بل هو اسم جملة Collectif يعنى أنه

---

(١) برجشتراسر ، التطور النحوى ، ص ٧ •
(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة •

يدل على جنس متركب من غير واحد من الافراد • والجمع يدل على الافراد المتعددة • ونجد أيضا أن أوائل استعمال الجمع المكسر ترجع الى زمان قديم • وأن القليل من أبنيته يوجد نظيره فى اللغات السامية الشمالية ، وأكثرها خاص بالعربية والحبشية[٣] • أما النظامية أو الوصفية فيشرحها قائلا : « والمسألة النظامية هى أى نسبة تقوم بين الجمع المكسر والجمع السالم وسائر الابنية الدالة على جملة أو كثرة • وما الفرق بين هذه الانواع كلها فى المعنى وفى الاستعمال ••• فتبين أن هذه الوجهة الثانية قريبة من الصرف والنحو العاديين • غير أنها هى أيضا علمية محضة لا عملية • وذلك أنه لا رعاية فيها الى هل يجوز أن يقال كذا وكذا ؟ أولا : بل يكتفى باثبات الموجود حقيقة فى السماع دون تفريق بين المقبول منه والمردود • ومع ذلك فالوجهة النظامية أقرب الى المعتاد من الوجهة التاريخية »[٤] •

ومعنى هذا أن النظامية عنده ، أو الوصفية هى دراسة الواقع اللغوى ووصفه دون التعليل لظواهره ، وهو يقرن هذا العمل بدراسة النحو والصرف • يقول : « فالعمل فى الكشف عن اللغة قسمان ، أولهما الجمع والوصف ، والثانى التحليل والتعليل والتأليف • أما عمل جمع مواد اللغة العربية ووصفها وتدوينها فنجد كثيره فى باب الصرف والنحو وبعضه فى باب مفردات اللغة • فانا نرى قدماء النحويين واللغويين دونوا فى كتبهم أكثر ما جاء فى النثر والشعر وأكثروا فيه الحديث »[٥] •

وهو بهذا يقرن بين عمل النحاة واللغويين القدماء وبين المنهج الوصفى أو النظامية • غير أن هذا لم يحل دون نقده لعلماء العربية القدماء من وجهة نظر وصفية خالصة • يقول : « والذى منع علماء الشرق مع بذل الجهد العجيب فى درس اللغة العربية من جهة الصرف والنحو ومن جهة المفردات عن الاعتناء الكافى بالكشف عن تطور اللغة بعد الاسلام ،

---

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة .
(٤) المرجع السابق ص ٧ ـ ٨ .
(٥) المرجع السابق ، ص ٢٠٣ .

سببان مرتبطان أحدهما بالاخر ، أولهما مداومتهم على السؤال عن الجائز فى اللغة وضده • وعلى المنع عن كثير من العبارات وهذا ، وان كان واجبا نافعا فهو عمل المعلم لا العالم • والمبالغة غير مضرة • فالعالم يفحص عما يكون فى الحقيقة لا عما كان ينبغى أن يكون • والمعلم لا يظن أن تعليمه أقوى من الحياة فان نسى هذه النصيحة واجتهد أن يقهر حياة اللغة ويعوقها ، جازته وغفلت عن تعليمه ، فيتسع اذن الشق الحاجز بين اللغة الحقيقية الحية وبين ما يعلمه النحويون كما نشاهد ذلك فى تاريخ اللغة العربية • والسبب الثانى اعتقاد علماء الشرق أن أكمل ما كانت عليه اللغة العربية وأتقنه وأحسنه ، ما يوجد فى الشعر القديم • وهذا حكم غير علمى»[٦] • وهنا يفرق برجشتراسر بين النظامية أو الوصفية والمعيارية • غير أن هذا الحديث لم يكن كافيا للفت النظر الى منهج جديد فى دراسة اللغة ولكن جهود برجشتراسر وغيره من المستشرقين ظلت بين جدران الجامعة ولم تلفت أنظار المهتمين بدراسة اللغة العربية ، فبقيت المناهج التقليدية مهيمنة على دراسة النحو والصرف وظل مصطلح علم اللسان أو علم اللغة مرتبطا بالدراسة التاريخية المقارنة وان شاع مصطلح فقه اللغة للدلالة على دراسات المستشرقين هذه ، حتى عاد عدد من المبعوثين المصريين الذين ذهبوا الى الجامعات الاوروبية للتخصص فى علم اللغة ومن ثم بدأت حركة التبشير بالمنهج الجديد ومحاولة تطبيقه على اللغة العربية • ولكن التمهيد لهذا المنهج الجديد جاء من عالم فى الاجتماع هو الدكتور على عبد الواحد وافى[٧] • الذى نشر عام (١٩٤١م) كتابين أحدهما بعنوان علم اللغة والاخر بعنوان فقه اللغة • ثم أعيد طبع الكتابين عدة مرات بعد ذلك •

أما كتاب علم اللغة فهو يقدم بطريقة تفتقر الى المنهجية والوضوح فروع ومجالات علم اللغة ، كما كانت معروفة فى أوربا خلال النصف

---

(٦) المرجع السابق ، ص ٤٠٤ ـ ٤٠٥ •

(٧) حول حياته وأعماله وجهوده العلمية ، أنظر ، د• مهدى علام المجمعيون فى خمسين عاما • ص ٢١٨ ـ ٢١٩ •

الاول من القرن العشرين • ويحتوى الكتاب على تمهيد فى التعريف بعلم اللغة وبابين ، الاول عن نشأة اللغة عند الانسان ، والطفل ، والثانى عن حياة اللغة • وهذا الباب يمثل معظم الكتاب ففيه فصول عن تفرع اللغة الى لهجات ولغات وفصائل اللغات ، والصراع اللغوى والتطور اللغوى العام ، وأصوات اللغة ، حياتها وتطورها والدلالة وتطورها •

وواضح من بناء الكتاب وتداخل موضوعاته واسقاط موضوعات أخرى تتصل بعلم اللغة أن المؤلف كان يرمى الى تقديم دائرة معارف صغيرة عما يسمى بعلم اللغة عند الاوروبيين • ويظهر هذا بجلاء فى التمهيد الذى عقده للتعريف بهذا العلم ، وفيه يحدد أهم موضوعات علم اللغة فيما يلى :

١ ــ البحوث المتعلقة بنشأة اللغة الانسانية •

٢ ــ البحوث المتعلقة بحياة اللغة وما يطرأ عليها •

٣ ــ دراسة الاصوات اللغوية •

٤ ــ دراسة اللغة من حيث دلالتها •

٥ ــ البحث فى الاصول التى جاءت منها الكلمات فى لغة ما •

٦ ــ بحوث نفسية تدرس العلاقة بين الظواهر اللغوية والظواهر النفسية(٨) •

وبالرغم من أنه يشير الى أن كثيرا من علماء اللغة يرون أن موضوع نشأة اللغة الانسانية ينبغى أن يخرج من نطاق علم اللغة والحاقه بالبحوث الفلسفية الميتافيزيقية لان البحث فيه لا يتفق فى شىء مع ما ينبغى أن يكون عليه البحث العلمى • على الرغم من هذه الملاحظة الا أنه يخصص الباب الاول من الكتاب ليعرض فيه النظريات المختلفة التى

---

(٨) راجع ، علم اللغة ، ص ٥ ــ ١٣ •

تداولها علماء اللغة فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حول نشأة اللغة الانسانية[٩] .

كما يظهر عدم الدقة فى التفرقة بين المنهج التاريخى المقارن والمنهج الوصفى فى تقسيمه لفروع علم اللغة فهو ينطلق من المستويين الصوتى والدلالى ليقسم مستويات البحث اللغوى ، ويرى أن علم الاصوات وعلم الدلالة يؤلفان معا أهم فروع علم اللغة وأدقها[١٠] . فعلم الدلالة أو « السمانتك » كما يقول ينتظم بحوثا كثيرة استقل كل منها وأصبح شعبة دراسية قائمة بذاتها . ومن أهم البحوث التى انبثقت عن علم الدلالة عنده علم البنية أو المورفولوجيا . وهو العلم الذى يبحث فى القواعد المتصلة باشتقاق الكلمات وتصريفها وتغيير أبنيتها ، وهو ثلاثة أنواع :

١ ــ المورفولوجيا التعليمى . أى علم البنية التعليمى . وهو يدرس القواعد فى لغة ما لمجرد جمعها وترتيبها وتنسيقها حتى يسهل تعلمها وتعليمها ومراعاتها فى الحديث والكتابة . ومن هذا النوع علم الصرف فى اللغة العربية .

٢ ــ المورفولوجيا التاريخية ، وهو الذى يدرس هذه القواعد فى لغة ما دراسة تاريخية تحليلية .

٣ ــ المورفولوجيا المقارنة ، وهو الذى يدرس القواعد السابقة دراسة تاريخ ومقارنة فى فصيلة من اللغات الانسانية أو فى جميع اللغات. ثم يقول بعد ذلك « وهذان القسمان الاخيران هما اللذان يدخلان فى نطاق علم اللغة . أما القسم الاول ، وهو المورفولوجيا التعليمى فليس من بحوث علم اللغة ، بل من بحوث القواعد التعليمية[١١] .

ومثل هذا التقسيم والتبويب نراه أيضا فى الـ Syntax الذى أطلق عليه مصطلح علم التنظيم . فهناك السنتاكس التعليمى والسنتاكس

---

(٩) المرجع السابق ، ص ٧٤ ــ ١٠٩ .
(١٠) المرجع السابق ، ص ٦ .
(١١) المرجع السابق ، ص ٧ .

التاريخى ، والسنتاكس المقارن • والقسمان الاخيران يعدان من فروع علم اللغة • أما السنتاكس التعليمى فليس من بحوث هذا العلم[١٢] • ثم يختم هذا التعريف بقوله : « ومن المورفولوجيا والسنتاكس ، أى علم البنية وعلم التنظيم ، يتألف ما يسمونه الجرامير ، Grammaire أى علم القواعد • ومما تقدم يتبين لك أن دراسة الجرامير بفرعيها تارة تكون تعليمية وتارة تاريخية وتارة مقارنة وأن القسمين الاخيرين وحدهما هما اللذان يدخلان فى علم اللغة»[١٣] •

وواضح من هذا التقسيم والتبويب التداخل الشديد بين علم اللغة التاريخى المقارن وعلم اللغة الوصفى الذى يبدو أنه الموصوف بالتعليمى حيث يتضح من التعريف به ، سواء على مستوى الاصوات أو المورفولوجيا أو التركيب أو الدلالة أنه « دراسة القواعد فى لغة ما لمجرد جمعها وترتيبها وتنسيقها»[١٤] •

ويؤكد هذا التداخل بين علم اللغة التاريخى المقارن وعلم اللغة الوصفى عند المؤلف الفصل الذى عقده لتاريخ البحوث اللغوية ، اذ لم يرد فيه ذكر أى عالم من علماء الدراسة الوصفية ، أو مدارسها • بل كان معظمهم من أصحاب الدراسات اللغوية التاريخية المقارنة مثل «ماكس مولر» و «فرانز بوب» و «لاسكن» وغيرهم • والمرة الوحيدة التى ذكر فيها اسم «دى سوسير» و «أنطوان مييه» لكتفى بقوله انهم من أصحاب علم الاجتماع اللغوى[١٥] •

وكل هذا يدل على أن د• على عبدالواحد وافى كان يفهم من مصطلح علم اللغة أنه يختص بالدراسة التاريخية المقارنة دون علم اللغةالوصفى• ويبدو ذلك واضحا من موضوعات الكتاب • فمعظمها يتصل بدراسة التطور اللغوى وفصائل اللغات واللهجات وعائلاتها والصراع اللغوى ،

---

(١٢) المرجع السابق ، ص ٨ •
(١٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة •
(١٤) المرجع السابق ، نفس الصفحة •
(١٥) المرجع السابق ، ص ٤٨ ـ ٦٢ •

اذا استثنينا من ذلك دراسة الاصوات والدلالة بالرغم من غلبة الطابع التاريخى عليها •

ومع ذلك فلم يخل الكتاب من ملاحظـات وأفكار ومبادىء وصفية وبنيوية هامة تتمثل فيما يلى :

١ ــ الدراسة العلمية فلسفة قائمة على الملاحظة والتجريب •

٢ ــ البنية اللغوية تتألف من عناصر ذات وجود متميز بينها علاقات عضوية •

٣ ــ التفريق بين اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة •

٤ ــ تقسيم الدراسة اللغوية الى مستويات صوتية وصرفية ونحوية ودلالية •

٥ ــ التفريق بين دراسـة اللغـات المستعملة واللغـات الميتة • أما كتابه الثانى فقه اللغـة فيتنـاول فيه بطريق مباشر موضوعات علم اللغة التاريخى المقارن • ولكنه يهتم اهتماما خاصا باللغات السـامية ، ويرى أن كتابه هذا متمم لكتابه السابق علم اللغـة • أى لا فرق بين منهج الدراسة فيه ومنهج الدراسة فى كتاب علم اللغة • وانما كما يقول : « آثرنا أن نطلق عليه اسما خاصا شـاع استعماله فى الموضوعات التى يعرض لها ، وخاصة ما يتعلق منها باللغة العربية[١٦] • وعبارة فقه اللغة هى ترجمة لمصطلح Philology أشاعه بعض المستشرقين فى الجـامعة المصرية عند تدريسهم لهذا اللون من الدراسة اللغوية •

وقد ظل هذان الكتابان ، أعنى علم اللغة وفقـه اللغة ، للدكتـور على عبد الواحد وافى ، مرجعين أساسيين فى الدراسـات اللغـوية فى الجامعة وغير الجامعة • حتى عاد أول مبعوث مصرى لدراسة علم اللغة دراسـة متخصصة وهـو المرحـوم د• ابراهيم أنيس (١٩٠٦ م ــ

---

(١٦) أنظر مقدمة الكتاب ، ص ١ •

١٩٧٨م)[١٧] • والحق أن جهود د• أنيس فى ميدان علم اللغة تحتاج الى درس مفرد يوضح أصولها ومبادئها وآثارها فى دراسة العربية وفق منهج لم يعرفه التفكير اللغوى العربى التقليدى • ولم يشغل د• أنيس نفسه كثيرا بتقديم أصول ومبادىء هذا الفكر اللغوى الجديد ، وانما مضى يطبقه على اللغة العربية تطبيقا مباشرا ، معتمدا عليه فى نقد بعض آراء القدماء،وكذا تحليل الظواهر اللغوية المختلفة والتعليل لها•ويبدو أن خطة د• أنيس كانت تهدف الى وضع مؤلفات تتناول دراسة مستويات اللغة العربية الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية وفق هـذا المنهج الحديث فى دراسة اللغة ، الذى تلقاه من علماء اللغة فى انجلترا حيث كان يدرس للحصول على درجة الدكتوراه فى جامعة لندن (١٩٤١م) فقد نشر بعد عودته عدة كتب هى :

١ ــ الاصوات اللغوية •

٢ ــ من أسرار اللغة •

٣ ــ موسيقى الشعر •

٤ ــ فى اللهجات العربية •

٥ ــ دلالة الالفاظ •

٦ ــ مستقبل اللغة العربية المشتركة •

٧ ــ اللغة بين القومية والعالمية •

غـير أبحاثه التى نشرهـا فى المجلات العلمية مثل مجلة مجمع اللغة العربية فى مصر •

وقد تناولت مؤلفاته مستويات الدراسة اللغوية بصورة أو بأخرى مزج فيها بين أصول ومبادىء علم اللغة وتطبيقه لهذه الاصول والمبادىء

---

(١٧) حول حياته وأعماله وبعثته ودراسته فى الداخل والخـارج ، انظر : د• مهدى علام ، المجمعيون فى خمسين عاما ، ص ٤ ــ ٦ •

فى دراسة اللغة العربية • وسنكتفى هنا لبيان جهود د• أنيس فى تقديم المنهج البنيوى الوصفى تقديما علميا لأول مرة فى تاريخ الفكر اللغوى العربى الحديث بدراسة ثلاثة كتب تمثل مستويات اللغة العربية الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية ، وهذه الكتب هى :

١ ــ الاصوات اللغوية •

٢ ــ فى اللهجات العربية •

٣ ــ دلالة الالفاظ •

أما الكتاب الاول فيقدم لاول مرة ، باللغة العربية ، دراسة متكاملة عن الاصوات اللغوية وطرق دراستها بعامة ، وأصوات اللغة العربية خاصة ، وذلك وفق المنهج الحديث • أما السبب فى ذلك فيوضحه بقوله : « للوقوف على ما تتفق فيه آراء علماء اللغة العربية القدماء مع النظريات الحديثة فى هذا الميدان[١٨] • وقد تحول هذا الكلام الى اتجاه طبع الدراسات اللغوية الحديثة فى العالم العربى بطابع مميز ، كما سنرى فيما بعد •

وهو يقدم كتابه هذا بقوله : « فهذا كتاب فى دراسة قد تبدو حديثة فى بلادنا ولكنها ازدهرت وتأصلت بين من يعنون بالبحث اللغوى فى أوروبا »[١٩] • ثم يفرق بين مصطلحين هامين من مصطلحات هذا العلم وهو مصطلح الفوناتيكى Phonetics ومصطلح الفونولوجى Phonology ويرى أن كتابه هذا أقرب الى الدراسة الفونولوجية منه الى الدراسة الصوتية • يقول : « ولكنى أوثر أن أنسبه الى فرع الفونولوجى لان الفوناتيك يعنى بالاصوات الانسانية شرحا وتحليلا ، ويجرى عليها تجارب دون نظر خاص الى ما تنتمى اليه من لغات ولا الى أثر تلك الاصوات فى اللغة من الناحية العملية فهو لهذا عالمى ••• أما فرع

---

(١٨) انظر ، الاصوات اللغوية ، ص ٢ ط ثالثة •
(١٩) المرجع السابق ، ص ٤ •

الفونولوجى فيعنى كل العناية بأثر الصوت اللغوى فى تركيب الكلام نحوه وصرفه »[٢٠] • ثم يعرف الفونولوجى بأنه « علم الاصوات الذى يخدم بنية الكلمات وتركيب الجمل فى لغة من اللغات »[٢١] • ثم يشير الى استعمال مصطلح فونولوجى عند دى سوسير وعلاقته بمصطلح فوناتيك فيقول : « ومن المحدثين من يميز بين الاصطلاحين تمييزا آخر فيجعل الاول خاصا بالناحية الوصفية والثانى بالناحية التاريخية •••• وهناك فريق ثالث على رأسهم دى سوسير يعكسون التسمية ويجعلون الاصطلاح الاول للبحث التاريخى والاخر للبحث الوصفى »[٢٢] • ولكن د• أنيس يرى أن الفرعين على المستوى الوصفى قد يلتقيان فى ميدان واحد ويشتركان معا فى البحث ، فحدودهما متشابكة ، يصعب تحديد الفواصل بينهما تحديدا دقيقا[٢٣] •

ويبدو أن اتجاه د• أنيس فى عدم الفصل بين الفوناتيك والفونولوجى لانه كان يسعى لدراسة أصوات اللغة العربية فى المقام الاول ، وهى دراسة تتصل بالفونولوجى أكثر منها بعلم الاصوات العام • ويعرف علماء اللغة المعاصرون الفونولوجى بأنه دراسة العناصر الصوتية للغة ما وتصنيف هذه الاصوات تبعا لوظيفتها فى اللغة[٢٤] • ومعنى هذا أن دراسة البنية الصوتية للغة معينة هى ، كما ذهب د• أنيس أقرب الى الفونولوجى منها الى علم الاصوات العام • وليس معنى هذا استبعاد علم الاصوات من الدراسة الفونولوجية ، وانما يقدم هذا العلم المفاهيم الاولية عن خصائص الاصوات ووقائعها وكيفية حدوثها • ولذلك نجده يحرص على تقديم هذه المفاهيم الصوتية العامة فى بداية كل فصل من فصول كتابه قبل تطبيقها على اللغة العربية أى قبل التعامل معها على المستوى الفونولوجى •

---

(٢٠) المرجع السابق ، نفس الصفحة •
(٢١) المرجع السابق ، نفس الصفحة •
(٢٢) المرجع السابق ، ص ٥ •
(٢٣) المرجع السابق ، ص ٤ •
(٢٤) Hartmann & stork Op. Cit. p. 157.

ومما يلفت النظر أن د٠ أنيس يفرق بوضوح بين الوصفية والتاريخية على الرغم من أن الفكر اللغوى العربى عند صدور هذا الكتاب (١٩٤٧م) لم يكن قد استقر بعد على مفهوم واضح لهذين المنهجين فى الدراسة اللغوية ودراسة الاصوات ٠ وقد رأينا من قبل كيف اختلط المنهجان فى كتاب علم اللغة (١٩٤١م) عند د٠ وافى ٠ ولم يفصل د٠ أنيس فى بيان الفرق بين الوصفية والتاريخية ، وانما اكتفى بهذه الاشارة وأغلب الظن أن موضوع الكتاب لا يسمح له بالاستطراد فى هذه النقطة ٠

فاذا انتقلنا الى معالجته لموضوع الاصوات اللغوية وجدناه يمضى وفق منهج عام خضعت له الدراسات الصوتية الحديثة ويتمثل ذلك فى تناول الموضوعات الاتية :

١ ــ عملية انتاج الصوت اللغوى ٠

٢ ــ أعضاء النطق ٠

٣ ــ تصنيف الاصوات الصامتة ٠

٤ ــ تصنيف الصوائت ٠

٥ ــ دراسة بعض الظواهر الصوتية مثل النبر والتنغيم والمقطع والفواصل ٠

والكتاب يغطى هذه الجوانب جميعا ، مع ابراز جهود علماء العربية القدماء مثل الخليل وسيبويه وابن جنى وغيرهم ٠ ولكن مما يلفت النظر أن د٠ أنيس ، رغم اعترافه بأن كتابه هذا يدخل فى اطار الدراسة الفونولوجية،الا أنه لم يتعرض مطلقا لنظرية الفونيم ومفهومه لدى علماء اللغة المحدثين ، على الرغم من أن هذه النظرية ، كما رأينا من قبل ، تمثل حجر الزاوية فى علم اللغة البنيوى ٠ كما أن محاولة د٠ أنيس الالتزام بالمصطلحات الصوتية التراثية مقابل المصطلحات الصوتية الحديثة ، قد أدت الى نوع من اللبس أحيانا ٠ فهو يضع مصطلح الاصوات الساكنة مقابل مصطلح Consonant وأحيانا يضع مصطلح صرف مقابل نفس

المصطلح • أما مصطلح Vowels فقد ترجمه مرة بأصوات اللين ومرة أخرى بالحركات • أما الحركات الطويلة فقد عدها من أصوات اللين • ومعنى هذا أن الحركات الطويلة والقصيرة عنده يعبر عنها بأصوات اللين والمد فى حين يعبر عن الصوامت بالحرف مرة وبالصوت الساكن مرة أخرى[٢٥] • ومن المعروف أن مصطلح الحرف فى الاستعمال العربى القديم ، يصدق على كل من الصوامت Consonant والصوائت Vowles مما يؤدى الى نوع من اللبس خاصة عندما نقارن بين التصورات العربية القديمة والتصورات اللغوية الحديثة • ويبدو أن د• أنيس قد أحس شيئا من هذا الغموض فحاول أن يحدد الصامت بأنه الصوت الساكن المشكل بالسكون[٢٦] ولكن هذا الاحتراز يزيد من اللبس والغموض أيضا • لان الصامت قد يضبط بالسكون ، كما يعد السكون نفسه علامة مميزة للحركة الطويلة أو حرف المد • على الاقل فى تصور علماء العربية القدماء • ويزداد هذا الغموض واللبس فى استعمال مصطلح الساكن فى وصفه للمقاطع الصوتية فهى عنده نوعان : متحرك Open ، وساكن Closed والمقطع المتحرك هو الذى ينتهى بصوت لين قصير أو طويل • أما المقطع الساكن فهو الذى ينتهى بصوت ساكن • وأولى من ذلك وأدل استعمال مصطلح مقطع مفتوح للمنتهى بحركة ، ومقطع مغلق للمنتهى بصامت •

ومع ذلك فقد قدم الكتاب لاول مرة باللغة العربية تصورا واضحا لفرع من فروع الدراسة اللغوية الحديثة يتسم بالشمول والوضوح • ولعل أهم مبادىء الدراسة الوصفية التى قدمها الكتاب تتمثل فيما يلى :

١ ــ الوصف العلمى التجريبى للاصوات اللغوية •

٢ ــ بعض القوانين الصوتية مثل المماثلة Assemilation والمخالفة Disassemilation وقانون الجهد الاقل أو نظرية السهولة •

---

(٢٥) أنظر على سبيل المثال المرجع السابق صفحات ٢١، ٢٦، ٢٨ •
(٢٦) المرجع السابق ، ص ١٦٠ ، ١٦٣ •

٣ ـ العادات الكلامية وأثرها فى تعلم اللغات •

أما الكتاب الثانى من كتب د• أنيس فهـو كتاب اللهجات العربية (١٩٥٠م) وتأتى أهمية هذا الكتاب من أنه اقتحم ميدانا ، كان ومايزال، تحيط به الشكوك نتيجة لنظرة القدماء للهجات على أنها نوع من الخطأ لا يصل الى مرتبة اللغـة النموذجية • وازدادت هـذه الشكوك نتيجة للدراسات المشبوهة التى قام بها بعض دعاة العامية ، فارتبطت دراسة اللهجات فى وجدان كثير من الناس وفى وجدان بعض الباحثين بالحط من قدر اللغة الفصحى ، لغة القرآن الكريم • يضاف الى هذا أن الـكتاب يلتزم بمناهج التحليل اللغـوى التى لم يعرفها التراث العـربى ، فهو يتعرض للمستويات الفونولوجية والمورفولوجية ، والنحوية والدلالية للهجات العربية • ويفرق بين الدراسة الوصفية والدراسـة التاريخية للهجات ، كما استخدم عددا من المصطلحات الجديدة •

وقد بدأ د• أنيس كتابه هذا بالكشف عن تردده فى نشر كتاب يعرض للهجات العربية القديمة بالدراسة والبحث ، لانه يرى أن هـذا عمل الهيئات العلمية لا الافراد لتشعبه ووعورة الطريق اليه • ولانه يحتاج الى بحوث مستفيضة تتجاوز قدرة الفرد وعمره أيضا • ولكنه لما وجـد انصراف أهل العلم عن هذا الموضوع واكتفاءهم بترديد أقوال القدماء ، أقدم على نشر الكتاب الذى يقوم ـ كما يقول ـ على أحدث النظريات العلمية التى قررها المحدثون فى دراسة اللهجات قديمها وحديثها»[٢٧] •

وهو يدرس اللهجات العربية القديمة بناء على خطة عامة وأسس ثلاثة ، يرى أنه من الضرورى الاعتماد عليها فى مثل هذه الدراسة• وهذه الاسس هى :

١ ـ دراسة اللهجات العربية الحـديثة دراسة مستفيضة فى كل

---

(٢٧) اللهجات العربية ، ص ٣ •

البيئات العربية . فلعل السر فى تباين هذه اللهجات الحديثة أنها انحدرت من لهجات عربية قديمة .

٢ ــ دراسة القرءات القرآنية دراسة واسعة غير مكتفين منها بما روى فى بطون الكتب ، بل يجب أن تطبق تلك الروايات على ما نسمعه فعلا من أفواه القراء المعاصرين ، واستخدام الاجهزة والادوات الصوتية الحديثة فى ذلك .

٣ ــ جمع الروايات المتناثرة فى كتب اللغة والادب ، مما يمت الى اللهجات القديمة بصلة ، ثم تمحيصها وتحقيقها حتى اذا ما تمت هذه الدراسة بدأت مرحلة المقارنة واستنباط القوانين التى خضعت لها اللهجات العربية فى عصورها الاولى وقوانين تطورها بعد الفتح الاسلامى[٢٨] .

ولم يكتف د. أنيس بهذه الخطة الطويلة الأمد ، بل حرص أيضا على شرح منهج الدراسة العلمية للهجات الحديثة ، وأن هذه الدراسة يجب أن تبدأ وصفية ، يقول : « ودراستنا للهجات يجب أن تبدأ وصفية ، نشرحها ونسجلها ونحلل أصواتها وكلماتها دون التعرض فى البدء الى أى نوع من المقارنات أو الحكم على أى صلة بلهجة قديمة فاذا فرغنا من الدراسة الوصفية التحليلية لكل لهجة من اللهجات الحديثة نكون قد حققنا أغراضا جليلة منها :

١ ــ تسجيل لهجاتنا التى تكون مرحلة تاريخية من حياتنا الاجتماعية .

٢ ــ اشباع رغبة العلماء فى الدراسات الاكاديمية البحتة للهجات.

٣ ــ تصبح تلك الدراسة نواة أو مادة نستغلها فى دراسة اللهجات العربية القديمة[٢٩] .

---

(٢٨) المرجع السابق ، ص ٥ ــ ٩ .
(٢٩) المرجع السابق ، ص ٩ ــ ١٠ .

ولان الدراسة الوصفية للهجات تختلف عن الدراسة التاريخية لها ، وقد يؤدى الخلط بينهما الى احكام لغوية غير صحيحة ، نراه يشير الى ذلك فى حديثه حول ظاهرة الترادف • الذى أنكر وقوعه بعضهم ، وأيده آخرون • ولكنه يرى أن الذين أثبتوا الترادف كانوا ينظرون الى الثروة اللغوية نظرة تاريخية • وهذا الاتجاه ، كما يقول هو الذى يعبر عنه المحدثون من علماء اللغات بمصطلح Diachronic (٣٠) • أما الذين رفضوا الترادف فقد كانوا ينظرون الى الثروة اللفظية نظرة وصفية ، وتلك هى التى يعبر عنها المحدثون بمصطلح Synchronic أى النظر الى اللغة كما هى فى عصر من العصور دون الاعتبار لما كانت عليه قبلا ، فهى نظرة وصفية تحليلية ، وهى النظرة التى نؤثرها هنا ، كما يقول ، ونبحث الترادف فى ضوئها(٣١) •

ثم يعود مرة أخرى الى الاشارة الى الفرق بين المنهج التاريخى والمنهج الوصفى فى بحثه للمشترك اللفظى(٣٢) •

ويكتفى د• أنيس بهذه الاشارات السريعة الى منهجين من أهم مناهج النظرية اللغوية الحديثة ، والذى استطاع دى سوسير عن طريق التفريق بينهما أن يوجه الدراسة اللغوية وجهة جديدة • ولاشك أن الامر كان يحتاج الى فضل بيان أكثر من ذلك ، ولكن عبء تفسير وشرح هذين المنهجين وقع على كاهل تلاميذه من بعده ، كما سنرى •

وعندما بدأ فى تحديد مصطلح اللهجة Dialect مقابل مصطلح اللغة Language يتخذ من فكرة الخصائص المميزة Distinctive Features معيارا لهذا التحديد • وهى أحد المبادىء أو الافكار الرئيسية التى عولت عليها مدرسة براج فى تحديد العناصر المكونة للبنية اللغوية•ولكنه يكتفى بالاشارة السريعة دون الشرح يقول : معرفا اللهجة « اللهجة فى

---

(٣٠) المرجع السابق ، ص ١٤٢ •
(٣١) المرجع السابق ، نفس الصفحة •
(٣٢) المرجع السابق ، ص ١٥٤ •

الاصطلاح العلمى الحديث هى مجموعة من الصفات اللغوية التى تنتمى الى بيئة خاصة ، ويشترك فى هذه الصفات جميع أفراد البيئة • وبيئة اللهجة هى جزء من بيئة أوسع وأشمل تضم عدة لهجات لكل منها خصائصها المميزة ، ولكنها تشترك جميعا فى مجموعة من الظواهر اللغوية التى تيسر اتصال أفراد هذه البيئة بعضهم ببعض ••• وتلك البيئة الشاملة التى تتألف من عدة لهجات ، هى التى اصطلح المحدثون على تسميتها باللغة[٣٣] • ولكنه يضيف ملمحا آخر يميز اللغات وهو العادات الكلامية Speech habits التى يرى المحدثون من علماء اللغات أنها تميز كل لغة عن الاخرى[٣٤] •

ولكن هذه العادات الكلامية قد تكون مميزا للهجات أيضا ، ولذلك يرى أن دراسة هذه العادات يقتضى تحليلها الى مستويات صوتية وصرفية ونحوية ودلالية ، وذلك على النحو التالى

١ ــ ما يتعلق بالاصوات وطبيعتها وكيفية صدورها Phonetics

٢ ــ ما يتعلق ببنية الكلمة ونسجها Morphology •

٣ ــ ما يتعلق بتركيب الجمل Sentax •

فالصفات التى تتميز بها كل لغة تتألف عنده من هذه العناصر اللغوية الثلاثة • والبحث فى عادات كل لغة يعرض الى كل منها ، ولكنه يضيف بعد ذلك فرعا رابعا يعرض له الباحث فى اللغات ، وهو ، كما يقول معانى الكلمات ودلالتها Semantex [٣٥] •

ولكنه يرى أن المميز الوحيد ، أو بعبارة أخرى ، أن الخصائص المميزة لاى لهجة تنحصر فى الجانب الصوتى[٣٦] • ولكن من الغريب حقا

---

(٣٣) المرجع السابق ، ص ١١ •
(٣٤) المرجع السابق ، نفس الصفحة •
(٣٥) المرجع السابق ، ص ١٢ ــ ١٣ •
(٣٦) المرجع السابق ، نفس الصفحة •

أنه رأى كما أشرنا من قبل أن كتابه فى الاصوات أقرب الى الدراسة الفونولوجية منه الى الدراسة الصوتية الخالصة • ومع ذلك نراه فى كتاب اللهجات العربية يتحدث عن المستوى الصوتى ، ويضرب صفحا عن ذكر المستوى الفونولوجى • وهو جوهر ، أو حجر الزاوية فى تحليل اللهجات، كما قال • كما أنه عند ذكره للمستوى المورفولوجى لا يشرح مفهوم المورفيم ودوره فى التحليل • غير أن مراجعه تضم كتاب بلومفيلد •

وبناء على تصوره أن الصفة المميزة تتركز فى المستوى الصوتى ، يحدد مجال دراسته لرصد وتحليل الخصائص الصوتية المميزة للهجات فيما يلى :

١ ــ الاختلاف فى مخرج بعض الاصوات •

٢ ــ الاختلاف فى وضع أعضاء النطق مع بعض الاصوات •

٣ ــ الاختلاف فى بعض أصوات اللين (الحركات) •

٤ ــ تباين فى النغمة الموسيقية للكلام •

٥ ــ الاختلاف فى قوانين التفاعل بين الاصوات المتجاورة حين يتأثر بعضها ببعض •

٦ ــ الاختلاف فى صفة بعض الاصوات من جهر وهمس أو شدة أو رخاوة[٣٧] •

وبناء على هذه الاسس يمضى فى تتبع أهم المميزات الصوتية التى تميز لهجة عن أخرى ، معتمدا فى ذلك على ما رواه المؤرخون والرواة عن هذه اللهجات •

بهذه الدراسة عن اللهجات العربية يتضح هيكل التحليل البنيوى للغة فى أعمال د• أنيس ، ففى هذا الكتاب عن اللهجات العربية ، يضيف

---

(٣٧) المرجع السابق ، ص ٥ •

الى المستوى الصوتى الذى سبق أن خصه بكتاب مفرد ، مستويات التحليل الاخرى المورفولوجية والنحوية والدلالية • ولكن التحليل الفونولوجى هو الذى يغلب على هذا الكتاب نظرا لانه يتجه بطريق مباشر الى دراسة اللهجات العربية • وبالرغم من اشاراته السريعة لعدد من المصطلحات والمفاهيم البنيوية ، الا أن الكتاب كان يتجه منذ صفحاته الاولى الى التطبيق دون التنظير ، وهو عبء آخر سيقع على كاهل تلاميذه من بعده ، كما سنرى •

واذا كان التراث العربى القديم قد ألم بدراسة الاصوات العربية، وكذا دراسة اللهجات ، فان الدراسة الدلالية لم تحظ حتى ظهور كتاب « دلالة الالفاظ » (١٩٥٨ م) بدراسة مستقلة ، اذ كانت الدراسات الدلالية للغة العربية مبثوثة فى كتب اللغة والادب والفقه والتفسير ومن هنا اكتسب كتاب دلالة الالفاظ شهرة فى أواسط الباحثين اذ ضم بين دفتيه آراء القدماء والمحدثين حول الدلالة ومفهومها وتطورها •

واذا كان علماء اللغة المحدثون قد اختلفوا حول المعنى ودوره فى التحليل اللغوى ، حتى أصبح النظر الى المستوى الدلالى يفرق بين مدرسة لغوية وأخرى ، الا أن د• أنيس ينطلق فى كتابه هذا من مقولة ترى أن دراسة الدلالة هى قمة التحليل اللغوى وهدفه النهائى • اذ الغاية من اللغة هى الاتصال والتفاهم ، وبدون دراسة المعنى يصبح التحليل اللغوى لغوا لا طائل من ورائه •

ولا نكاد نلمح فى هذا الكتاب التزاما بآراء مدرسة لغوية معينة بالرغم من أنه صرح بأ• « سيسلك مسلك اللغويين فى دراسة وبحث الدلالة ونعالجها كما يعالج اللغوى الحديث ذلك الفرع من الدراسات اللغوية المسمى لدى الاوروبيين Semantex (٣٨) • ولذلك نجد أن الكتاب يحتوى على عدد من النظريات المتجانسة والمتعارضة أحيانا ، اذ غلب عليه العرض للدراسات الدلالية عند الفلاسفة والمناطقة وعلماء

---

(٣٨) دلالة الالفاظ ، ص ٧ •

اللغة وعلماء النفس والاجتماع ، بل عند الادباء والكتاب والصحفيين • كما اهتم بعرض النظريات المختلفة فى نشأة اللغة والكلام عند الانسان، ومراحل اكتساب اللغة عند الطفل ، لكن الكتاب يخلص بعد ذلك الى أفكار هامة فيما يتصل بالتحليل اللغوى وعلاقته بالمعنى ، ويتمثـل ذلك فيما يلى :

١ ــ أنواع الدلالات •

٢ ــ العلاقة الرمزية بين اللفظ والمعنى •

٣ ــ المركز والهامش فى الدلالة •

٤ ــ عوامل التطور الدلالى وقوانينه •

٥ ــ الدلالة والترجمة •

أما فيما يتصل بأنواع الدلالات فنجده يتعرض للتحليل المورفولوجى للبنية اللغوية بما له من صلة بالدلالة ، ويرجع فى هذا التحليل الى ادوارد سابير ، مع أن كتاب بلومفيلد عن اللغة هو العمدة فى ذلك ويضعه ضمن مراجعه ، بل نقل عنه تعريفه للكلمة(٣٩) •

وفى هذا الصدد يعرض لمصطلح المورفيم كمفهوم دون أن يستخدم المصطلح نفسه أو يعرف به ، وانما يكتفى بالاشارة الى أن تحليل الكلام الى عناصر أو وحدات ذات دلالة يقسم الكلام الى مجموعات صوتية مستقلة بعضها يصلح أن يكون كلمة ، وبعضها يصلح أن يكون جزءا من كلمة • ولكى يدلل على ذلك يحلل الجملة التالية الى مورفيمات أو وحدات ذات دلالة ، كما يقول ، دون أن يذكر ، كما قلت ، مصطلح المـورفيم وأنواعـه •

أما الجملة فهى « قطعت الشجرة بالفأس ليلة أمس » ويحللها على النحو التالى :

---

(٣٩) المرجع السابق ، ص ٤٣ •

قطع + ت + ال + شجـرة + ب + ال + غاس + ليـلة أمس وهولا يضع هذا التحليل على هذه الصورة ، وانما يذكرها الواحدة بعد الاخرى • ولكنه يحدد دلالة هذه الوحدات أو العنصر الاول كما يقول بأنه يدل على الحـدث أو الفعلية ، والثانى على المتكلم ، والثالث على التعريف والرابع النبات المعروف والخـامس الآلة والسادس التعريف والسابع الاداة المعروفة والثامن الزمنية(٤٠) •

وكل عنصر من هذه العناصر يصلح أن يكون كلمة أو جزءا من كلمة ولو أنه حدد أنواع المورفيمات واستخدم المصطلح لجاء التحليـل أكثر وضوحا ، يضاف الى ذلك أنه عد ليلة أمس مورفيما واحدا يتكون من كلمتين وهما فى الواقع مورفيمان حران كل منهما يدل على معنى الزمن، ولكن يبدو أن الدكتور اعتبرهما مورفيما واحدا نظرا لدلالتهما معا على معنى واحد ، ولكن ذلك لا ينفى أيضا أنهما مورفيمان • ويبـدو أنه لم يستخدم مصطلح مورفيم لرغبته فى عدم اقحـام مصطلحات أجنبية قد تصدم القارىء العربى فى ذلك الوقت • ويكتفى د• أنيس بهذا التحليل المورفولوجى بما له من صلة بالدلالة كتمهيد للحديث عن أنواع الدلالات، وهو يقسمها الى :

١ ــ الدلالة الصوتية :

حيث يعتمد فى هذه الدلالة على القيمة الدلالية للصوت أو الفونيم • وهو يسلم دون مناقشة بهذا النوع من الدلالة الصوتية ، ويعزوه الى ايثار صـوت على صـوت فى بناء الكلمة • ويقـرن بين هذا اللون من الدلالة الصوتية وبين النبر والتنغيم اللذين يعدهما من مظاهر الدلالة الصوتية(٤١) • وهما كذلك فعلا ، غير أن النبر والتنغيم ينتميان الى نوع من الفونيمات يختلف عن تلك التى فى بنية الكلمة • ولذلك يشير اليهما علماء اللغـة بمصطلح مستقل وهو مصطلح الفـونيم فـوق التركيبى

---

(٤٠) المرجع السابق ، نفس الصفحة .
(٤١) المرجع السابق ، ص ٤٦ ــ ٤٧ .

Supersegmental phoneme. تمييزا له عن الفونيم المكون لبنية الكلمة ، والذى لا معنى له فى ذاته وانما يكتسب مع غيره من الفونيمات دلالة رمزية اعتباطية •

٢ ــ الدلالة الصرفية :

وهى الدلالة الوظيفية المستمدة من مورفيم الصيغة ، أو ، كما يقول، هى الدلالة المستمدة عن طريق الصيغ • فكلمة كذاب تدل على المبالغة عن كلمة كاذب • فاختلاف الصيغة باستعمال الاولى يمد السامع بقدر من الدلالة يختلف عن كلمة كاذب •

٣ ــ الدلالة النحوية :

وهى الدلالة المستمدة عنده من نظام الجملة وترتيبها ترتيبا خاصا،من حيث موقع كل كلمة داخل الجملة •

٤ ــ الدلالة المعجمية أو الاجتماعية :

وهو لا يفرق بينهما فى بداية حديثه عنهما ، ويرى أن الدلالة المعجمية هى الدلالة الاجتماعية ، ولكنه يستدرك ذلك بعد قليل فيقول ان بعض اللغويين المحدثين يميلون الى التفرقة بين الدلالة المعجمية والدلالة الاجتماعية • ولكنه يعود مرة أخرى الى التسوية بينهما فيقول ان المعاجم قديمها وحديثها تتخذ من الدلالة الاجتماعية هدفا أساسيا لها فلا غرابة ألا يفرق بعض اللغويين بين الدلالة المعجمية والدلالة الاجتماعية ، وهذا ما ارتضيناه هنا ، فكلما ذكرنا الدلالة المعجمية لا نعنى بها سوى الدلالة الاجتماعية(٤٢) •

والواقع أن هناك فرقا بين الدلالة المعجمية والدلالة الاجتماعية ، يتفق عليه علماء اللغة • فالدلالة المعجمية أو المعنى المعجمى للكلمة هو ما تشير اليه الكلمة أو ترمز اليه • وهو الدلالة الاصلية للكلمة ، فى

---

(٤٢) المرجع السابق ، ص ٤٨ ــ ٥١ •

حين أن الدلالة الاجتماعية تضيف بعض الدلالات الاخرى الى هذا المعنى الاصلى • فكلمة ثعلب مثلا لها معنى معجمى هو هذا الحيوان المعروف ، ولها بالاضافة الى ذلك معنى اجتماعى فيما يدل عليه اللفظ من مكر ودهاء• وهو ما أشـــار اليه د• أنيس تحت مصطلح الدلالة المـركزية والدلالة الهامشية »[٤٣] •

أما فيما يتصل بالعلاقة بين اللفظ والمعنى فهو يستعرض آراء القدماء من فلاسفة اليونان مثل سقراط وأفلاطون وأرسطو وعلماء العربية القدماء مثل ابن جنى وابن فارس ، وآراء بعض علماء اللغة مثل جسبرسون فى العلاقة الطبيعية والعرفية فينتهى الى أن هذه العلاقة ، مهما كانت فهى لا تخرج فى الحقيقة عن كونها علاقة رمزية اعتباطية •

ثم ينتقل بعد ذلك الى المركز والهامش فى الدلالة • وهنا يتخلى عن فكرة التسوية بين المعنى المعجمى والمعنى الاجتماعى ، ويسلم بوجود معان هامشية ، بالاضافة الى المعانى الاصلية ، أو ما أطلق عليه المعنى المركزى • وهذه المعانى الهامشية هى التى يختلف حولها الناس والكتاب والمفكرون ويستغلها المحامون والادباء والسياسيون[٤٤] •

أما فى مظاهر التطور الدلالى فيتحدث عن قوانينه ، وعن الحقيقة والمجاز ، باعتبار أن المجاز مظهر من مظاهر التطور الدلالى ، ويرى أن الاستعمال هو المحرك الاول للتغير اللغـوى بعـامة والدلالى خاصة • ويحدد قوانين التغير الدلالى كما حددها علماء اللغة المحدثون فى أربعة قوانين تنتظم هذا التغير ، وهى : تخصيص الدلالة وتعميمها وانحطاطها ورقيها • ويضرب أمثلة كثيرة من اللغة العربية واللغات الاخرى ثم ينتهى من كتابه بالحديث عن مشكلات الترجمة وعلاقتها بالدلالة ، ســواء فى ترجمة الكتب المقدسة أو غيرها • ويقارن بين ترجمات لصور من القرآن

---

(٤٣) المرجع السابق ، ص ١٠٦ ـ ١٢١ •
(٤٤) المرجع السابق ، ص ١٧٢ •

الكريم لينتهى الى ان اختلاف الترجمات يرجع الى اختلاف تجارب المترجمين مع الكلمات ، وما يحيط بها من ظلال المعانى .

وهذه الموضوعات التى تناولها د. أنيس فى كتابه دلالة الالفاظ تتصل كما قلت ، اتصالا مباشرا بعلم الدلالة ، سواء من الناحية النظرية أو التطبيقية . وبذلك تكتمل فى أعماله الصورة العامة للتحليل اللغوى البنيوى ، صوتيا ، وصرفيا ، ونحويا ، ودلاليا . واذا جاز لنا أن نأخذ شيئا على أعمال هذا الرائد ، فهو استخدامه للمصطلحات اللغوية أحيانا استخداما غير واضح فى هذا اللون الجديد من الدراسة اللغوية،واكتفاؤه أحيانا بالاشارة العابرة الى مناهج أصيلة فى النظرية اللغوية الحديثة . ويبدو أن ما دفع د. أنيس الى هذه الوجهة أنه كان يشعر شعورا قويا بأنه يشق طريقا جديدة فى التفكير اللغوى العربى ، فلم يشأ أن يخوض فى تفاصيل دقيقة قد تحول دون تقديم الاطار العام لهذا الفكر الجديد . ومن ثم لم يلتزم فى مؤلفاته باتجاه معين ، أو مدرسة لغوية معينة من المدارس اللغوية الحديثة ، وبالتالى لم تظهر فى أعماله آثار الاتجاهات المختلفة للمدارس اللغوية التى سيطرت على الفكر اللغوى الاوروبى والامريكى ، مع نهاية النصف الاول من القرن الحالى ، ابان بعثته فى جامعة لندن . ولكن مؤلفاته شاركت بلا شك فى تمهيد الارض وتنبيه الاذهان الى أفكار ومبادىء أساسية حول النظرية اللغوية الحديثة .

غير أننا لا نستطيع ، ونحن نرصد البدايات الاولى لتقديم النظرية اللغوية الحديثة أن نهمل كتابين مترجمين ظهرا مع نهاية الخمسينيات من هذا القرن ، وكان لهما أثر واضح فى القاء الضوء على التفكير اللغوى الغربى .

أما الكتاب الاول فقد ترجمه عن الفرنسية د. محمد مندور ونشره تحت عنوان « منهج البحث فى الادب واللغة » (١٩٤٦م) وهو يتألف من مقالتين ، احداهما فى منهج البحث فى الادب كتبها العالم الفرنسى لانسون والاخرى فى منهج البحث فى اللغة كتبها عالم اللغة الفرنسى أنطوان ميبه ، وترجمها د. مندور تحت عنوان « علم اللسان » وفى هذه

المقالة الثانية يظهر لاول مرة بشكل واضح منهج التحليل اللغوى البنيوى الى مستوياته المختلفة وطبيعة العلاقة بين هذه المستويات « لان اللغة شيء مركب ينبغى تحليله الى أبسط عناصره المتمثلة فى الفونيمات »[٤٥]. ومن الفونيمات ننتقل الى المورفيمات أو عوامل الصيغة ، كما ترجمها د. مندور . وهنا نجد أننا بصدد عنصر لغوى به يتحقق المعنى أو جزء منه[٤٦] . وعوامل الصيغة أو المورفيمات يمكن أن تكون فونيما خاصا أو مركبا ، والنوع الثانى يتصل مباشرة بالنظم أو علم التراكيب Syntax ولذلك يجمعان فى باب واحد هو باب النحو[٤٧] .

وبذلك ينتهى التحليل اللغوى الى التمييز بين ثلاثة أنواع من العناصر فى البنية اللغوية وهى :

١ ــ الاصوات ، وتلك عناصر علم الاصوات .

٢ ــ المورفيمات ، أو عوامل الصيغة ، وتلك عناصر الصرف والنحو .

٣ ــ المفردات ، وتلك عناصر المعجم ، وجميعها شديدة الاتصال بعضها ببعض ، حتى ليمكن اعتبارها دراسة لشيء واحد من جهات ثلاث[٤٨] .

وبذلك تكتمل صورة التحليل البنيوى للغة ، كما ترجمه د. مندور عن « مييه » ولكن « أنطوان مييه » ممن ينتمون الى المدرسة الاجتماعية فى اللغة ، فهو من تلاميذ دى سوسير ومريديه . ومن ثم نراه يتعامل مع اللغة على أنها ظاهرة اجتماعية . أو كما يقول : « من الواجب على الباحث فى علم اللسان أن يواجه ، علاوة على العناصر التى تكون اللغة البشرية ، نوعا آخر من الوحدات ونقصد به اللغات المختلفة التى تعتبر بالنسبة له موضوعات مميزة للدرس ، وهنا تظهر الطبيعة الاجتماعية

---

(٤٥) منهج البحث فى الادب واللغة ، ص ٦٢ ــ ٦٣ .
(٤٦) المرجع السابق ، ص ٦٧ ــ ٦٩ .
(٤٧) المرجع السابق ، ص ٧٤ .
(٤٨) المرجع السابق ، ص ٨٠ .

لحقائق اللغة[٤٩] • ثم يتعرض بعد ذلك لمصطلحات علم اللغة العام ، كالفرق بين اللغة واللهجة ، والمستويات الاجتماعية للاستخدام اللغوى ، والفرق بين اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة • ثم يتوقف أخيرا أمام علم اللغة التاريخى المقارن ومنهج البحث فيه •

بهذه الترجمة لمقال « أنطوان مييه » عن علم اللسان تتضح بعض الحقائق حول النظرية اللغوية الحديثة ، سواء ، على مستوى التحليل البنيوى أو الدراسة التاريخية المقارنة ، أو بعبارة أخرى ، يتضح الفرق بين البنيوية والوصفية والدراسة التاريخية • وفى هذا الكتاب قدم د• مندور ترجمة موفقة لمصطلحين هامين من مصطلحات علم الاصوات هما مصطلح «الصائت» Vowel ومصطلح «الصامت» Consonat [٥٠] • اللذين قدر لهما أن يشيعا بعد ذلك فى المؤلفات العربية فى علم اللغة •

أما الكتاب الثانى فهو أول ترجمة كاملة لكتاب له قيمته العلمية فى دراسة اللغة ، وهو كتاب ، اللغة لفندريس ، واضطلع بترجمته الاستاذ عبد الحميد الدواخلى ، والدكتور محمد القصاص رحمهما الله (١٩٥٠م)• وينتمى فندريس الى المدرسة اللغوية الاجتماعية الفرنسية مثل « أنطوان مييه » ويتخذ من التحليل البنيوى منهجا فى دراسة اللغة ، فهو يرى ، كما رأى مييه ، أن اللغة مركب معقد تمس فروعا من المعرفة مختلفة ، ويعنى بها طوائف من العلماء ، فهى فعل فسيولوجى من حيث أنها تدفع الى العمل عددا من أعضاء الجسم الانسانى ، وهى فعل نفسانى ، من حيث هى تستلزم نشاطا راديا للعقل ، وهى فعل اجتماعى من حيث هى استجابة لحاجة الاتصال بين بنى الانسان • ثم هى فى النهاية حقيقة تاريخية لا مراء فيها • تعثر عليها فى صور متباينة ، ومن ثم كان لنا أن نتصور أن دراسة اللغة يقوم بها عالم من علماء وظائف الاعضاء ، فيصف الطرائق التى تؤدى بها أعضاء الكلام وظيفتها ، أو عالم من علماء النفس فيحلل حركة التفكير مهتديا بنتائج علم الامراض العقلية ،

---

(٤٩) المرجع السابق ، نفس الصفحة •
(٥٠) المرجع السابق ، ص ٦٤ •

أو عالم من علماء الاجتماع فيظهر أثر النظام الاجتماعى فى تطور اللغات، أو مؤرخ يصنف اللغات فى أسر ، ويحدد توزيعها الجغرافى(٥١) .

وبعد هذا التحديد الشامل لظاهرة اللغـــة وتعقيداتها يبدأ فى بيان طرق ومناهج تحليل البنية اللغوية صوتيا ، من حيث عملية انتاج الصوت، وتصنيف السواكن « الصوامت » والحركات ، طبقا للمخارج والصفات ، ثم يتحدث عن النظام الصوتى للغة واختلافه باختلاف اللغات وأن لكل لغة نظاما صوتيا خاصا بها ، ويتغير هذا النظـــام مع الزمن تغيرا غـــير محسوس ، ولكن هناك قوانين صوتية تحكم هذا التغير وترصده(٥٢) . ثم ينتقل الى المستوى النحوى الذى يمزج فيه بين المورفولوجى والنحو ويترجم المترجمان مصطلح المورفيم Morpheme ترجمة غربية هى « دال النسبة » وهما يقصدان به الاسناد فى جملة مثل « الحصان يجرى » وهو نوع واحد من أنواع المورفيمات ، بالاضافة الى مورفيمات أخرى قد تكون فونيما أو مقطعا فى كلمة(٥٣) .

أما الفصائل النحوية التى يعبر عنهـــا بمورفيمـــات النوع والعدد والشخص والزمن والآلة وغير ذلك ، فهى تصنف تحت علم الصرف ، بالاضافة الى صلتها بالتحليل النحوى .

وفيما يتصل بالمفردات يعرض بالتفصيل للجوانب الدلالية من حيث العلاقة بين اللفظ والمعنى ، وتطور الدلالات والاسباب الاجتماعية وراء ذلك . وبذلك تكتمل صورة التحليل البنيوى للغة الذى يستغرق معظم الكتاب . ولكنه يضيف بابا رابعا يتصل بقضايا علم اللغة العام ، مثـــل علاقة اللغـــة بالجنس البشرى وعلاقة اللغـــة باللغات الاخرى وطبيعة اللهجات واللغات الخاصة ، واللغة المشتركة واحتكاك اللغات وصراعها ، والقرابات اللغوية ، والمنهج المقارن فى دراستها .

---

(٥١) اللغة ، ص ٢٤ ـ ٢٥ .
(٥٢) المرجع السابق ، ص ٤٣ وما بعدها .
(٥٣) المرجع السابق ، ص ١٠٥ .

وعلى الرغم من غموض ترجمة بعض المصطلحات ، وكذلك بعض العبارات الا أن ترجمه هذا العمل الضخم قد وضعت بين يدى القارىء العربى مع نهاية النصف الاول من هذا القرن حقائق أساسية عن علم اللغة البنيوى •

وهكذا أصبح أيضا بين أيدى الباحثين فى اللغة العربية لاول مرة عدد من المراجع ، وان كانت محدودة العدد ، وتختلف فى دقتها العلمية ، الا أنها كانت تمهيدا للخوض فى تفاصيل النظرية اللغوية الحديثة بصورة أكثر دقة وعمقا ، كما مهد هذا الجيل من الرواد بهذه الكتب لمؤلفات ودراسات أخرى كونت مع نهاية السبعينيات من هذا القرن اتجاها واضحا فى الدراسات اللغوية العربية الحديثة ، سواء فى مصر ، أو العالم العربى • ويرجع فضل تعميق هذه البداية وبلورتها ، بل ووضع أصول علم اللغة البنيوى وضعا علميا ، الى جيل أتى بعد هؤلاء الرواد بعضهم كان تلميذا لهم ، وبعضهم تلمذ على كتبهم • وهذا الجيل يمكن أن نصفه بحق بجيل الوصفيين العرب ، وهو موضوع الفصل الثالث والاخير من هذا البحث •

الفصل الثالث

العـربية والبنيوية الوصفية

تميز الجيل التالى لجيل الرواد بأنه كان من أبناء مدرسة لغوية واحدة ، هى مدرسة لندن ، التى أسسها العالم اللغوى الانجليزى فيرث، اذ تخصص معظمهم فى علم اللغة أو أحد فروعه فى جامعة لندن ، وبعد عودتهم من بعثتهم تصـدوا للتدريس والبحث اللغـوى فى الجامعات المصرية • ففى دار العلوم كان د• عبد الرحمن أيوب و د• تمام حسان ، و د• كمال بشر ، وفى جامعة الاسكندرية كان أستاذنا المرحوم د• محمود السعران ، واختلفت اتجاهاتهم فى تقديم عـلم اللغة للباحث العربى اختلافا واضحا • ويمكن أن نجمل هذه الاتجـاهات فى تيارات ثلاثة واضحة صاحبت تقديم النظرية اللغوية الحديثة وهى :

١ ــ الوصفية ونقد التراث اللغوى العربى •

٢ ــ التحليل البنيوى للغة •

٣ ــ تطبيق النظرية اللغوية الحديثة على اللغة العربية •

وسنعرض فيما يلى لهذه التيارات الثلاثة بالتفصيل •

أولا : الوصفية ونقد التراث اللغوى العربى :

ويمثل هذا الاتجاه أصدق تمثيل الدكتور عبد الرحمن أيوب،والدكتور تمام حسان ، فقد صدر كتابان ، فى عامين متتاليين ، الاول هو«دراسات نقدية فى النحو العربى» (١٩٥٧) للدكتور أيوب ، والثانى هو « اللغـة بين المعيارية والوصفية » (١٩٥٨) للدكتور تمام حسان •

أما الكتاب الاول ، فعنوانه يدل على محتواه دلالة مباشرة ، فهو نقد للتراث النحوى العربى قدم له ناقد قديم للنحو العربى هو الاستاذ ابراهيم مصطفى الذى يرى ، فى عمل المؤلف ، فجرا جديدا يحيى بحوث النحو ويعيد اليه سيرته الاولى[1] . وينطلق الدكتور أيوب فى نقده للنحو العربى من تجربة تدريسه له ، فى دار العلوم ، يقول : « رأيت حين عهد الى بتدريس النحو العربى فى دار العلوم ، أن فى مجرد تفسير عبارات النحاة نوعا من الاجترار العقلى ، لا يليق بعصرنا الذى نعيش فيه ، ولا ينهض فى هذا الدور الحاسم من أدوار الثقافة العربية . ولقد بلغت الشكوى من النحو العربى مدى أصبح من غير الممكن أن يتجاهل ، وكثر حديث الناس عن الحاجة الى نحو جديد ، وظن الكثير أن الامر لا يعدو اعادة تدوين النظريات النحوية بأسلوب حديث ، ولكن الامر ، عندى ، أعمق من كل هذا . فالنحو العربى شأنه فى ذلك شأن ثقافتنا التقليدية فى عمومها ، تقوم على نوع من التفكير الجزئى الذى يعنى بالمثال ، قبل أن يعنى بالنظرية . ومن أجل هذا ، جهد النحاة فى تأويل ما أشكل على القاعدة ، من أمثلة ، أكثر مما جهدوا فى مراجعة منطقهم ونظرياتهم على ضوء ما يشكل عليهم »[2] .

ومما يلفت النظر فى هذا النقد ، أننا أمام تعميم لا يقف عند حدود نقد التفكير النحوى عند العرب ، بل يتعداه الى الثقافة العربية كلها التى وصفها مع التفكير النحوى « بالتقليدية » . ومن ثم ، فنحن أمام تفكير نحوى تقليدى نعرفه ، ولون آخر من التفكير النحوى غير التقليدى ، لا نعرفه . ووصف علماء اللغة العربية القدماء ، والنحو العربى ، بمصطلح « التقليدية » هو تبنى لوجهة نظر أوروبية ، فى دراسة تاريخ الفكر اللغوى الانسانى . وهو وصف ينتظم عندهم ، الدراسات اللغوية قبل دى سوسير ، فى مقابل النظريات اللغوية الحديثة[3] .

---

(١) أنظر تقديم الاستاذ ابراهيم مصطفى للكتاب ، ص أ .
(٢) دراسات نقدية فى النحو العربى ، ص د .
(٣) Robins, Op. Cit. p.

وبناء على ذلك ، يستعد القارىء لتلقى النظرية غير التقليدية فى الدرس النحوى ، ليعرف أصولها ، ومنهجها ، ومصطلحاتها • ولكن هذا الظن سرعان ما يزول ، اذ بعد صفحات قليلة يبدأ المؤلف فى نقد التفكير النحوى العربى ، مكتفيا باشارات سريعة للمبادىء والاصول التى يستند اليها فى هذا النقد والتى تتلخص عنده فى احلال منهج مدرسة التحليل الشكلى School of formal analysis ، محل التحليل الجزئى والمنطقى للغة[٤] • وهو يمهد بهذه الاشارات المنهجية بذكر عيوب ومثالب التفكير النحوى التقليدى ، على نحو ما رأينا ، ثم يضيف الى نقده هذا ، نقدا آخر ، يقول : « وثمة عيب آخر فى التفكير النحوى التقليدى ، ذلك أنه لا يخلص الى قاعدته من مادته ، بل انه يبنى القاعدة على أساس من اعتبارات عقلية أخرى ، ثم يعمد الى المادة ، فيفرض عليها القاعدة التى يقول بها ، وهذا نوع من التفكير لا يمكن أن يوصف بأنه تفكير علمى بالمعنى الحديث[٥] • ثم يحدد أصول التفكير العلمى الحديث فى دراسة اللغة فى عبارة موجزة : « لقد اتسم التفكير اللغوى الحديث بموضوعية البحث ، واقتنع اللغويون بأن يكونوا وصافين للظواهر اللغوية ، لا مفلسفين لها »[٦] •

ومعنى هذا أن التفكير اللغوى العلمى عنده ، يقوم على قاعدتين أساسيتين هما :

١ ــ الموضوعية •

٢ ــ الوصفية •

ومعنى هذا أيضا أن التفكير النحوى التقليدى يفتقر الى هذين الاصلين • ولكى يزيد هاتين القاعدتين وضوحا وتحديدا ، يقوم بعرض

---

(٤) دراسات نقدية ، ص هـ .
(٥) المرجع السابق ، ص د .
(٦) المرجع نفسه ، ص هـ .

سريع وموجز لتاريخ الفكر اللغـــوى من حيث طغيان المنطق الارسطى على التفكير اللغوى فى العصور القديمة والوسطى وعصر النهضة •

وكان من أثر ذلك أن تجاهل اللغويون ، فى هذه العصور ، الخصائص المميزة لكل لغة ، وفرضوا عليها ــ كما يقول ــ ما ليس فيها ، مما يتجافى مع الموضوعية • فقد فرضوا قواعد النحو اللاتينى الذى كان يعد نموذجا ومثالا لاى محاولة فى التأليف النحوى ، حتى أصبح من المسلم به تقسيم الاسماء الى معارف ونكرات ، ومذكر ومؤنث وغير ذلك • وقد ظل الحال على هذا المنوال حتى جاء الاستعمار الاوروبى لاسيا وافريقية ، فواجه المستعمرون ضرورة التعرف على لغات الشعوب التى استعمروها ، ومن ثم ، حاولوا دراسة هذه اللغات ، على هدى من النحو اللاتينى • ولكن المحاولة باءت بالفشل ، واكتشفوا ما فى هذا النحو ، ومحاولة تطبيقه على اللغات ، من عيوب ، وبالتالى أصبح من الضرورى على اللغـــوى ، أن يخط لنفسه منهجا جديدا لا يعتمد على تراث أخذ من فلسفة الاغريق وقواعد اللغـــة اليونانية • وبناء على ذلك ، اتجـــه التفكير اللغوى الى التحليل المادى للغة ، فأصبحت دراسة الاصوات هى المدخل للدراسة اللغوية بمختلف فروعها •

وهو بهذا التأريخ الموجز للفكر اللغوى يتجه لتحديد المدرسة اللغوية التى سيطبق نظريتها فى نقد التفكير النحوى العربى • يقول : «وازدهرت اليوم مدرسة تسمى بالمدرسة التحليلية الشكلية shool of formal analysis وتنوعت نظرياتها وأصبحت الدراسة اللغوية فى بعض صـــورها أشبه بالمعادلات الرياضية»(٧) •

الموضوعية اذا عنده ، ألا نطبق على لغة قواعد لغة أخرى ، وتاريخ الفكر اللغوى الذى ذكره خير شاهد على ذلك •

أما الوصفية ، فيزيدها توضيحا عندما يشير الى وجود مذهبين فى

---

(٧) المرجع نفسه ، ص هـ ــ و •

الدراسة اللغوية ، أحدهما يبدأ بالجزء وينتهى الى الكل ، كما يفعل البناء حين يضع حجرا فوق حجر لينتهى الى بناء كامل ، وثانيهما ينظر الى البناء الكامل ويتبينه حجرا حجرا دون أن يزيح واحدا من الاحجار عن موضعه فى البناء • والصنيع الاول ، كما يقول ، صنيع من يكون الشىء ، والصنيع الثانى ، صنيع من يصف الشىء وتكوينه دون أن يدخل فيه • وهذا الفرق بين من يبنى البناء ويصفه ، هو عين الفرق بين المدرسة اللغوية التقليدية — ومنها مدرسة النحاة العرب — وبين المدرسة اللغوية التحليلية الحديثة التى تصف التركيب اللغوى دون أن تفصل أجزاءه بعضها عن بعض[٨] •

ثم يشير فى الهامش الى كتاب زيلج هاريس Z. Harris ، أستاذ ناعوم تشومسكى ، واسمه : Methods in structural Linguistics قائلا : « ولسنا فى حاجة هنا الى شرح الطريقة اللغوية التحليلية ونحيل القارىء الى كتاب الاستاذ زيلج هارس »[٩] •

ومعنى هذا أن الوصفية عند الدكتور أيوب ، هى وصفية المدرسة الشكلية الامريكية ، بل قمة الوصفية كما بلغتها على يد بلومفيلد ثم هاريس والذى يمثل قمة الصرامة والشكلية فى التحليل البنيوى للغة ، وهو يتمثل فى تصنيف العناصر اللغوية طبقا لوظيفتها الشكلية داخل الجملة[١٠] •

ومن الغريب حقا أن يرى الدكتور أيوب أن الوصفية تقتضى دراسة التركيب اللغوى دون أن تفصل أو تحلل أجزاءه بعضها عن بعض ، ومن الاغرب أن يستشهد على ذلك بعمل هاريس ، مع أن علم اللغة البنيوى الذى ينتمى اليه هاريس ، بل تنتمى اليه معظم المدارس اللغوية الحديثة

---

(٨) المرجع نفسه ، ص ٢ — ٣ •
(٩) المرجع نفسه ، هامش ص ٣ ، وانظر أيضا : الفصل الاول من هذا الباب •
(١٠) راجع الفصل الاول من هذا الباب •

والمعاصرة ، يؤمن بالتحليل اللغوى الى أصغر العناصر اللغوية الممثلة فى الفونيم ، لكى يتبين شبكة العلاقات التى تربط الاجزاء بالكل ، وهو ما يسمى عندهم ــ كما أشرنا من قبل ــ بالتحليل الى المكونات المباشرة Immediate Constituent Analysis القائم على فكرة التوزيع Distribution وهى فكرة تصنيفية تتصل بتصنيف وتوزيع العناصر اللغوية طبقا لوظيفتها فى التركيب • وهذان الاصلان ــ أعنى التحليل الى المكونات المباشرة ، والتوزيع ــ يتكاملان عند بلومفيلد وهاريس ، وذلك كله فى اطار التحليل البنيوى للغة •

ويبدو أن الدكتور أيوب قد شعر بحاجة القارىء الى مزيد من المعلومات عن هذه المدرسة اللغوية التى يستند اليها فى نقده للتفكير النحوى العربى ، فيعود الى الاشارة الى منهجها فى التحليل اللغوى قائلا : « ترى المدرسة اللغوية التحليلية أن يكون شكل الكلمة ، لامعناها، أساسا لتقسيمها • والتقسيم التحليلى الشكلى للكلمة يشمل دراسة مقاطعها وأجزائها ، كما يشمل مواضعها بين سواها من الكلمات»(١١) وهو بهذا يعود الى الاعتراف بالجزء الذى يتصل بالكل ، والذى ينبغى دراسته لذاته أحيانا •

وبالرغم من هذه الاشارات السريعة ، الى المدرسة اللغوية التحليلية والى أسماء بعض زعمائها ، الا أن القارىء المتأنى للكتاب يستطيع أن يجمع المبادىء والاصول التى على أساسها أقام الدكتور أيوب نقده للتفكير النحوى عند العرب ، والتى يمكن أن نوجزها فيما يلى :

١ ــ الوصفية مقابل التعليل الفلسفى والمنطقى •

٢ ــ استبعاد المعنى ، أو الدلالة ، فى تصنيف الوحدات اللغوية •

٣ ــ الاعتماد على الشكل والوظيفة أساسا للتصنيف •

---

(١١) دراسات نقدية ، هامش ص ١١ •

وبناء على هذه المبادىء يمضى فى تتبع أبواب النحو وفق الترتيب التقليدى لها فى كتب النحاة ، فيبدأ بأقسام الكلمة ، رافضا التقسيم الثلاثى لها ، لانه يرى أنه عين التقسيم اليونانى لاقسام الكلمة ، الذى يعتمد على الدلالة ، وقد أحس النحاة بقصور هذا التقسيم ـ كما يقول ـ فأكملوا تعريفهم لاقسام الكلام بما سموه «العلامات» ويرى أنها أكثر قيمة من التعريفات التى اتخذت من المعيار الدلالى ، وينتهى من مناقشة النحاة صدد هذا الى النتائج التالية :

١ ـ التعريفات الدلالية التى ذكرها النحاة لا تصلح ، وذلك لافتقارها الى شروط التعريف العلمى •

٢ ـ العلامات التى ذكرها النحاة هى وحدها التى تدخل الاسم أو الفعل أو الحرف فى نطاق الاسماء والافعال والحروف ، وتخرج سواها عن النطاق الخاص بها •

٣ ـ لما كانت العلامات هى التى تميز بين أقسام الكلام ، فانها هى التى يمكن أن يطلق عليها أنها جامعة مانعة ، وبالتالى يجب أن تكون العلامات هى أركان التعريف •

وهذا يفضى بنا ـ كما يقول ـ الى رأى مدرسة الشكلية فى الدراسات اللغوية التى تتحكم فى تصنيف أقسام الكلام ، لا باعتبار الدلالة بل باعتبار الشكل ، كعدد الحروف فيها ، وترتيبها ، أو غير ذلك من الامور المادية(١٢) •

وكما حكم المعيار الشكلى فى تقسيم أقسام الكلام ، ورفض المعيار الدلالى ، يرفض أيضا علل الاعراب والبناء ، التى قال بها النحاة ، لانها علل منطقية تقوم على التمييز بين الكلمات من حيث القوة والضعف ، فالكلمة القوية تتميز بالاعراب ، والكلمة الضعيفة تتميز بالبناء • ومعنى

---

(١٢) المرجع نفسه ، ص ٧ ـ ٢١ •

هذا عنده أن تكون اللغة قد وضعت وضعا صناعيا ، لا طبيعيا ، فخصص واضعها صيغا ثابتة للاسماء وأخرى للافعال وثالثة للحروف ، مع أن الثابت أن اللغة لم توضع وانما نشأت ، وأن تطور استعمال الصيغ قد يجعل بعض الصيغ التى كانت تستعمل فى وقت ما استعمال الاسماء ، تستعمل فى وقت آخر استعمال الافعال أو الحروف • كما أن الكلمة التى نطلق عليها مصطلح « اسم » ليست أقوى من الكلمة التى نطلق عليها مصطلح « فعل » أو « حرف » فالجميع يتكون من مجموعة من الاصوات لا مجال لافتراض القوة أو الضعف فيها[١٣] •

من أجل هذا يرى عدم منطقية فروض النحاة من ناحية ، وعدم التلازم بين هذه الفروض والنتيجة التى يسعون اليها من ناحية أخرى• أى عدم وجود تلازم بين تحقق العلامة الاعرابية وبين الحاجة الى تمييز المعانى التركيبية المختلفة ، واذا انعدم التلازم انعدمت السببية[١٤] •

على هذا النحو يمضى فى بقية أبواب المفرد ، مثل المعرفة والنكرة والضمائر ، والعلم ، واسم الاشارة ، والاسماء الموصولة ، وفى جميع هذه الابواب يرفض المعيار الدلالى ويقول بالمعيار الشكلى الذى يحدد وظائف العناصر اللغوية •

أما فى باب الجملة ، فيقف عند تعريف النحاة للكلام ، بأنه « ما دل على أكثر من معنى مفرد وأفاد فائدة تامة » حيث يلاحظ أن هذا التعريف يصلح لان يطلق على جملة واحدة كما يصلح أيضا لان يطلق على عدد لاحصر له من الجمل• ومعنى هذا عنده أن الكلام أعم من الجملة ، وهو بهذا الاعتبار تعريف قريب من تعريفات علماء اللغة للكلام[١٥] • ولكنه يتوقف أمام مفهوم الجملة عند علماء اللغة ، ويرى أن هؤلاء العلماء قد فرقوا تفريقا دقيقا بين الجملة باعتبارها أمرا واقعيا ، وبينها باعتبارها

---

(١٣) المرجع نفسه ، ص ٢٢ ـ ٣١ •
(١٤) المرجع نفسه ، ص ٣٣ •
(١٥) المرجع نفسه ، ص ١٢٥ •

نموذجا يصاغ على قياس منه العديد من الجمل الواقعية ، فمثلا عبارة مثل : « المبتدأ والخبر جملة اسمية » تصف نموذج الجملة الاسمية بينما عبارة مثل : « محمد قائم جملة اسمية » هى مثال واقعى لهـذا النموذج المشار اليه فى العبارة الاولى • واذا صح ان العبارة الاولى تصف نموذج الجملة بالاسمية ، وان الثانية تصف مثالا لها ، فانه من اللازم أن نفرق بين نماذج الجمل التى توجد فى لغة من اللغات وبين الامثلة التى تتردد فى استعمالنا لكل منها • ومن ثم فان مجموع نماذج الجمل فى لغـة من اللغات ، هو ما يسمى بعلم النحو Syntax • أما الامثلة التطبيقية لهذه النماذج فليست علما ، بل أحداثا واقعية سماها علماء اللغـة المحدثون الكلام(١٦) •

ومعنى هذا أن علم النحو لا يتعامل مع جملة واقعية ، وانما يتعامل مع نماذج مجردة للجمل ، وهذه التفرقة قد تبدو لاول وهلة أثرا من آثار المدرسة الشكلية ، أو أثرا من آثار التفكير اللغوى الحديث ، ولكن بقليل من التأمل نجد أن علماء العربية القدماء ، لم يفرقوا حقا هذه التفرقة النظرية بين نماذج الجمل والجمل الواقعية ، وانما كانوا يتعاملون مع الاولى من خلال الثانية ، ولا سبيل غير ذلك ، والا فكيف نفهم الجمـلة الفعلية مثلا اذا قلنا أنها عبارة عن :

الجملة الفعلية ← فعل + فاعل + (مفعول)

فان هذا النموذج التجريدى لا يفيد افادة « ضرب زيد عمرا » أو « قام زيدا » ومع ذلك فان النحاة كانوا يقصدون بالامثلة التى تداولوها ولم تتغير على مر العصور مثل : « ضرب زيد عمرا » و « قام زيد » و « زيد ابوه قـائم » ••• الخ لاشك أنهم كانوا يقصـدون النموذج التجريدى دون المثال الواقعى • ومن ثمة فان عنصر التجريد ، أو ماأسماه الدكتور أيوب « النماذج التركيبية » متوافرة فى النحو العربى ، وليست كل تحليلات النحاة منصبة على تفسير الجمل الواقعية دون النموذج •

---

(١٦) المرجع نفسه ، نفس الصفحة .

ولكنهم بلا شك أهملوا عناصر أخرى تدخل فى تحديد الجملة مثل النبر ، والتنغيم ، لان الجملة ليست مجرد مجموعة من الكلمات ، بل هى الى جانب هذا عدد من النماذج التركيبية المتداخلة .

أما عن علاقة مفهوم الجملة بالقضية المنطقية فيرى الدكتور أيوب ، أن النحاة قد عرفوا الجملة فى ضوء القضية المنطقية من حيث أنها تتركب من أركان ثلاثة هى : المسند والمسند اليه والرابطة . ولكنه ينسب هذا التعريف الى البلاغيين ، أما النحاة فلم يقولوا بأن الرابطة جزء من الجملة ، لان الجملة الاسمية العربية ليست فيها رابطة لفظية ، ولكنهم يقولون بالرابط فى حالة كون خبر المبتدأ ظرفا أو جارا ومجرورا ، حيث يرون أنهما متعلقان بمحذوف تقديره كائن وهذا المحذوف نظير الرابطة[١٧] .

والواقع أن هذا المحذوف ليس نظيرا للرابطة كما هى عند المناطقة وانما هو خبر المبتدأ أو الجار والمجرور أو الظرف ، وهو مجرد قيد له[١٨] ولذلك لم يرد ذكر الرابطة عند سيبويه والنحاة الاوائل ، بل ان سيبويه قسم الكلام الى اسم وفعل وحرف ، فقال : « الكلم اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل »[١٩] ومثل للحرف بحروف العطف والاستقبال والقسم والاضافة[٢٠] ، كذلك لم يعرف سيبويه الجملة ، وانما عرض لامثلة تطبيقية لها فتناولها لينتهى الى النموذج التجريدى لها فى تعريفه للجملة حيث يقول : « هذا باب المسند والمسند اليه ، وهما مما لا يغنى واحد منهما عن الاخر ، ولا يجد المتكلم منه بدا »[٢١] ثم يمثل لذلك بالجملة الاسمية فيقول : « فمن ذلك الاسم المبتدأ والمبنى عليه ، وهو قولك : عبد الله أخوك ، وهذا أخوك »[٢٢] .

---

(١٧) المرجع نفسه ، ص ١٢٨ .
(١٨) أنظر ابن عقيل ، شرح الالفية ١٨٩/١ .
(١٩) الكتاب ١٢/١ .
(٢٠) سيبويه ، الكتاب ١٢/١ .
(٢١) المصدر السابق ٢٣/١ .
(٢٢) المصدر نفسه ، نفس الصفحة .

ومع ذلك فان عمل النحاة المتأخرين لم يكن بعيدا عن المنطق ، ويكفى دليلا على ذلك قول ابن هشام : « ان المعانى ثلاثة : ذات وحدث ورابطة للحدث بالذات•فالذات الاسم ، والحدث الفعل ، والرابطة الحرف»(٢٣)•

وفى تقسيم الجملة الى اسمية وفعلية ، يرى الدكتور أيوب أن هذا التقسيم متأثر أيضا بالمنطق الارسطى ، ولم يكن النحاة العرب وحدهم مقلدين لفلاسفة الاغريق — كما يقول — وانما سار على نفس الطريق النحـاة الغربيون ، فالجمـلة عندهم تتكون من مسند اليه Subject ومن مسند Predicate ، ثم يقول : « وهـذان اللفظان منقولان عن اصطلاحين من اصطلاحات ارسطو المنطقية هما باللاتينية , Praed.catum Subiectum ، وقد استعمل ارسطـو نفس هـذين الاصطـلاحين فى حديثه عن اللغة ، وهذا أمر له دلالته»(٢٤) •

والواقع أن أرسطو عرف الجملة ولكنه لم يستخدم هذين المصطلحين وانما عرفها على أنها قسم من أقسام الكلام ، له معنى ولبعض أجزائها معنى مستقل باعتباره لفظا ، وان كان لا يعبر عن حكم(٢٥)•

وهذا التعريف يميز الجملة من الكلمة ، لان جزء الكلمة لا يدل على معناها ، ويبدو أن هذا التناول قد أثر فى التفكير اللغوى فيما بعد ، من حيث تحليل الكلام الى وحدات مرفولوجية •

على أن أهم ما فى التناول الارسطى للجملة أنه لم يهتم الا بالجملة الخبرية ، ذلك لان المنطق يقوم على فكرة القياس ، وهو يتكون من ثلاث قضـايا Propositions ، مقدمتين ونتيجـة ، كل منهمـا تثبت أو تنفى شيئا ، وكل جملة تتكون من موضوع ومحمول ، وقد يكون المسند اليه والمسند ترجمة لغوية متأثرة بالموضوع والمحمول عند أرسطو(٢٦) •

---

(٢٣) شذور الذهب ، ص ١٣ — ١٤ •
(٢٤) دراسات نقدية فى النحو العربى ، ص ١٢٨ •
(٢٥) د• عبده الراجحى ، النحو العربى ، ص ١٠٢ •
(٢٦) المرجع السابق ، ص ١٠٢ — ١٠٣ •

ولن نمضى أكثر من ذلك فى تتبع «دراسات نقدية فى النحو العربى» وما سلف يكفى للتدليل على منهج الدكتور أيوب فى نقد الفكر النحوى العربى وقصدنا هنا المنهج دون الامثلة الجزئية • غير أن تطور الفكر اللغوى الحديث والمعاصر ، أثبت أن بعض المعايير التى استند اليها دكتور أيوب فى نقده للنحو العربى لا تعد مآخذ حقيقية خاصة فيما يتصل بالعنصر المنطقى فى هذا النحو • فنظرية تشومسكى تقوم على أصول منطقية وعقلية ونفسية[٢٧] ومن ثم ، فان أى محاولة لنقد الفكر اللغوى العربى ، دون اكتشاف نظريته الاصيلة ، هى محاولة محفوفة بالمخاطر ، بل هى من قبيل المغامرة التى تنتظر حكم التاريخ •

وقد سادت مدرسة التحليل الشكلى ، أو التحليل الى المكونات المباشرة التى استند اليها الدكتور أيوب فى نقده ، قبل ظهور نظرية تشومسكى وتطورت نماذج عديدة منها ، ولكن تشومسكى استطاع أن يثبت أن وصف أى لغة وفق أصول مدرسة التحليل الشكلى أمر عسير ، ولا يمكن تحقيقه ، أو على الاقل ليس كافيا لتفسير جميع الجمل الصحيحة فى لغة ما تفسيرا شاملا ، ومن هنا أصبح علم النحو Syntax ليس دراسة مجموعة نماذج من الجمل فى لغة من اللغات ، بل هو نظام قائم فى عقل ابن اللغة يكتسبه من الطفولة ، ومهمة النظرية اللغوية هى الكشف عن هذا النظام أو كما يسميها القدرة اللغوية Competence وأما المعيار الدلالى الذى استبعدته مدرسة التحليل الشكلى ، واكتفت بالتحليل القائم على التصنيف والتوزيع ، فقد عاد مرة أخرى على يد التحويليين • ذلك أن هناك نوعا من الجمل يكون لها أكثر من معنى أو يتعدد معناها ، اما لوجود لفظ فيها من ألفاظ المشترك اللفظى ، أو لغموض تركيبها ومن ثمة تصبح الدلالة مع التركيب هما المدخل الصحيح لتحليل مثل هذه الجمل •

ومع ذلك ، فاذا عول علماء العربية القدماء على المعنى أو على

---

(٢٧) ليونز ، جون ، نظرية تشومسكى اللغوية ، ص٢٠٧ ومابعدها.

المستوى الدلالى ، سواء فى تحديد أقسام الكلام ، أو فى التحليل النحوى للجمل ، فلابد لنا أن نتوقف قبل أن نحكم بفساد هذا المعيار ، أى لابد أن نكتشف أولا دوافعهم لهذا العمل • وفى ظنى أن الكشف عن اعجاز القرآن الكريم كان وراء ذلك كله،لان النحو العربى لم يقم نتيجة لدوافع علمية خالصة ، وانما لدوافع دينية وتشريعية ، ومن هنا اكتسب المستوى الدلالى أو المعنى أهمية فائقة ، لان وصف الظواهر اللغوية كما هى من حيث الشكل والوظيفة والتوزيع لا يفسر شيئا ولا يؤدى الى شىء لانه يغفل عن أهم وظيفة للغة وهى الاتصال ونقل المعنى •

ومثل ذلك أيضا فى نقد النحو العربى بأنه صادر عن تصورات عقلية ومنطقية وأن عمل النحوى ينبغى أن ينصب على الواقع اللغوى كما يتمثل فى النطق أو الكتابة ، وفيما عدا ذلك فليس من عمل علماء اللغة ، لانه لا يقع فى نطاق الملاحظة المباشرة ، ولذلك استبعدت مدرسة التحليل الشكلى المعنى ، بل اعتبره بلومفيلد أضعف نقطة فى علم اللغة(٢٨) • وجعل عمله مقصورا على التحليل الفونولوجى والمورفولوجى على أساس شكلى •

وقد رفض تشومسكى كل هذا وعده لونا من التعامل مع سطح اللغة دون عمقها ، وسعى لاقامة نظريته على أساس أن اللغة عمل عقلى يتميز به الانسان عن الحيوان ، ومن ثم فان الهدف الاساسى للنظرية اللغوية هو دراسة هذا الجانب العقلى من الانسان والكشف عن قدراته اللغوية• ومن هنا اكتسبت الدراسة النحوية ، فى هذه النظرية ، أهمية خاصة ، لان النحو عند التحويليين يربط بين البنية العميقة للجملة والاداء السطحى لها ، الذى يتمثل فى الاداء الصوتى ، أما البنية العميقة ، فتمثل العملية العقلية أو الناحية الادراكية التركيبية فى اللغة Conceptual structure ودراسة هذه البنية تحتاج الى فهم العلاقات داخلها ، لا من حيث هى وظائف وأشكال على المستوى

---

(٢٨) راجع الفصل الاول من هذا الباب .

التركيبى ، وانمـا باعتبارها علاقات تصـورية وادراكية يلعب العقل الانسانى فيها دورا واضحا ، من حيث تقدير محذوفات لا تظهر على البنية السطحية للجملة وعوامل تقع تحت تأثيرها عناصر لغـوية معينة وغير ذلك مما يدخل فى نطاق التفسـير العقلى لا الواقعى أو الفعلى للاحداث اللغوية وهو أحد المعايير الرئيسية التى استند اليها الدكتور أيوب فى نقده للتفكير النحوى العربى •

والحق أن الدكتور أيوب فى تلك الفترة التى نشر فيها كتابه هذا لم يكن الوحيد الذى وجه هذا النقد الى النحو العربى ، بل هى قصة قديمة نراها فى المناظرة التى وقعت فى بلاط الوزير ابن الفرات بين أبى سعيد السيرافى ومتى بن يونس[٢٩] ، كما نادت به جماعة التيسير والاصلاح[٣٠] ولكن مع دخول المنهج الوصفى الى دائرة التفكير اللغوى العربى الحديث اكتسبت قوة ، وأصبحت من التهم المسلم بها التى توجه الى التفكـير اللغوى العربى القديم •

ومع ذلك فلاشك أن دراسات الدكتور أيوب فى النحو العـربى قد أفادت التفكير النحوى واللغوى بتقديم نظرية لغوية مضبوطة ، وان لم تشرح شرحا كاملا ، يوضح أبعادها ومنهجها ، ولكنها لم تصل الى نتائج تطبيقية ، بل اكتفت بالنقد وأبقت على أبواب النحو التقليدية كما هى ولم تقترح بديلا ، مما يجعـل عمل الدكتور أيوب ، فى هـذا الكتاب ، يقترب من أعمال أصحاب دعوات التيسير والاصلاح ، لولا استناده لنظرية لغوية حـديثة ، وكانت قضية المعنى بما له من صـلة بالتحليل النحوى من أهم القضايا التى أثارها هذا الكتاب ، والتى تميزت بهـا أعمال الوصفيين العرب ، كما سنرى فيما بعد •

أما الكتاب الثانى الذى نعده من الكتب النظرية التى قدمت المنهج الوصفى الى الفكر اللغوى العربى الحديث ، بصورة أكثر دقة وأكثر

---

(٢٩) ابو حيان التوحيدى ، الامتاع والمؤانسة ١٠٩/١ ـ ١٢٧ •
(٣٠) راجع الفصل الثانى من الباب الاول من هذا البحث •

شمولا ، فهو كتاب الدكتور تمام حسان : « اللغة بين المعيارية والوصفية» (١٩٥٨) ، الذى صـدر بعد كتاب د. أيوب بعـام واحد . واذا كان الدكتور أيوب قد وصف الدراسات النحوية العربية بالتقليدية فـان الدكتور تمام يستخدم فى وصف هذه الدراسات مصطلحا جديدا استمده أيضا من التفكير اللغوى الاوروبى ، وهو مصطلح المعيارية Perspective فى مقابل الوصفية Descriptive التى يبشر بها . وكتاب الدكتور تمام يمزج بصورة متوازية بين أمرين هما :

١ ــ الدعوة الى المنهج الوصفى فى دراسة اللغة .

٢ ــ نقد التفكير اللغوى العربى القديم ، ووصفه بالمعيارية .

وهو يحدد الدوافع التى حدت به الى تأليف هذا الكتـاب فيقول : « لقد اتجهت نفسى الى دراسة المعيارية والوصفية ، حين رأيت الناس فى معظمهم يشكون داء فى النحو العربى لا يستطيعون تشخيصه ، فاذا أرادوا تشخيص هذا الداء ، انصرفوا دون قصد ، الى سرد أعراضه ، فتكلموا فى جزئيات النحو لا فى صلب المنهج ، وشتان بين من يتعقب أجزاء المادة ، وبين من يريد علاج الفلسفة التى انبنت عليها دراستها . لهذا فكرت فى أمر الدراسات العربية القديمة من حيث المنهج ، لا من حيث التفاصيل ، وجعلت تفكيرى فى أمرها ، مستضيئا بمناهج الدراسات اللغوية الحديثة»[٣١] .

نحن اذن أمام كتاب ينقد منهجا قديما ويقدم منهجا بديلا مستمدا من التفكير اللغوى الحديث ، وهو يعبر عن ذلك بصورة مباشرة فيقول : « فطنت الى أن أساس الشكوى هو تغلب المعيارية فى منهج حقـه أن يعتمد على الوصف أولا وأخيرا ، وأن هذه المعيارية تتضح فى طريقة التناول ، كما تتضح فى طريقة التعبير فى جمهـرة كتب النحو والصرف والبلاغة ، لا نكاد نستثنى منها الا قلة ، ظهرت فى أول عهد العرب بهذه

---

(٣١) اللغة بين المعيارية والوصفية ، ص ١ .

الدراسات ، فقامت على الوصف فى كثير من أبوابها ولم تقع فى المعيارية من ذلك كتاب سيبويه وكتابا عبد القاهر الجرجانى «أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز»[٣٢] .

وبناء على ذلك يقسم تاريخ الفكر اللغوى عند العرب الى مرحلتين احداهما كانت تطبق الوصفية والاخرى كانت تتشبث بالمعيارية . ويرى ان العصر الفاصل بين هاتين المرحلتين ينتهى عند عصر الاستشهاد ، فكان على اللغويين أن يستمروا فى دراسة اللغة دون أن تتجدد الشواهد ، فداروا حول ما وصفه الاولون ، ولم يبحثوا عن مادة لغوية جديدة[٣٣] .

وكما فرق الدكتور تمام بين مرحلتين فى تاريخ الفكر اللغوى العربى يفرق أيضا بين ناحيتين من نواحى النشاط اللغوى ، هما ناحيتا الاستعمال والبحث اللغوى . أما الاستعمال فهو وظيفة المتكلم ، وأما البحث اللغوى فهو وظيفة عالم اللغة . والاستعمال تطبيق لقواعد غير واضحة أو غير واعية عند المتكلم ، والبحث اللغوى تقنين وتفتيش عن هذه الاسس ، حتى تكون واضحة عند الدرس . والاستعمال باعتباره تطبيقا يتوخى معايير معينة ولكن الدراسة اللغوية ، هى بحث علمى يقوم على الاستقراء ليصل منه الى وصف الحقائق اللغوية . ومن ثم يفرق بين الاستعمال والمعيارية ، وبين البحث اللغوى والوصفية . فالاستعمال تطبيق معيارى ، يتوخى الصحة ويبحث عن الجائز وغير الجائز ، أما الدراسة اللغوية ، فمنهجها الوصف وهدفها الكشف عن القوانين التى تحكم الاستعمال .

وهو يبدأ كتابه بعد ذلك بتمهيد يطرح فيه مفهوم مدرسة فيرث عن اجتماعية اللغة[٣٤] ، من حيث هى عنصر من عناصر النشاط الاجتماعى والفردى ، وخطرها فى حياة الفرد لا يقل عن خطرها فى حياة المجتمع ، وهى الاداة الوحيدة التى تمكن الفرد من الدخول فى نطاق المجتمع الذى

---

(٣٢) المرجع السابق ، ص ٢ .
(٣٣) المرجع نفسه ، نفس الصفحة .
(٣٤) راجع الفصل الاول من هذا الباب .

يعيش فيه • واذا كان العرف هو الذى يحدد المقاييس الاجتماعية ، فان العرف أيضا هو الذى يحدد معايير الاستعمال اللغوى • فالمتكلم الذى يستعمل لغة المجتمع الذى نشأ فيه انما يستعمل أصواتها وصيغها ومفرداتها وتراكيبها حسب أصول استعمالية معينة(٣٥) •

ومن ثم فاغفال هذا العنصر الاجتماعى فى اللغة ، يحرم الدراسة اللغوية من أقوى خصائصها ، واذا كان كل نشاط اجتماعى تتم دراسته عن طريق الملاحظة والوصف ، فاللغة من حيث هى نشاط اجتماعى يجب أن تدرس كذلك بالملاحظة والوصف(٣٦) •

نحن اذا أمام وصفية غير تلك التى دعا اليها الدكتور أيوب فى دراساته النقدية للنحو العربى ، من حيث هى وصفية شكلية تحتكم الى الشكل دون المعنى • أما وصفية الدكتور تمام ، فهى وصفية تعطى للمعنى أهمية بالغة •

وبعد أن يحدد فى تمهيد كتابه المنطلقات الاساسية فى الوصفية التى يدعو اليها ، يبدأ فى تحديد أصولها ومبادئها العامة ، وتتمثل فيما يلى :

١ ــ ان الباحث فى اللغة يشبه الباحث فى تشريح الجسم الانسانى، لا يتوقع منه أن يعبر عن أفكاره بقوله : يجب أن تكون العضلة الفلانية بهذا الوضع ، ويجب أن يكون العظم الفلانى بهذا الحجم أو على هذه الصورة •

٢ ــ ان الباحث فى تشريح اللغة وتحليلها تحليلا علميا لا ينبغى أن يعبر عن موقفه من موضوعه بالنص على ما يجوز وما لا يجوز •

٣ ــ ان على عالم اللغة أن يصف الحقائق لا أن يفرض القواعد

---

(٣٥) المرجع السابق ص ٥ ــ ٩ ، وانظر ايضا :
Firth, J. R. Personality and language in Society papers in linguistics, p. 182.

(٣٦) المرجع السابق ، ص ١٤ ــ ١٥ •

٤ ــ أن الدراسة الوصفية تختار مرحلة بعينها من لغة بعينها لتصفها وصفا استقرائيا وتتخذ النواحى المشتركة بين الجزئيات الداخلة فى هذا الاستقراء وتسميها قواعد •

٥ ــ ان القاعدة اللغوية فى الدراسة الوصفية ليست معيارا وانما هى جهة اشتراك بين حالات الاستعمال الفعلية •

٦ ــ ينبغى على عالم اللغة الوصفى أن يقصر نشاطه على الملاحظة والوصف والتسجيل[٣٧] •

وبناء على ذلك يفرق بين نوعين من الدراسة ، احداهما تجعل من اللغة مادة للملاحظة والاستقراء والوصف ، وتجعل من نواحى الشركة فيما وقع عليه الاستقراء قواعد لا ينظر اليها باعتبارها معايير يجب اتباعها وانما تعبر عن وظائف لغوية وقع عليها الاستقراء • أما النوع الثانى من الدراسات اللغوية فيغلب القاعدة على النص ويجعلها قانونا حتميا يجب احترامه حتى على أبناء اللغة[٣٨] • ويرى أن جمهرة كتب النحو ، ولاسيما المتأخر منها ، تقع فى هذه المعيارية الصارخة ، ولكنه يرى أيضا أن نحاة العربية الاول ، ومنهم سيبويه ، قد وقعوا أيضا فى مخالفات منهجية ، اذ اعتبروا عدة مراحل متعاقبة من تاريخ اللغة العربية ، مرحلة واحدة ، كما أنهم اعتبروا اللهجات المتعددة من نفس المستوى اللغوى الذى يقعدون له • وهى مخالفات منهجية وقع فيها أيضا ــ كما يقول نحاة الاغريق واليونان[٣٩] •

أما الجوانب المعيارية فى الفكر اللغوى العربى فيحددها فى أمور ثلاثة هى :

١ ــ القياس والتعليل •

---

(٣٧) المرجع السابق ، ص ١٦ •
(٣٨) المرجع السابق ، ص ٢٢ •
(٣٩) المرجع السابق ، ص ٢٤ ــ ٢٥ •

٢ ــ الاحتكام الى مستوى صوابى معين والخلط بين المستويات الصوابية •

٣ ــ ايمان علماء العربية بأن السليقة اللغوية طبع لا اكتساب •

أما القياس أو الصوغ القياسى Analogic Creation كما يسميه فهو أثر من آثار الاستعمال اللغوى ، وهو نشاط يقوم به المتكلم أو المجامع اللغوية لسد حاجة اللغة من المفردات الجديدة ، وهى عملية معيارية ، ومع ذلك ، فان المنهج الوصفى يعترف بها لا كفكرة منهجية وانما كنشاط لغوى يلاحظه ويصفه •

ولا يختلف الصوغ القياسى فى المفردات عن القياس النحوى بل يرى أن القياس النحوى أكثر معيارية منه ، لان النحاة يقيسون حكم شىء على حكم شىء آخر لاسباب يقدمونها ، يبدو فيها الافتعال والضعف ، وحجتهم فى ذلك أن ما قيس على كلام العرب ، فهو من كلامهم • وهو عمل أشبه باستخراج الاحكام الفقهية عند الاصوليين(٤٠)•

أما التعليل فهو أثر من آثار خضوع الدرس النحوى عند العرب للمنطق الارسطى ، وهو المسئول عن خلق نظرية العامل فى النحو العربى(٤١) والواقع أن التعليل النحوى عند علماء العربية وخاصة عند المتقدمين منهم يختلف عن القياس والتعليل عند المناطقة وعند أرسطو خاصة لان التعليل عند النحاة يقوم على اطراد الاستعمال اللغوى وكثرته ولذلك كانوا يقيسون على الاشيع والاكثر اطرادا وهذا ليس من العلل الغائية وانما هو لون من التفسير المباشر للتراكيب اللغوية بالاحتكام الى الاطراد والمعنى أيضا •

ولكن من الحق أن نقول أيضا أن هذا التعليل قد تطور فى درس النحو العربى من حيث ارتباطه بعلم أصول الفقه وبخاصة عند النحاة

---

(٤٠) المرجع السابق ، ص ٢٩ وما بعدها •
(٤١) المرجع السابق ، ص ٥١ •

المتأخرين،حتى صار غاية من غايات الدرس النحوى ورياضة عقلية تقصد لذاتها ولذلك لم يطالب ابن مضاء القرطبى فى نظريته بالغاء التعليل وانما طالب بالغاء العلل والثوانى والثوالث ، لان التعليل أو التفسير من المهام الاصيلة لعالم اللغة بل أصبح جزءا من مهمة النظرية اللغوية المعاصرة .

أما عن المستوى الصوابى فهو عنده معيار لغوى يرضى عن الصواب ويرفض الخطأ فى الاستعمال ، وهو كالصوغ القياسى لا يمكن النظر اليه باعتباره فكرة يستعين عالم اللغة بها فى تحديد الصواب والخطأ كما فعل علماء العربية القدماء وانما هو مقياس اجتماعى يفرضه المجتمع اللغوى على الافراد ويرجع اليه عند الخلاف حول الاستعمال ، ومن هنا فان المستوى الصوابى يختلف من البادية الى الحضر ومن مستوى اللهجات الى مستوى اللغة المشتركة ، ولكن علماء اللغة العربية القدماء خلطوا بين هذه المستويات الصوابية المختلفة وحكموها فى الدرس النحوى واللغوى وهى كما يرى فكرة معيارية ليست من منهج البحث الوصفى وانما هى مقياس اجتماعى يختلف من بيئة الى بيئة ومن عصر الى عصر ومن لهجة الى لهجة(٤٢) .

ويرتبط سوء فهم القدماء للمستوى الصوابى والخلط فيه بسوء فهمهم للسليقة اللغوية وحقيقتها ، فهى عندهم تقوم على الطبع لا الاكتساب منذ الطفولة والاكتساب يعنى التطور والتغير والطبع يعنى الثبات وعدم التطور ، وبناء على ذلك قصروا الاحتجاج على فترة معينة من فترات الاستعمال اللغوى ولو أن علماء العربية فطنوا الى أهمية العنصر الاجتماعى بصورة مطردة لما تورطوا فى هذا الفهم لطبيعة السليقة اللغوية لان مراعاة العنصر الاجتماعى تتضمن بالضرورة الاعتراف بوجود الاختلاف اللغوى على مستوى الفرد والجماعة ، ومن ثم فان دراسة المجريات العامة عند تحليل أى حدث لغوى تقضى بأن

---

(٤٢) المرجع السابق ، ص ٥٥ ـ ٦٦ .

يجرى وصف شامل لكل ما له علاقة بالاثار التى تركها هذا الحدث اللغوى فى نفوس السامعين وكل ما يحيط به من أحداث اجتماعية وانسانية وبيئية ومناخية ... الخ[٤٣] .

المعيارية اذن عند د. تمام هى القياس والتعليل واغفال الجانب الاجتماعى والشخصى فى التحليل اللغوى والنظر الى اللغة على أنها شىء ثابت لا يتغير وهو منهج سيطر على الفكر اللغوى العربى خصوصا فى العصور المتأخرة حيث سادت فكرة التعليل الارسطى بالعلل الغائية وتفشى التمارين القياسية .

ولكن هل كان التفكير النحوى العربى على هذه الصورة من المعيارية التى وصفها د. تمام حسان ؟ فلننظر أولا فى وصفية د. تمام ثم نجيب بعد ذلك على هذا التساؤل .

تنطلق وصفية د. تمام التى يدعو اليها من مبادىء «دى سوسير» ومن النظرة الاجتماعية للغة كما هى عند « فيرث » وهى تتلخص فيما يلى :

١ ــ العلاقة بين اللفظ والمعنى علاقة رمزية .

٢ ــ الجانب الصوتى من اللغة حقائق عضوية تخضع للوصف من حيث المخارج والحركات التى يقوم بها جهاز النطق وهى مقدمة لدراسة علم التشكيل الصوتى Phonology الذى يختلف من لغة الى لغة خضوعا لطبيعة النظام الرمزى للغة .

٣ ــ ان كل دراسة لغوية يجب أن تتجه الى المعنى ، فالمعنى هو الهدف المركزى الذى تصوب اليه سهام الدراسة اللغوية من كل جانب .

٤ ــ الاستقراء والتعقيد طريقان من طرق الوصف يرتبط كل منهما

---

(٤٣) المرجع السابق ، ص ٦٩ وما بعدها .

بعمل ثالث هو التقسيم ، والتقسيم والتجريد عمليتان أساسيتان فى التحليل اللغوى الوصفى .

٥ ــ اللغة منظمة ضخمة من الاجهزة المتكاملة التى تعمل كلها فى اتجاه واحد وهذه الاجهزة تتمثل فى النظام الصوتى والصرفى والنحوى المعجمى وموقف الباحث اللغوى من اللغة كموقف الباحث فى تشريح الجسم الانسانى فهو يلاحظ أجزاء وطرق تركيبها وعلاقة كل جزء منها بالآخر(٤٤) .

أما الاطار العام لهذه الوصفية فيتمثل فى « أن كل منهج علمى من مناهج البحث فى الوقت الحاضر يعنى أولا وأخيرا بالاجابة عن «كيف» تتم هذه الظاهرة أو تلك ، فاذا ما تعدى هـذا النوع من الاجابة الى محاولة الاجابة عن « لماذا » تتم هذه الظاهرة أو تلك لم يعد منهجا علميا بل لا مفر من وصفه بالحدس والتخمين »(٤٥) .

هـذه هى الوصفية التى يدعو اليها د. تمام وهى وصفية تقريرية لا تفسر أو تعلل وأى تفسير أو تعليل يؤدى بنا الى التخمين والحدس ويتجافى عن الروح العلمية . وهنا نعود الى تساؤلنا الذى طرحناه فى الصفحات الماضية وهو هل كان التفكير النحوى العربى على هذه الصورة الصارخة من المعيارية التى صورها د. تمام ؟ .

الواقع أن كثيرا من عناصر المنهج الوصفى وأصوله كانت متوافرة فى عمل نحاة العربية وتفكيرهم خصوصا فى المراحل الاولى من وضع النحو العربى حتى سيبويه ، فعمل أبى الاسود الدؤلى فى ضبط النص القرآنى كان عملا وصفيا خالصا لانه يقوم على الملاحظة الحسية المباشرة كما يظهر الاتجاه الوصفى فى كثير مما قرره النحاة الاوائل مثل سيبويه فليس كل

---

(٤٤) المرجع السابق ، ص ١١٠ وما بعدها .
وانظر أيضا الفصل الاول من هذا الباب .
(٤٥) المرجع السابق ، ص٤٢ .

ما قرروه كان تعليلا أو قياسا وانما كان فى معظمه يقوم على الاستعمال اللغوى ولعل صنيع الكوفيين صدد هـذا يقف شاهدا على عـدم دقة دعوى المعيارية الخالصة فى التفكير النحوى العربى •

بل ان تحديد بيئة زمانية ومكانية للمستوى اللغوى الذى قعد له علماء العربية القدماء رغم اتساع هذه البيئة الزمانية والمكانية واحتوائها على مستويات لغـوية مختلفة ، الا أن هذا التحديد هـو مبدأ وصفى يتناسب مع الهدف الذى من أجله قام البحث اللغوى عند العرب ، اذ لم يكن هو دراسة اللغة العربية فى ذاتها ومن أجل ذاتها وانما كان الهدف من هذه الدراسة فهم النص القرآنى الكريم ووضع قواعد لقـراءة هذا النص قراءة صحيحة أو بعبارة أخرى دراسة العربية التى تصلح لفهم لغة النص القرآنى وقراءته ــ ولان القرآن نزل باللغة المشتركة التى كان يتكلمها العرب على اختلاف لهجاتهم لذلك اتسعت الرقعة الزمانية والمكانية على هذا النحو(٤٦) •

لم يكن اذن التفكير النحوى العربى تفكيرا معياريا خالصا كمـا لم يكن أيضا وصفا تقريريا محضا لا يفسر ولا يعلل مثل الوصفية التى دعا اليها د• تمام حتى استقر فى عقول بعض الباحثين أن علم اللغة الوصفى اذا ما تطرق الى التفسير أو التعليل للظواهر اللغوية تخلى عن علميته ودخل فى نطاق البحث الفلسفى الميتافيزيقى وهذا ليس صحيحا •

ولنأخذ أولا مثالا من خارج اللغة لتوضيح ذلك ، فمثلا يرى عالم من علماء الطبيعة تفاحة تسقط من شجرة فيصف هذه الظاهرة بقوله : « اذا سقطت تفاحة من الشجرة فانها تسقط عموديا الى أسفل » وهذا مجرد وصف لما يحدث يستطيع أى انسان عادى أن يلاحظه • أما العالم فنتوقع منه أن يقدم تفسيرا لما حدث ، لا مجرد الوصف فعليه أن يفسر لماذا سقطت التفاحة عموديا الى أسفل ولم تتجه أفقيا أو الى أعلى ومن

---

(٤٦) د• عبده الراجحى ، النحو العربى ، ص ٥٤ وما بعدها •

جواب هذا العالم يمكن الحكم على المنهج الذى يتبعه بأنه وصفى علمى أو فلسفى ميتافيزيقى •

كذلك فى اللغة ، فنحن لانحتاج الى عالم لغوى لكى يذكر لنا مثلا أن الفعل الثلاثى فى العربية يأتى على أوزان مختلفة ، فأى مثقف فى اللغة يستطيع أن يلاحظ هذا ، بل ما نحتاج اليه هو تفسير عدد من الظواهر المتعلقة بهذه الافعال ، مثل ، لماذا يكون مضارع «قال» «يقول» ومصدره «قول» بينما مضارع «باع» «يبيع» ومصدره «بيع» • ولماذا يكون الفعل «مد» على وزن «فع» ، ولكنه يكون على وزن فعل فى «مددت» •

لاشك أن علماء العربية القدماء كانت تعنيهم مثل هذه الامور حين قالوا ان أصل «قام» «قوم» وليس لان«قوم»هذه من تعليلات اللغويين• ومن حيث المبدأ ليس هناك ما يمنع أن يكون أصل «قام» هو «قـام» وأصل«باع»هو«باع» بل لعل هذا هو الشىء الطبيعى،الا اذا وجد مبرر لغير ذلك • فاللغوى الذى يصمم على أن أصل «قام» هو «قام» نفسها وكذلك «باع» عليه أن يقدم تفسيرا لوجود الحركة الطويلة فى مضـارع طائفة من الافعال مثل «يقوم» والكسرة الطويلة فى مثل «يبيع»• وعليه كذلك أن يفسر وجود هذه الحركة فى مصادر الطائفة الاولى واوا وياء فى مصادر الطائفة الثانية • ولا يكتفى من عالم اللغة فى مثل هذه الحالات أن يقول هكذا نطقت العرب ، لانه يكون بهذا كعالم الطبيعة الذى يكتفى فى تفسيره لسقوط التفاحة بأن يقول : هكذا يكون السقوط[٤٧]• وعلماء العربية عندما يقولون بأن لهذه الصيغ أصلا ، انما يفسرون هذه الظواهر اللغوية وصورها فى الاستعمال ، لا عن ايمان بوجود هذا الاصل ، وانما هو للتفسير العلمى لا غير • وهو ما أشار اليه ابن جنى فى خصائصه أكثر من مرة[٤٨] •

ومثل ذلك أيضا فى التقدير النحوى • صحيح أن كثيرا من تقديرات

---

(٤٧) د• داود عبده ، أبحاث فى اللغة العربية ، ص ٩ ـ ١١ •
(٤٨) ابن جنى ، الخصائص ٢٥٦/١ •

النحاة لا سند لغوى لها ، وانما لجأوا اليها لتبرير حركة أو للحفاظ على قاعدة ، وذلك مثل تقديرهم فعلا محذوفا يفسره الفعل الموجود فى قوله تعالى « اذا السماء انشقت» وما يشبهها من الآيات الاخرى • فهذه ليست من الوصفية التفسيرية فى شىء • ولكن هناك بعض الجمل التى قد تتطلب التقدير اذا أخذنا برأى التحويليين من أن التركيب السطحى للجملة لا ينبىء عن معناهـا ، ففى جمـلة مثل (ما كل سوداء تمرة ، ولابيضاء شحمة) لابد من تقدير كلمة (كل) فى الجملة المعطوفة،أى (ولا كل بيضاء شحمة) والحذف هنا لتجنب التكرار[٤٩] •

وليس معنى هذا أن اللغويين القدماء كانوا على حق فى كل ما قالوه، أو أن المتأخرين منهم لم يلجأوا الى المنطـق والفلسفة ، ولكن المنهج الوصفى الشكلى الذى دعا اليه د• أيوب ، والمنهج الوصفى التقريرى الذى لا يفسر ولا يعلل ، والذى دعا اليه د• تمام حسان ، لم يثبتا مع تطور الفكر اللغوى الحديث والمعاصر • وأن قدماء اللغويين العـرب لم يجانبهم الصواب فى كثير مما اعتبره الوصفيون انحرافا عن المنهج اللغوى السليم • ومع ذلك فان الوصفية الشكلية والتقريرية قد أحدثتا تيـارا نقديا فى الفـكر اللغوى العربى الحـديث لا يمكن انكاره ، يقوم على مبادىء وأصول نظرية علمية تختلف عن تلك الاصول والمبادىء التى قام عليها التفكير اللغوى التقليدى • ولكنها كانت ضرورية للكشف عن جوانب القوة وجوانب الضعف فى هذا التفكير • وفى هذا الصدد فان ما كتبه د• تمام حسان عن الوصفية والمعيارية قد خلص الفكر اللغوى العـربى الحديث من العموميات التى صاحبت دعاة التيسير والاصلاح ، ومن انخلط بين الوصفية والتاريخية عند بعض رواد الفكر اللغوى الحديث• وكذلك من الخلط بين مباحث فقه اللغة وعلم اللغة التى مازالت تتردد حتى الان فى كتابات بعض من يتصدى للدرس اللغوى الحديث • بل ان هذا الكتاب يعد أول كتاب فى نقد التراث العربى،لامن خلال أفكار مشتتة غير واضحة ، وانما كما قلت ، وفق منهج ونظرية لغوية واضحة ومضبوطة

---

(٤٩) أبحاث فى اللغة العربية ، ص ٢١ ـ ٢٢ •

وهـو بوصفه التراث بالمعيارية قد أوجد عـلاقة جديدة بين علم اللغة الحديث وهذا التراث ، تشبه العلاقة بين الدراسات اللغوية العـربية الفيلولوجية وعلم اللغة ، وهى ذات العلاقة التى سبقه اليها د. أيوب عندما وصف التراث اللغوى العربى بالتقليدية .

أما الكتاب الثالث من الكتب اللغوية الحديثة التى تعرضت للتراث العربى فهو كتاب د. كمال بشر ، دراسات فى عـلم اللغة (١٩٧١)[٥٠] وفى هذا الكتاب بحث عن التفكير اللغوى عند العرب فى ضوء علم اللغة الحديث[٥١] .

ويختلف هذا البحث عن كتاب د. أيوب «دراسات نقدية فى النحو العربى» ، وكتاب د. تمام « اللغة بين الوصفية والمعيارية » فهذا البحث لا يعرض بصورة مباشرة لنقد التفكير اللغوى عند العرب ، وانما يحاول الكشف عن جوانب من هذا التفكير تتفق وعلم اللغة الحديث وهو اتجاه ما لبث أن أصبح تيارا أو حركة جديدة فى قراءة التراث العربى ، سعيا وراء تأصيل هذا التراث وفق نظريات عـلم اللغـة تمهيدا للكشف عن نظريته الاصيلة[٥٢] .

ولذلك يبدأ د. كمال بشر بتحديد مفهوم التفكير اللغوى الحديث ، وهو عنده يتصل بطائفتين من القضايا :

الطائفة الاولى تتصل بجوهر اللغة وحقيقتها وترتبط بالعناصر المكونة لها ، وهى عبارة عن أصواتها وصيغها وتراكيبها ، ثم مفرداتها ومعانى هذه المفـردات . وهذه الجوانب هى أسـاس البحث اللغوى وهدفه الحقيقى ، ولهذا خصص لها علماء اللغة فرعا من فروع علم اللغة . وبعد

---

(٥٠) صدرت الطبعة الاولى من هذا الكتاب عام ١٩٦٩م . اما الطبعة الثانية ، والتى سنعتمد عليها فى هذه الدراسة فقد صدرت فى عام ١٩٧٢م-

(٥١) ص ٩ – ٧٩ .

(٥٢) يمثل هذا التيار الان أصدق تمثيل كتاب د. نهاد الموسى، نظرية النحو العربى فى ضوء مناهج النظر اللغوى الحديث ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الطبعة الاولى ، ١٩٨٠ م .

أن يحدد فروع علم اللغة الحديث ، ومهام كل فرع من هذه الفروع ينتقل الى الطائفة الثانية التى تتصل بعلم اللغة وتتمثل فى مجموعة من القضايا والمسائل العامة مثل اللغة ووظيفتها فى المجتمع وعلاقة اللغة باللهجات والمستويات اللغوية من فصحى وعامية ، والصواب والخطأ وغير ذلك • وهاتان الطائفتان تكونان معا علما واحدا هو ما يسمى بعلم اللغة Linguistics (٥٣) •

وعلى ضوء هذا التحديد لجوانب اللغة ينتقل الى التفكير اللغوى العربى القديم ، ويرى أن علماء العربية قد بذلوا جهدا جبارا فى خدمة لغتهم ولم يفتهم من مسائل الطائفتين المذكورتين آنفا ، بل زادوا عليها وأضافوا اليها موضوعات انفردت بها اللغة العربية • وكانت نظرتهم الى لغتهم نظرة عملية صيانة للقرآن من التحريف وتجنبا للاخطاء • ويرى أنهم أضافوا الى ميدان البحث اللغوى ميادين أكثر شمولا وعموما تزيد على فروع علم اللغة الحديث(٥٤) • ولكن ليس معنى هذا أن هناك تطابقا بين صنيع علماء العربية القدماء وعلماء اللغة المحدثين ، فهناك كما يقول اختلافات ضخمة ذات سمات متنوعة يمكن أن نجمعها فى أمرين أو صنفين • أما الصنف الاول من هذه الاختلافات فيتصل بأمرين هما :

١ ــ العلاقة بين فروع علم اللغة أو المستويات اللغوية •

٢ ــ المصطلحات ومفهوماتها •

ويقرر د• بشر أن علماء العربية القدماء لم يدركوا تمام الادراك مدى العلاقة أو الارتباط بين فروع الدراسات اللغوية • ومن ثم نراهم ينظرون الى هذه الفروع كما لو كانت منفصلة بعضها عن بعض • وعلى الرغم من أن سيبويه قد جمع فى كتابه بين الدراسات الصوتية والصرفية والنحوية فى كتاب واحد ، الا أن هذا لا يعنى ــ كما يقول ــ أن سيبويه

---

(٥٣) أنظر د• كمال بشر ، دراسات فى علم اللغة القسم الثانى ص ٩ ــ ١٤ •

(٥٤) المرجع السابق ، ص ١٦ ــ ٢١ •

أو غيره من علماء العربية قد أدركوا بوضوح طبيعة العلاقة بين فروع علم اللغة ، أو على الاقل ـ لم يستفيدوا الفائدة المرجوة فى استغلال نتائج البحث فى هذه العلوم لخدمة بعضها البعض • يدل على ذلك أن سيبويه ، رغم عرضه للمسائل الاساسية فى علم الاصوات ، الا أنه لم يلمس من قريب أو بعيد بعض الظواهر الصوتية الاخرى التى تتصل بالكلمة أو الجملة ، مثل نظام النبر Stress ونظام التنغيم Intonation (٥٥) ولكنه يخص عالمين من علماء اللغة العربية القدماء بالذكر بعد أن يعرض لامثلة متعددة لاهمال علماء العربية لجوانب من الدراسة الصوتية • وهذان العالمان هما ابن جنى والسكاكى كنموذج لعلماء العربية الذين أدركوا طبيعة العلاقة بين مستويات التحليل اللغوى على المستوى النظرى ، وان خانهما التطبيق أحيانا •

أما قضية المصطلحات اللغوية واختلافها بين القدماء والمحدثين فيقرر أن المصطلحات العربية القديمة مثل : اللغة ـ متن اللغة ـ علم اللغة ـ فقه اللغة ـ علم العربية ـ العلوم اللسانية ـ علوم اللسان • وغيرها مرتبطة بمفهوم العرب للدرس اللغوى ، وينبغى تركها كما هى ، ولكن ينبغى أيضا أن نعرف المقصود منها فى حدود فهمهم وتحديدهم لها • وفيما يتصل بنقد التفكير اللغوى العربى ، أما ماأطلق عليه مناهج البحث عندهم ، فيخصص له القسم الثانى من هذا البحث وهو يقرر بادىء ذى بدء أن المقارنة بين منهج البحث اللغوى عند العرب وعند المحدثين أمر يصعب تحديد وجه الحق فيه لعدم تكافؤ الطرفين ، وما أتيح لكل منهما من علم وثقافة • ويرى أن ضخامة العمل الذى قام به علماء العربية يستحق الثناء • ولكن هذا الاعجاب لم يمنعه من وصف أسلوبهم فى البحث اللغوى بأنه « خليط من ألوان التفكير ومزيج من طرائق البحث ، بالاضافة الى ما يبدو فى هذا الاسلوب من قصور وما يظهر فيه من ضعف

---

(٥٥) المرجع السابق ، ص ٢٥ •

يقعده عن الوصول الى هـدفه الحقيقى ... وأنهم وقعوا فى أخطـاء منهجية لا يقرها البحث الحديث »[٥٦] .

أما أهم هذه الاخطاء المنهجية فتتمثل عنده فى أمرين :

الاول : عدم التكامل أو فقدان وحدة المنهج ، ويتمثل ذلك فى اخفاقهم فى وضع نظرية لغوية عامة ، أو رسم خطوط عريضة تسمح بالتحرك أو العمل بمقتضاها ، سواء أكان هذا العمل مرتبطا بتحليل المستويات اللغوية أو بغير ذلك من مشكلات اللغة . ويتمثل فقدان المنهج عندهم فى خلطهم بين أساليب متنافرة فى البحث اللغوى تتمثل فى :

١ ــ الاتجاهات الفلسفية والمنطقية .

٢ ــ التأويل والافتراض .

٣ ــ المعيارية .

٤ ــ الوصفية .

أما الاتجاهات الفلسفية والمنطقية فتظهر فى نظرية العامل وما تفرع عنها ويرتبط بها أيضـا التأويل والافتراض لتقسيم النظـرية . وأمـا المعيارية فهى الاتجاه السائد ، كما يقول ، فى البحث اللغـوى العربى . وهى تقوم على أساس أن اللغة هى ما يجب أن يتكلمه الناس ، وليست ما يتكلمه الناس فعلا . ورغم ذلك لانعدم من وقت الى آخر فى التراث العربى قضايا نحوية ولغوية نوقشت على أسس وصفية . ولكنها وصفية عفوية لاتسمح بالقول بأنها المنهج المتبع فى الدرس اللغوى العربى[٥٧] .

الثانى : اهمال عامل الزمن ، ويتمثل ذلك فى نظرية الاحتجاج وعدم اعترافهم باجتماعية اللغة ، وأنها قابلة للتطور . وعدم مقارنة العـربية باللغات السامية[٥٨] .

---

(٥٦) المرجع السابق ، ص ٥٢ .
(٥٧) المرجع السابق ، ص ٥٢ ــ ٥٧ .
(٥٨) المرجع السابق ، ص ٥٧ ــ ٦١ .

ولكنه يرى أن هذا لا يعنى أن الدرس اللغوى عند العرب جاء خاليا من نظرات منهجية صائبة • بل على العكس كانت هناك بوادر طيبة تتمثل عنده فيما يلى :

١ ــ جمع اللغة بأسلوب المشافهة ، وهذا يعنى أنهم اعتمدوا فى عملهم على اللغة المنطوقة وهى المصدر الحقيقى فى الدرس اللغــوى الحديث •

٢ ــ حددوا دائرة التلقى والاخذ بتحديد القبائل التى يسمعون منها ، وان كان اتساع الدائرة الجغرافية للقبائل أدى أحيانا الى الخلط والاضطراب والخلط فى التلقى •

٣ ــ ادراكهم لاهمية الكلام وظروفه ، الا أنهم فى تطبيق هذا المبدأ كانت تحكمهم نظرة معيارية لا وصفية •

٤ ــ الدراسة الصوتية هى أجود العمــل اللغوى عند العرب من حيث المنهج وطرق الدراسة وهى تدخل فى اطار ما يسمى بالفونولوجيا أو علم وظائف الأصوات•

وقد توسع د• كمال بشر بملاحظاته هذه عن دراسة الاصــوات عند العرب فى القسم الثانى من كتابه علم اللغة العام (الأصوات) الذى استقل فيه بدراسة أصوات اللغة العربية ومشكلاتها فى ضــوء التفكير الصوتى الحديث •

والواقع أن هذا الاتجاه فى دراسة التراث اللغوى عند العرب ونقده، والبحث عن الجوانب المشرقة فيه قــد يتفق مع ما ذكــره د• أيوب فى دراساته النقدية ، أو د• تمام فى اللغــة بين المعيارية والوصفية ، اذ يستند الى النظرية اللغوية الحديثة ، سواء فى النقد ، أو فى بيان الجوانب المضيئة فيه ، ولكن يأتى الاختلاف فى أسلوب النقد فقط • ولكنهم جميعا، كما رأينا يتفقون على أوجه معينة تتردد فى هذا الصدد ، كالتأثر بالمنطق والفلسفة ، وغلبة الروح المعيارية والاتجاه الى التأويل والافتراض ،

وغير ذلك • ولكن د• بشر يضيف الى هذا النقد جانبا جديدا ، وهو غياب النظرية اللغوية ، أو بمعنى أدق ، عدم وجود نظرية لغوية استنـد اليها علماء اللغة العربية القدماء فى دراسة اللغة • وأغلب الظن أن النظـرية موجودة ولكنها تحتاج الى الكشف عنها • فليس من المعقول أن يقوم هذا البناء الضخم فى الدرس اللغوى العربى دون نظرية• وقد أشار د• كمال بشر الى بعض جوانب هذه النظرية عندما قال بغلبة الطابع العملى على البحث اللغوى عند العرب • وهى اشارة هامة قد تفسر بعض ما وصفه بعدم التكامل أو فقدان المنهج •

فعلماء العربية القدماء ، كما أشرت من قبل ، لم يكن همهم دراسة اللغة فى ذاتها ومن أجل ذاتها ، وانما كان همهـم الاول دراسة اللغـة العربية وحدها ، بما لها من صلة بالقرآن الكريم فهما وأداء • ومن هنا برز الجانب التعليمى أو المعيارى ، وهى ضرورة كان يحتمها اتجـاه العرب فى دراسة العربية • ومعنى هذا أيضا أن نظرة العرب الى اللغة كانت تختلف عن النظرية اللغوية الحديثة فى أصولها وأهدافها • ولذلك جاء النموذج الذى قدمه علماء العربية مختلفا عن النماذج التى قدمتها الوصفية أولا ثم التحويلية ثانيا • ولعل الكشف عن هذا النموذج يرتبط بهذا الجانب العملى من ناحية ، وبالحضارة العربية الاسلامية من ناحية أخرى • فالدراسة اللغوية ليست الا نشاطا حضاريا وسط أنواع أخرى من النشاط الفكرى والعقلى فى بيئة معينة ووضع التفكير اللغوى العربى فى اطاره الحضارى دون اخضاعه لمفاهيم نظرية وأصول فكرية لم تنبت فى أرضه يجـافى الروح العلمية والموضوعية التى نادى بها الوصفيون ويؤدى بالتالى الى غموض النموذج العربى فى دراسة اللغة • ونحن نتفق بلاشك على أن علم اللغة الحديث والمعاصر مرتبط أشـد الارتباط بالحضارة الغربية • سواء فى أصوله الفلسفية والعقلية ، أو اجراءاته العملية • ولعل صيحة « ناعوم تشومسكى » باعادة النظر فى التراث اللغوى الاوروبى ، واستناده فى نظريته لاصول لغوية وعقلية وفلسفية ترجع الى القرن السابع عشر الميلادى • أقول ، لعل هذه الصيحة تدعونا الى التأنى ، بل التردد فى نقد التفكير اللغـوى العـربى ووصمه بأنه

لا يستند الى نظرية واضحة فى دراسة اللغة ، أو أن دراسة اللغة عند العرب كانت أمشاجا مختلطة من مناهج متعددة • أو أنها تفتقر الى وحدة المنهج وغير ذلك من الاتهامات التى رددها دعاة الوصفية من العرب ابان افتتانهم بالنظرية اللغوية الاوروبية • ومعنى هذا أننا فى حاجة الى نظرة موضوعية للتراث العربى ، أو بعبارة أخرى ، دراسة التراث اللغوى العربى فى ذاته ومن أجل ذاته ، لكى نكشف عن هذه النظرية اللغوية التى استند اليها القدماء فى بحثهم للغة •

وصفوة القول ان نقد التراث اللغوى العربى ، كما تمثل فى دراسات د• أيوب و د• تمام حسان و د• كمال بشر ، والمستند الى مبادىء الوصفية كان اتجاها واضحا ، ولعله كان ضروريا أيضا للنظر فى هذا التراث نظرة علمية موضوعية • ولكن هذا الاتجاه واكبه وصحبه اتجاه آخر قام به بعض هؤلاء الباحثين،وهو بيان وشرح طرق التحليل البنيوى للغة ، وهو ما يمثله التيار الثانى من تيارات البنيوية الوصفية •

ثانيا ــ التحليل البنيوى للغة :

وهو اتجاه صاحب الدعوة الى المنهج الوصفى ــ كما أشرت ــ وارتبط به ، وعلى الرغم من أن معظم هؤلاء الوصفيين لم يستخدم مصطلح « البنيوية » الا أنهم بما قدموه من أبحاث ودراسات حول تحليل اللغة كانوا يتبنون النظرية البنيوية أو مناهج علم اللغة البنيوى فى التحليل اللغوى ، وقد مثل هذا الاتجاه العديد من الكتب والدراسات التى تناولت مستويات التحليل اللغوى الصوتية والفونولوجية والمورفولوجية والنحوية والدلالية أو اقتصرت على دراسة مستوى واحد من هذه المستويات مع بيان مناهج وطرق التحليل ومفاهيمه ومصطلحاته ومن أهم الكتب التى تناولت مستويات التحليل اللغوى كتاب د• تمام حسان مناهج البحث فى اللغة (١٩٥٥م) وكتاب أستاذنا المرحوم د• محمود السعران علم اللغة مقدمة للقارىء العربى (١٩٦٢م) ، ومن أهم الكتب التى تناولت مستوى واحد من مستويات التحليل اللغوى كتاب د• عبدالرحمن أيوب أصوات اللغة(١٩٦٨م)وهو أول مؤلف عربى يتناول

بتفصيل دقيق معظم الجوانب التشريحية والاكوستيكية فى دراسة الاصوات على نحو يمتاز بالدقة العلمية والوضوح ، ومثل ذلك كتاب د٠ كمال بشر ، علم اللغة العام (الاصوات) (١٩٧١م)[٥٩] ٠

وسنكتفى فى هذا الجزء من البحث ، عن التحليل البنيوى للغة بكتابين يعرضان لمستويات التحليل اللغوى ، وهما كتاب د٠ تمام حسان، مناهج البحث فى اللغة (١٩٥٧ م) وكتاب أستاذنا المرحوم د٠ السعران، علم اللغة ، مقدمة للقارىء العربى (١٩٦٢م) كنموذج من دراسات الوصفيين العرب فى التحليل البنيوى للغة ٠

أما كتاب مناهج البحث فى اللغة فهو يتكامل مع كتاب اللغة بين المعيارية والوصفية ، الذى يتناول الاصول المنهجية ، والمبادىء النظرية للوصفية ، ومن ثم كان من الطبيعى أن يظهر هذا الكتاب قبل كتاب مناهج البحث فى اللغة ، الذى تناول التحليل البنيوى للغة ٠ ولكن لأمر ما ظهر الكتاب الاول قبل الثانى[٦٠]٠ ويستخدم د٠ تمام فى هذا الكتاب مصطلح «مناهج» استخداما خاصا يقصد به ما يستخدم علماء اللغة المحدثون فى الدلالة عليه مصطلح «مستويات» Levels ٠ وهو يقسم هذه المستويات الى ستة مستويات أو مناهج ، كما يسميها ، وهى :

١ ــ منهج الاصوات Phonetics

٢ ــ منهج التشكيل الصوتى Phonology

---

(٥٩) هناك العديد من الكتب التى تناولت دراسة المستوى الصوتى ، لا تقل أهمية عن هذه الكتب ، ثم كان جيل أحدث من هؤلاء ، قدم للمكتبة العربية كتبا فى علم الاصوات منها كتاب دراسة الصوت اللغوى للدكتور أحمد مختار عمر ، وكتاب دراسة السمع والكلام للدكتور سعد مصلوح ٠ ولعل أحدث الكتب العربية التى تناولت هذا المستوى كتاب أصدره أخيرا د٠ عبد الرحمن أيوب بعنوان « الكلام » وطبعته جامعة الكويت ٠

(٦٠) يشير د٠ تمام فى مقدمة كتابه اللغة بين المعيارية والوصفية الذى ظهرت طبعته الاولى عام (١٩٥٧م) الى أن كتاب مناهج البحث فى اللغة قد ظهر قبل كتابه «اللغة بين المعيارية والوصفية» ولكننا سنعتمد فى عرض الكتاب ومناقشته على الطبعة التى صدرت عن دار الثقافة بالدار البيضاء عام ١٩٧٩ ٠

٣ ــ منهج الصرف Morphology

٤ ــ منهج النحو Syntax

٥ ــ منهج المعجم

٦ ــ منهج الدلالة Semantics

وهو يفصل بين الدراسة الدلالية والمعجمية ، مع أن كثيرا من علماء اللغة يعتبرون الدراسة المعجمية وثيقة الصلة بالمستوى الدلالى .

وينطلق د. تمام حسان فى التحليل البنيوى للغة من نظرية يصفها بأنها (نظرية جاءت نتيجة تجارب قرون فى الغـرب ، فهيكلها غربى ، وتطبيقها على اللغـة العربية هو القسـط الذى أنا مسئول عنه فى هذا الكتاب[٦١] . وهذا التطبيق على اللغة العربية كما يقول يتم على مستوى اللغة الفصحى أولا ، مع التمثيل أحيانا باللهجات العامية . ومعنى هذا أننا أمام نظرية غربية ، وتطبيق لهذه النظرية على العربية الفصحى .

أما النظرية فهى ، بشكل عام ، نظرية دى سوسير . يظهـر ذلك بوضوح من حديثه عن استقلال المنهج اللغوى[٦٢] . والفرق بين اللغة والكلام . وكذلك الفرق بين الدراسة التاريخية والدراسة الوصفية[٦٣]. وتعدد الانظمة اللغوية فى اللغة الواحدة[٦٤].

وأما التطبيق فهو فى الحقيقة شرح لطريقة تناول كل مسـتوى من مستويات التحليل اللغوى السابقة من خلال أمثلة من اللغة العربية ، وهو على أهميته فى هذه الفترة من تاريخ الفكر اللغوى العربى الحديث لم يصل الى وضـع نموذج وصفى كامل للغة العربية كما سيفعل د. تمام

---

(٦١) مناهج البحث فى اللغة ، ص ١٣ .
(٦٢) المرجع السابق ، ص ٢٢ .
(٦٣) المرجع السابق ، ص ٣٨ .
(٦٤) المرجع السابق ، ص ٦٥ .
وانظر أيضا ، الفصل الاول من هذا الباب .

نفسه فيما بعد فى كتابه اللغة العربية مبناها ومعناها والذى سنعرض له فيما بعد .

ولكن أهمية هذا الشرح أو التطبيق كما يسميه ترجع الى استخدام مبادىء النظرية اللغوية الحديثة ومصطلحاتها فى التحليل بصورة مباشرة وعلمية ، كما يظهر التصور البنيوى للغة أيضا بصورة مباشرة فى حديث د. تمام عن تعدد الانظمة اللغوية داخل اللغة الواحدة وعلاقة كل نظام منها بالآخر .

فالنظام الصوتى يقوم على وحدات أو نسق من الاصوات هى مادة للوصف من الناحية الصوتية ، حيث يتم درسها عن طريق وصف النماذج وطرق النطق والصفات المصاحبة لهذا النطق ، ولكن هذا الوصف يتم بصورة أدق بواسطة الملاحظة والتجارب مثل تسجيل الصوت واستخدام الآلات الحديثة وصور الاشعة والحنك الصناعى مما يدخل فى نطاق علم الاصوات التجريبى Experimental phonetics ، كما أن استخدام الكتابة الصوتية فى هذا الوصف أكثر دقة من استخدام الكتابة العادية، التى تعانى العربية من قصور واضح فى التعبير بها عن أنواع الصوائت المختلفة المستخدمة فيها(٦٥) ثم يتوقف أمام أصوات اللغة العربية حيث يرى أن «القيم الخلافية» ذات أهمية قصوى فى دراسة الفونولوجيا أو علم التشكيل الصوتى كما يسميه ، ويحدد القيم الخلافية فى المخارج والصفات ، فالجهر والهمس من الصفات التى تختلف فيها الاصوات وتتقابل فى الوقت نفسه حتى ولو اتحدت مخارجها وبناء على هذا الاختلاف والتقابل تحدد كل صوت تحديدا دقيقا ، فبعض معنى الدال أنها صوت شديد مجهور وبعض هذا المعنى أنها ليست تاء ولا زايا مع اشتراكها فى الشدة مع الاول والجهر مع الثانى ومن ثم فان مفهوم المخالفة هو الذى تقوم عليه فكرة القيم الخلافية وبناء على هذه القيم الخلافية يصنف أصوات اللغة العربية الفصحى(٦٦) .

---

(٦٥) المرجع السابق ، ص ٦٧ وما بعدها .
(٦٦) المرجع السابق ، ص ١١٠ ، وما بعدها .

ثم ينتقل بعد ذلك الى ما يسميه منهج التشكيل الصوتى ، أو النظام الفونولوجى حيث يقوم برصد أصغر الوحدات اللغوية التى تؤدى الى التفريق بين معانى الكلمات وهذا الرصد يقوم على المقابلات الصوتية التى توجد فى كل لغة والتفريق بين معانيها وهى دراسة تستقل استقلالا تاما عن الدراسة الصوتية ـ كما يقول ـ وهو يرى كما رأت مدرسة براج من قبل[٦٧] أن الوظيفة والتوزيع هما الأساس فى تحديد عدد الفونيمات فى أى لغة ولكنه يستعمل مصطلح « الحرف » للدلالة على الفونيم Phoneme[٦٨] وبالاضافة الى الوظيفة والتوزيع يستخدم أيضا مصطلحا آخر من مصطلحات التحليل البنيوى وهو « العلاقة » ويقصد بها جهة الشركة أو التخالف بين فونيم وفونيم آخر وهذه العلاقة قد تكون صفة ايجابية فى أحد طرفيها أو صفة سلبية فى الطرف الآخر كعلاقة الجهر المدركة ايجابيا بين الدال والزاى وسلبيا بين الدال والتاء والى جانب مصطلح علاقة يستخدم مصطلحا آخر يطلق عليه « الميل » ويقصد به الميل بالمخرج الاصلى أثناء النطق الى مخرج آخر مثل الاطباق[٦٩] .

ثم يتوقف أمام نظرية الفونيم وعلى الرغم من أنه استخدم مصطلح « الحرف » للدلالة على الفونيم الا انه يبقى على هذا المصطلح أيضا ويستخدمه بجوار مصطلح الحرف ويرى أن الفونيم فى أحد معانيه يقصد به معنى الحرف[٧٠] ويستعرض آراء علماء اللغة فى مفهوم الفونيم مثل دانيال جونز وبدوان دى كورتينى وتروبتسكوى وبلومفيلد وهيلمسليف[٧١] .

---

(٦٧) راجع الفصل الاول من هذا الباب .
(٦٨) مناهج البحث فى اللغة ، ص ١٥٤ .
(٦٩) المرجع السابق ، نفس الصفحة .
(٧٠) المرجع السابق ، ص ١٥٨ .
(٧١) المرجع السابق ، ص ١٦٢ ـ ١٦٣ .
وانظر أيضا الفصل الاول من هذا الباب .

الواقع أن التعريفات المختلفة للفونيم والتى تبدو متعارضة من خلال عرض د. تمام لها انما هى تعريفات ـ كما رأينا من قبل ـ تتفق على شىء واحد وهو أن الفونيم هو وحدة التحليل البنيوى الصغرى سواء كان وجوده نفسيا أو ذهنيا أو ماديا لغويا ، ولكن الفونيمات وحدها كما هو معروف لا تؤدى وظيفتها اللغوية الا من خلال علاقتها بالفونيمات الاخرى داخل البنية اللغوية وهذه تحكمها عوامل مثل مخرج الفونيم المجاور وصفته وهذه العوامل هى التى تحدد ورود فونيم معين فى موقع معين أو عدم وروده والمقطع هو الوحدة اللغوية التى يتحقق فيها ذلك لذلك يقف عند مفهوم المقطع وحدوده وأنواعه فى اللغة العربية وما يوجد منه فى هذه اللغة وما لا يوجد(٧٢) .

ولكن المقاطع ـ كما نعلم ـ تتفاوت فيما بينها من حيث النطق قوة وضعفا ولذلك قام عدد من العلماء بعمل تجارب أثبتوا فيها أن الانتقال Transition من نطق الصامت الى الحركة التالية ومن الحركة الى الصامت التالى تعد من أهم المفاتيح التى يملكها السامع لتحديد المقاطع ومعرفة حدوده ، ولكن هناك أيضا ملامح صوتية أخرى لا تدخل فى البنية أو هى ليست جزءا من بنية الكلمة وانما تظهر وتلاحظ فقط حين تستعمل الكلمة بصورة معينة أو حين تضم كلمة الى كلمة أخرى وهذه الملامح هى مايطلق عليها الفونيم فوق التركيبى Suprsegmental phoneme مثل النبر Stress والتنغيم Intonation والمفصل Duncture وقد اهتم د. تمام بهذا النوع من الملامح الصوتية وان لم يعده من الفونيمات رغم أنه تكلم عن الدور الدلالى للنبر والتنغيم(٧٣) .

أما المورفيم Morpheme أو كما يسميه الوحدة الصرفية فهو عنده أول مرحلة من مراحل التركيب فى اللغة ويقول ان كثيرا من الباحثين يغمض عليهم هذا المصطلح حتى ليخلطون فى تفسيره وتطبيقه خلطا

---

(٧٢) المرجع السابق ، ص ١٦٤ .
(٧٣) المرجع السابق ، ص ١٧٠ ـ ١٧٨ .

كبيرا[٧٤] ولكن من الغريب أنه يعتمد فى تعريفه للمورفيم وأنواعه على «فندريس» لا على «بلومفيلد» ولذلك جـاء تحديد هذا المصطلح عند د. تمام غير واضح فهو يقول أن فندريس يحدد المورفيم بأنه عبارة عن عناصر صرفية تربط الافكار التى يتكون منها المعنى العام للجملة ، وهذه الافكار واضحة فى السيمانتيمات Sematemo أو كما يقول نواة المعجم[٧٥] ويشرح د. تمام هذا التعريف للمورفيم بأنه العنصر المعبر عن الفـكرة التى فى الذهن ويمثل لذلك بجملة « الحصان يجرى » حيث يرى أن السيمانتيم فى مثل هذه الصورة ــ على حد تعبيره ــ عنصر لغوى يعبر عن الفكرة التى فى الذهن كفكرة الحصان وفكرة الجرى ! ومن ثم يرى أن المورفيمات تعبر عن العلاقات بين هذه السيمانتيمات وبناء على ذلك يحدد مصطلح المورفيم بقوله « ان المورفيم فى عمومه عنصر صوتى أو مقطع أو عدة مقاطع تدل على العلاقات بين الافكار فى الجملة»[٧٦] وهذا التعريف ــ ان صح ــ ليس الا نوعا واحدا من أنواع المورفيمات[٧٧].

أما التحليل النحوى أو كما يسميه منهج النحو ، فهو عنده كما هو عند البنيويين عبارة عن دراسة وتحليل العلاقات بين الكلمات داخـل الجملة ، أو كما يقول دراسة العلاقات بين الابواب التى يسعى وراءها عالم النحو ، وهو يحلل ويدرس هذه العلاقات على أساس شكلى خالص مقتفيا فى ذلك أثر مدرسة بلومفيلد ومستبعدا المعنى من التحليل النحوى ولذلك كان مفهوم النحو عنده هو دراسة الجمل التامة من ناحية العلاقات الافقية Syntagmatic relations فى مقابل الصرف الذى يدرس العلاقات الرأسية Paradigmatic relations أو الجـدولية كما يقـول[٧٨] وبغض

---

(٧٤) المرجع السابق ، ص ٢٠٤ .
(٧٥) المرجع السابق ، نفس الصفحة .
(٧٦) المرجع السابق ، ص ٢٠٥ .
(٧٧) راجع Elocmfield, Op. Cit., p. 24, p. 47.
وانظر أيضا الفصل الاول من هذا الباب .
(٧٨) مناهج البحث فى اللغة ، ص ٢٢٨ ــ ٢٢٩ .

النظر عن دقة ترجمة هذه المصطلحات أو عدم دقتها فان مفهوم النحو عنده هو عبارة عن تحليل لبنية الجملة يقوم على تصنيف عناصرها تصنيفا شكليا وظيفيا بعيدا عن ما يسميه المعنى النفسى أو المعنى الذى تتحدث عنه نظرية المعرفة ، لاننا نباعد ــ كما يقول ــ بين الفلسفة والدراسات اللغوية ، اذ نريد أن نجعل المعلومات اللغوية كلها «برجمانية» تنبنى على الاستقراء بالحس لا بالحدس والتخمين(٧٩) .

وبناء على هذه النظرة البرجماتية ! يبدأ فى تصنيف أقسام الكلام تصنيفا شكليا تبعا لشكلها الاملائى أو الصرفى أو المعنى الوظيفى ثم يضيف معيارا آخر هو الوظيفة الاجتماعية وينتهى بناء على هذه المعايير الى أن أقسام الكلام فى اللغة العربية هى أربعة لا ثلاثة كما قرر النحاة القدماء وهى : الاسم ــ الفعل ــ الضمير ــ الاداة(٨٠) .

ثم يعتمد على فكرة الفصائل النحوية Grammatical categories فى دراسة العلاقات داخل الجملة من حيث علاقة الفعل بالفاعل والمبتدأ بالخبر دون أن يربط بين الفصائل النحوية والمورفيمات وأنواعها ووظيفتها فى بيان بعض هذه الفصائل(٨١) ولكنه يربط بين هذه الفصائل النحوية مثل الافراد والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث والزمن وبين ما يسميه التعليق السياقى أو الربط السياقى لان هذه الفصائل تمثل عنده علاقات بين أجزاء الجملة .

أما على المستوى الدلالى فيفصل بين ما يسميه منهج المعجم الذى يدور حول الكلمة ايضاحا وشرحا ليجلو منها المعنى المعجمى والنطق والمعنى الوظيفى وبين منهج الدلالة من حيث هو فرع من فروع علم اللغة يدرس المعنى . ويقسم علم الدلالة بهذا المفهوم الى نوعين علم الدلالة التاريخى وعلم الدلالة الوصفى ، أما الاول فيدرس المعنى المتغير وأما الثانى فيدرس المعنى الثابت ويستعرض آراء العلماء ــ لغويين وغير لغويين ــ فى طبيعة العلاقة بين اللفظ والمعنى ولعل أهم ما فى هذا العرض

---

(٧٩) المرجع السابق ، ص ٢٢٩ .
(٨٠) المرجع السابق ، ص ٢٣٠ وما بعدها .
(٨١) راجع Bloomfield, Op. Cit., p. 270.

ربطه بين النظرة الاستاتيكية فى التحليل الدلالى ونظرية فيرث فى السياق ودوره فى المعنى ، وهنا يتخلى عن فكرة استبعاد المعنى فى التحليل اللغوى ويعود اليها من خلال نظرية فيرث التى يرتبط فيها التحليل البنيوى بالمعنى أولا وأخيرا وقد استدرك د. تمام ذلك فى كتابه اللغة العربية مبناها ومعناها كما سنرى فيما بعد .

وهكذا قدم د. تمام فى كتابه «مناهج البحث فى اللغة» التحليل البنيوى للغة ربما لاول مرة باللغة العربية رغم انه لم يستعمل مصطلح البنيوية فى كتابه ، كما قدم هذا التحليل من خلال نظريات مختلفة بل متعارضة أو من خلال عدة مدارس لغوية بدءا بدى سوسير ثم نظرية بلومفيلد السلوكية ونظرية فيرث فى السياق ولذلك كانت المصطلحات اللغوية فى الكتاب تتأرجح بين هذه النظريات المختلفة ولعل السبب فى ذلك أن فكرة التحليل الى مستويات أو نظم داخلية فى اللغة وعلاقة هذه النظم بعضها ببعض كانت الشغل الشاغل لهؤلاء الوصفيين فى تلك الفترة من تاريخ الفكر اللغوى العربى لجدتها وطرافتها فى مقابل التحليل اللغوى التقليدى الذى لم يرتبط بهذه النظم اللغوية ارتباطا ظاهرا وواضحا كما هى فى علم اللغة الحديث وقد انتهى هذا التحليل البنيوى الى الاطمئنان الى نظرية فيرث من حيث مزجها بين تحليل المبنى بما له من صلة بالمعنى على الاقل عند د. تمام ولعل السبب فى ذلك أيضا يرجع الى أن التراث العربى يعطى أهمية بارزة للمعنى بما له من صلة بالقرآن الكريم واعجازه وسنرى أن هذا المزج بين المبنى والمعنى سيأخذ صورة نموذج كامل عند د. تمام فى كتابه « اللغة العربية مبناها ومعناها » وهو النموذج الوحيد الذى طبق التحليل البنيوى على اللغة العربية تطبيقا كاملا كما سنرى فيما بعد .

أما الكتاب الثانى الذى قدم التحليل البنيوى بما له من صلة بالوصفية فهو كتاب أستاذنا الدكتور محمود السعران « علم اللغة مقدمة للقارىء العربى » (١٩٦٢م) من عنوان الكتاب نشعر بصورة مباشرة اننا أمام علم غريب على القارىء العربى ومن ثم فهو يسعى لتقديم أصول هذا

العلم الاساسية بشكل واضح وبسيط بحيث لا يخل بالموضوع وعلميته ولا يستغلق على القارىء الخالى الذهن استيعابه ، وبالرغم من مضى أكثر من ربع قرن تقريبا على صدور هذا الكتاب الا أنه مازال صالحا لتقديم الاصول النظرية والتحليلية للبنيوية الوصفية بل لعله الكتاب الوحيد من بين كتب الوصفيين التى اهتمت بالاطار التاريخى للفكر اللغوى الانسانى بما له من صلة بتطور علم اللغة بعامة والبنيوية الوصفية خاصة بقول فى مقدمة الكتاب « وأنا لم ألتزم فى جملة ما عرضت مذهبا بعينه فى كل أصوله وفروعه من مذاهب الدرس اللغوى المتعددة ، بل ركنت الى التعريف بالاصول العامة التى ارتضيتها والتى قل أن يختلف فيها أصحاب هذا العلم مع بيان مصادرها ومذاهب أصحابها فى معظم الاحوال ، مع الاشارة فى الوقت نفسه الى الاراء المخالفة الصادرة عن مذاهب أخرى حتى يكون القارىء على بينة من المذاهب اللغوية المختلفة وعلى دراية بالفلسفات التى قامت عليها ، وعلى علم بأهم المؤلفات فيها ، فلا يضل الطريق فى زحمتها عندما يتاح له الاتصال بشىء منها »(٨٢) .

وبالرغم من هذه الحيدة الا أننا نلمح بجانب الالتزام بالاطار التاريخى الذى أشرنا اليه التزاما آخر بنظرية « فيرث » كان يستهدى بها فى تقديم أصول البنيوية الوصفية التى غالبا ما كان يبنى عليها ترجيحاته ومقارناته من المدارس اللغوية وخاصة عندما يتصل الامر بدراسة المعنى وتحليله كما سنرى .

ولعل من أهم المقدمات التى يحتوى عليها هذا الكتاب فكرة العلمية وارتباطها بعلم اللغة فعلم اللغة موضوع محدد يدرس اللغة دراسة موضوعية أو هو عنده كما قال دى سوسير « يدرس اللغة فى ذاتها ومن أجل ذاتها ، أى أنه يدرسها بغرض الدراسة نفسها التى تستهدف الكشف عن حقيقتها دون التطرق فى هذه الدراسة الى أغراض تعليمية أو تربوية أو عملية كما أنه لا يدرسها هادفا الى ترقيتها أو تصحيح جوانب منها

---

(٨٢) د. محمود السعران ، علم اللغة ، ص ٣ .

أو تعديل أخرى وباختصار فان علم اللغة عنده مقصور على أن يصف اللغة ويحللها بطريقة موضوعية(٨٣) .

وتأتى أهمية الدراسة العلمية للغة على هذا النحو ـ مع التسليم بها الآن ـ تأتى من جديتها وأصالتها بالنسبة للفكر اللغوى العربى آنذاك . فلم تكن الدراسة اللغوية عند العرب على هذا النحو من الموضوعية والتحديد . وانما ـ كما رأينا من قبل ـ اختلطت بأهداف خاصة عملية تتصل بدراسة القرآن الكريم والكشف عن اعجازه .

ولكن اللغة ليست مجرد بنية ، وانما تتصل بقضايا أخرى ، ولذلك يتوقف أمام علاقة اللغة بهذه القضايا مثل علاقة اللغة بالكلام ووظيفته ، ويعتمد فى تحديد هذه الوظيفة على تعريف ادوارد سابير كما يقف أمام مفهوم اللغة من حيث هى نظام من العلامات الاصطلاحية ، ويعتمد على مفهوم دى سوسير للرمز اللغوى لينتهى الى أن اللغة تشترك مع طائفة أخرى من النظم السمعية والبصرية فى الطبيعة الرمزية(٨٤) . ولما كانت اللغة ظاهرة اجتماعية يرى د. السعران رحمه الله أن دراستها تحتاج الى الاستعانة بعلوم أخرى مثل علم الاجتماع وعلم وظائف الاعضاء ، وعلم التشريح ، بل بالتاريخ والجغرافيا وعلم النفس . ولكن هذه العلوم لا تقلل من أهمية الدراسة الموضوعية للغة ، وليست فرضا ميادين أخرى عليها ، وانما هى تنبع من كون اللغة ظاهرة اجتماعية ولكنه يستبعد من الدراسة العلمية للغة ما يسميه بالفلسفة اللغوية التى تقوم على أسس منطقية وعقلية ولكنه لا يستبعد النظرة الفلسفية ، ويقصد بها مجموعة المبادىء أو الاصول التى يقوم عليها علم اللغة ، ويشترط فى ذلك أن تكون هذه الفلسفة مستمدة من اللغة لا من خارجها ، والا فقد علم اللغة استقلاله(٨٥) أى لابد أن تقوم هذه الفلسفة على أساس فهم ما هية اللغة ، وفيما تستعمل وكيف تستعمل ، أى أن هذه

---

(٨٣) المرجع السابق ، ص ١٣ ـ ٥٤ .
(٨٤) راجع الفصل الاول من هذا الباب .
(٨٥) علم اللغة ، ص ٥٩ ـ ٦٥ .

الفلسفة ينبغى أن تستقى عناصرها من طبيعة اللغة نفسها ومن طبيعة الادوار التى تقوم بها فى الحياة الانسانية • ويتصل بهذه الفلسفة أيضا عمليات التجريد والتعميم التى يضطر عالم اللغة للقيام بها على مستويات التحليل المختلفة حتى يسلم وصفه وتحليله وتصح نتائجه• ومن فلسفة هذا العلم أيضا التمييز بدقة بين الدراسة التاريخية والدراسة الوصفية[٨٦] •

وبعد هذه المقدمات الاساسية حول مفهوم علم اللغة وموضوعه وفلسفته ينتقل الى التحليل البنيوى للغة • و د• السعران رحمه الله، من أوائل الذين استعملوا مصطلح البنية structure والبنيوية Structuralism وتحليل البنية يبدأ عنده بطبيعة الحال بالمستوى الصوتى Phonetics ولكنه يمهد لذلك بلمحة تاريخية عن تطور الدراسة الصوتية منذ اليونان والرومان ، مرورا بالهنود والعرب حتى يصل الى التطور الهائل فى الدراسة الصوتية فى أوروبا وأمريكا[٨٧] • ويعرف علم الاصوات بأنه الدراسة العلمية للحدث الكلامى Speech event دون الاشارة الى معناه[٨٨] • وتقضى هذه الدراسة العلمية بتقسيم وتفتيت هذا الحدث الكلامى وتحليله الى عناصره ، وهى عملية تجريدية تظهر صعوبتها فى دراسة أصوات لغة لا نعرفها • ولما كان الصوت اللغوى يصدر عن جهاز النطق الانسانى لذلك فهو ذو طبيعة خاصة تجعله مختلفا عن أى أصوات أخرى • وبناء على ذلك فان دراسة الاصوات تتطلب مراحل أساسية هى:

١ ــ دراسة حركات التكلم التى تحدث الصوت ، وهذا يختص به علم الاصوات الفسيولوجى Physiological phonetics

٢ ــ دراسة انتقال الصوت فى الهواء ، وهذه الدراسة يختص بها علم الاصوات الفيزيائى Physical phonetics أو علم الاصوات الاكوستيكى acoustic Phonetics

---

(٨٦) المرجع السابق ، ص ٨٤ •
(٨٧) المرجع السابق ، ص ٩١ ــ ١٠٢ •
(٨٨) المرجع السابق ، ص ١٠٤ •

٣ ـ دراسة استقبال اذن السامع للصوت اللغوى • ويختص بها علم الاصوات السمعى Auditory phonetics

ومن الوسائل الهامة التى يلجأ اليها علم الاصوات مايعرف بالدراسة الصوتية التجريبيـــة ، أو الألية Experimental phonetics والكتابة الصوتية ، Phonetic transeription وسيلة فعالة للتعبير عن الحقائق الصوتية بدقة علمية(٨٩) •

بهذه الفروع لعلم الاصوات يحدد د• السعران رحمه الله الاطار العام لتحليل الحدث الكلامى • ولكنه يرى أن علماء الاصوات وجهوا عنايتهم الى دراسة المسألة الاولى وبذلوا جهودا طيبة فى دراسة المسألة الثانية • أما المسألة الثالثة فلا تزال تنتظر مزيدا من البحث • وقد شهد العقدان الاخيران من هذا القرن ما تنبأ به فى صورة تطور فى دراسة هذا الجانب ، استخدمت فيه أجهزة وآلات معقدة(٩٠) • ومع ذلك فهو يعطى أهمية واضحة أثناء تناوله لفروع علم الاصوات للجانب التجريبى من هذا العلم فيصف كثيرا من آلاته وأجهزته(٩١) • وبمثل هـذه العنايـة ينتقل الى تصنيف الاصوات اللغوية حسب طريقة النطق ، وحسب موضع النطق • ويقسمها الى مجهورة ومهموسة ، وهو التصنيف الذى يلتقى فى بعض جوانبه مع الدراسة الصـوتية ، التقليدية ، وان اختلف معها فى بعض الخصائص والصفات الصوتية التى لم يفطن اليها القدماء نتيجة لافتقارهم الى معرفة الصفة التشريحية للحنجرة وما تحتويه من أوتار صـوتية • ويدخل فى هـذا التصنيف عنده ارتبـاط الصوت بغيره من الاصوات فيتوقف عند المقاطع والنبر والتنغيم •

واذا كانت الدراسة الصوتية تعد دراسة مجردة ، أى تتناول الصوت

---

(٨٩) المرجع السابق ، ص ١٠٥ وما بعدها •
(٩٠) راجع د• سعد مصلوح ، دراسة السمع والكلام ، القـاهرة ، عالم الكتب (١٩٨٠ م) •
(٩١) راجع علم اللغة ، ص ١٠٧ ـ ١١٧ •

منعزلا فان الدراسة الفونولوجية تدخل عنده في صلب الدراسة البنيوية لاصوات لغة معينة حيث تتنوع الاصوات وتختلف بدخولها فى علاقات بنيوية داخل هذه اللغة • ومن ثم فان عالم اللغة يجد نفسه أمام تنوعات كثيرة لوحدة صوتية معينة • ومع ذلك فان هذه التنوعات لا تؤدى فى النهاية الى اختلاف المعنى ، بل يمكن ردها الى أصوات محـددة عن طريق تحليل السلسلة الكلامية الى وحـدات متمايزة بما لها من صلة بالدلالة أو المعنى ، وهو ما اصطلح على تسميته بالفونيم •

وهذا التحليل الوظيفى يقوم على تحديد القيم الخلافية والتقابلية فى أصوات لغة من اللغات ، ودراسة النظام الفونولوجى للغة وخصائصه تدخل عنده فى صميم العلاقات البنيوية ، أو علم الفونولوجى ، أو علم الاصوات اللغوية الوظيفى ، كما أسماه د• السعران[٩٢]• وهذا الفرع من علم اللغة ، كما رأينا من قبل ، وضعت أصوله فى مدرسة « كازان » ثم تطور فى مدرسة «براج» التى اعتبرت أن علم الاصوات Phonetics علم طبيعى يستخدم وسائل آلية ، أما الفونولوجى فهو علم لغوى• ولكن د• السعران رحمه الله يرى أن هذا الفصل بين العلمين لايؤدى بالضرورة الى اعتبار كل منهما علما مستقلا ويرتضى فى هذا الصدد رأى «مالمبرج» الذى ذهب الى أن دراسة الظواهر الصوتية والفسيولوجية الخـاصة بالكلام الانسانى ينبغى أن تسير موازية للدراسة الفونولوجية وأن هذا الفصل بين العلمين لون من العبث،اذ أن كلا منهما يعتمد على الاخر[٩٣]•

ومن التحليل الفونولوجى ينتقل الى التحليل النحـوى ويرى أن معظم علماء اللغـة فى الغرب يتناولون فى التحليل النحـوى موضوعين أساسيين هما :

١ ــ المورفولوجيا Morphology

---

(٩٢) المرجع السابق ، ص ٢١٢ •
(٩٣) المرجع السابق ، ص ٢١٩ ــ ٢٢٠ • وانظر أيضا :
Crystal linguistics p. 182.

٢ ـ النظم Syntax

وهذا التناول يتم بناء على أصـول شكلية أو صـورية Formal لان كل لغة تعرض المعانى بطرق خاصة ، ونحن نتلقى هذه المعانى مرتبة بالترتيب الذى يقدمه لنا الكلام ، أى فى الصور والاشكال اللفظية التى يظهر بها الكلام • ومن أهم صفات التحليل النحوى لهذه الاشكال اللفظية أن يستبعد عالم اللغة ، الاصول الفلسفية القديمة فى التحليل ، كما يستبعد أيضا التقديرات العقلية وما اليها من تأويل أو تفسير ، ومن ثم فان أهم ما يوصف به التحليل النحوى أن يكون شكليا أو صوريا لان هدفه هو الصور اللفظية وتصنيفها على أسس معينة ثم تصنيف العلاقات الناشئة بين الكلمات داخل الجملة ، وهذا التحليل ـ كما يرى ـ من ناحية أخرى تحليل وظيفى لانه يقوم على ادراك الدور الذى تقوم به الكلمة داخل الجملة ومن ثم ينبغى استبعاد المعنى من التحليل النحوى(٩٤) •

ومع ذلك يقرر أن الوحدات النحوية التى يقوم عليها التحليل النحوى تتألف عادة من المورفيمات والكلمات(٩٥) وهى ـ كما يقول ـ الوحدات الحاملة للمعنى ، وبغض النظر عن تقسيم هذه الوحدات النحوية الى مورفيمات وكلمات اذ الكلمات تدخل فى اطار المورفيمات الحرة طبقا لتقسيم بلومفيلد لها(٩٦) • الا اننا نلمح محاولة للتوفيق بين آراء بلومفيلد التصنيفية الشكلية وابتعادها للمعنى وآراء فيرث الذى ينطلق فى نظريته من المعنى وصدد هذا يقول د• السعران ـ يرحمه الله ـ « ان الحقائق الاساسية التى تقوم عليها النظم النحوية تبين أن اللجوء الى المعنى لا ضرورة له ، وأنه عندما يصطدم بالشواهد الشكلية يكون مضللا ، وفيما عدا ما يصح من أن المادة اللغوية كلها ذات معنى على مستويات مختلفة الا أن هذا لا يعنى اللجوء الى المعنى فى تقدير الاسس

---

(٩٤) المرجع السابق ، ص ٢٣٢ •
(٩٥) المرجع السابق ، ص ٢٣٧ •
(٩٦) راجع الفصل الاول من هذا الباب •

النحوية[٩٧] غير أنه يقول بعد ذلك مباشرة : « ولا حاجة بنا الى القول ان هذا لا يتضمن استبعاد المعانى فى البدء كمعالم أو مشيرات فى المراحل الاولى من التحليل النحوى ، كما أن ما قلناه من أن التحليل النحـوى لا يلجأ الى المعنى لا يتضمن أن عرض نظام نحوى ما ينبغى الا يقرر أى معان أو خصـائل دلالية ترتبط ارتباطا وثيقـا أو ضعيفا بالفصائل الشكلية ولو أنه من الواضح أن الافضل أن أمثال هذه المعانى ينبغى أن تقرر فى عبارات موضوعية»[٩٨] .ثم ينتهى من هذه المناقشة لدور المعنى فى التحليل اللغوى ليقرر أن تحليل اللغات قد كشف عن درجة كبيرة من التطابق بين الوحدات الدلالية والوحدات النحوية وقد أغرى هذا عددا كبيرا من اللغويين بالربط بين التحليل النحوى والمعنى أو المضمون[٩٩] .

ولاشك أن « فيرث » كان واحدا من هؤلاء اللغويين الذين ربطوا بين التحليل النحوى والمعنى ، ولكن سطوة المدرسة الشكلية الامريكية كانت تحول دون ظهور عمق التحليل النحوى وواقعيته من حيث ارتباطه بالمعنى سواء عند فـيرث أو غيره من عـلماء اللغة وهـو ما استدركته النظرية التحويلية فى تعاملها مع البنية العميقة للتراكيب النحوية حيث ينجلى المعنى الحقيقى للجمل .

غير أن التحليل النحوى الشكلى قد وجد مناخا مهيأ لقبوله فى الفكر اللغوى العربى الحديث نظرا لرفضه التعليلات المنطقية والتقـديرات النحوية التى ارتبط بها التحليل النحوى التقليدى ، ومن ثم ارتبط المنهج الشكلى ــ كما رأينا من قبل ــ عند عدد كبير من الباحثين بالوصفية حتى أصبحت تعنى عند جمهرة كبيرة من اللغويين العرب التحليـل الشكلى للغة بعيدا عن المعنى خصوصا فى العقد السادس من القرن الحـالى حيث أصبحت الشكلية والتحليل الشكلى على المستوى النحوى من أصول علم اللغة الوصفى والوصايا التى يقدمها د. السعران ــ يرحمه الله ــ

---

(٩٧) علم اللغة ، ص ٢٣٢ .
(٩٨) المرجع السابق ، نفس الصفحة .
(٩٩) المرجع السابق ، ص ٢٣٣ .

للواصف النحوى تؤكد ذلك وتقرره[١٠٠] .

أما المستوى الدلالى فى كتاب علم اللغة مقدمه للقارىء العربى فيغلب عليه الطابع التاريخى أكثر من التحليلى وهو يقرر أن دراسة المعنى أو علم الدلالة Semantics كفرع من فروع علم اللغة هو «غاية الدراسات الصوتية والفونولوجية والنحوية والقاموسية انه قمة هذه الدراسات»[١٠١] ولان قضية المعنى من شأنها أن تشغل المتكلمين جميعا على اختلاف طبقاتهم ومستوياتهم الفكرية ، فقد أصبح النظر فيه موضوعا شارك فيه علماء ومفكرون من ميادين مختلفة مثل الفلاسفة والمناطقة قديما وعلماء النفس والاجتماع والانثروبواوجيا حديثا ، كما أسهم فيه علماء السياسة والاقتصاد والفنانون والادباء حتى ضجر كثير من علماء اللغة من قضية المعنى والكلمة الدالة على معنى ومن سوء استخدامها وما توقع فيه من مشكلات ومن ثم دعا بعضهم الى تنحية المعنى من الدراسة اللغوية ولكن الثابت ـ كما يقول ـ أن علم اللغة لا يتيسر له أن يقوم دون تصور الكلمة وما يرتبط بها من معنى[١٠٢] .

ومنذ الوهلة الاولى فى دراسة د. السعران لقضية المعنى يتضح انحيازه الى المدرسة الاجتماعية الانجليزية التى يمثلها « فيرث » فالسياق أو العناصر غير اللغوية ذات دخل كبير فى تحديد المعنى ، بل هى جزء من الموقف الكلامى يتمثل فى شخصية المتكلم والسامع ، وما بينهما من علاقات ، وما يحيط الكلام من ظروف وملابسات ويدلل على ذلك بنصوص وعبارات يستقيها أحيانا من الشعر الجاهلى وأمثال العرب والقرآن الكريم والشعر الصوفى والاحاديث اليومية[١٠٣] .

---

(١٠٠) المرجع السابق ، ٢٥٩ ـ ٢٦١ .
(١٠١) المرجع السابق ، ص ٢٨٥ .
(١٠٢) المرجع السابق ، ص ٢٨٦ .
(١٠٣) المرجع السابق ، ص ٢٨٨ ـ ٢٩٦ .

ثم يتوقف أمام تحصيل المعنى ، وخاصة عند الاطفال ، الذين يسمعون كلاما متصلا مرتبطا بسياقات مختلفة وبكثرة التكرار والتقليد وارشاد من حولهم تأخذ بعض الاصوات فى الدلالة على المعنى • ويرى أن التقليد والسماع هما وسيلتا الطفل فى تحصيل المعنى الذى يرتبط بالكلمات المفردة عند الطفل دون التراكيب •

ولكن النظرية اللغوية المعاصرة رفضت فكرة التقليد من أساسها لتفسير النمو اللغوى عند الطفل ، ونادت بالقدرة الفطرية التى يولد الطفل مزودا بها ، والتى تعينه فى التحكم فى مستويات اللغة المختلفة •

وفى تحليل المعنى يقف به عند حدود الفرق بين المضمون المنطقى الذى يعادل عنده المعنى المعجمى ، والمضمون النفسى الذى يختلف من فرد الى فرد طبقا لثقافته وطبقته الاجتماعية ويخلص الى أننا لانستعمل الكلمات بمعناها المنطقى منفصلا عن مضمونها النفسى •

ثم ينتقل بعد ذلك الى تغير المعنى وقوانينه فيعرض لانواع التغير الدلالى ، انحطاطا وتساميا وتعميما وتخصيصا ، ثم علاقة التغير الدلالى بالتاريخ الثقافى • وتحت عنوان مناهج دراسة المعنى يعرض لتاريخ الدرس الدلالى منذ نشأته على يد « ميشيل برل » (١٨٩٧م) وحتى ظهور نظرية فيرث فى الاربعينيات من هذا القرن،وهو يقسم هذا التاريخ الى قسمين : الاول خاص بكتابات غير اللغويين • والثانى خاص بكتابات علماء اللغة فى دراسة الدلالة(١٠٤) •

أما نظريات اللغويين فى علم الدلالة فهى تبدأ عند د• السعران كما تبدأ عند جميع علماء اللغة من دى سوسير ، مؤسس المدرسة الاجتماعية فى الدراسة اللغوية ، ويشير د• السعران الى أن دى سوسير قد أقام نظريته الاجتماعية فى اللغة على أساس من نظرية «دوركايم» الاجتماعية التى تصبح اللغة فيها من جملة الظواهر الاجتماعية ويفرق بين ثالوث

---

(١٠٤) المرجع السابق ، ص ٣١٧ ـ ٣٢٧ •

دى سوسير الشهير (اللغة واللسان والكلام) لينتهى الى أن لغة مجتمع معين هى شيء أو ظاهرة مستقلة عن الفرد • وأن الكلمات ، من حيث هى علامات ذات وجود مستقل فى كل لسان عن الفرد وأن معناها اجتماعى فى جوهره ولذلك فان القيمة اللغوية للكلمة تكمن فى شيئين : الفكرة والصورة السمعية التى تدعو الفكرة • ولذلك فان الكلمة داخل النظام اللغوى ، كما يقول دى سوسير ، ما هى الا علامة لغوية نفرق بها بين فكرتين • وأن قيمة كل علامة تتوقف على وجود سائر العلامات الاخرى(١٠٥) •

ثم ينتقل بعد ذلك الى المدرسة السلوكية ، أو مدرسة بلومفيلد ، ويعرض لنظريته ومذهبه السلوكى وخاصة فيما يتصل بتحليل المعنى ودراسته(١٠٦) •

أما مدرسة فيرث ، أو المدرسة الاجتماعية الانجليزية ، فهى تمثل عند د• السعران آخر المدارس اللغوية التى اهتمت بقضية المعنى • فيقف عندها بالتفصيل عارضا لآراء مالينوفسكى التى أقام عليها فيرث نظرية سياق الحال • ويرى د• السعران أن هذه المدرسة تنظر الى المعنى على أنه وحدة مركبة من مجموعة من الوظائف اللغوية الصوتية والفونولوجية والمورفولوجية والنحوية والمعجمية • ولكى نصل الى حقيقة المعنى لابد من تحليل هذه الوحدة على هذه المستويات اللغوية مع بيان العوامل الخارجية والسياق الاجتماعى أو بعبارة أخرى ، المعنى المقالى والمعنى المقامى للكلام(١٠٧) •

ويختم د• السعران كتابه بفصل عن تاريخ الدراسات اللغوية ، وهو موضوع يكاد هو والدكتور أيوب أن ينفردا بالكتابة فيه ، غير أن ماكتبه

---

(١٠٥) المرجع السابق ، ص ٣٢٧ ـ ٣٣١ •
(١٠٦) المرجع السابق ، ص ٣٣١ وما بعدها •
وانظر أيضا الفصل الاول من هذا الباب •
(١٠٧) المرجع السابق ، ص ٣٣٧ وما بعدها •

د• السعران ، اذا ما قورن بما كتب حوله باللغة العربية ، يعـد أكثر شمولا رغم ايجازه الشديد •

بهذا الكتاب يكتمل الجانب النظرى فى البنيوية الوصفية فى دراسة اللغة من حيث الاصول العامة ومستويات التحليل اللغوى • ولا شك أن دعاة الوصفية ممثلين فى د• عبد الرحمن أيوب و د• تمام حسان و د• كمال بشر و د• محمود السعران قد استدلاعوا بما كتبوه أو أذاعوه حول الوصفية زعزعة بعض الافكار والاصول التى قام عليها التفكير اللغوى العربى التقليدى ، بل لعل نجاحهم فى هذا الجانب النظرى يفوق نجاحهم فى التطبيق • اذ لم تسفر هذه الدعوة طوال عشر سنوات أو تزيد عن نموذج كامل لتحليل اللغة العربية ودراستها بناء على البنيوية الوصفية التى اعتنقوها ودعوا اليها • وانما كانت معظم أعمـالهم تنصب على تطبيقات جزئية من اللغة العربية وعلى مستوى من مستوياتها • يكتفى أحيانا بالمثال أو الظاهرة المنفصلة دون النظر الشامل لمستويات التحليل اللغوى للعربية داخل اطار نموذج جديد ، ولكن دعاة الوصفية طـوال هذه السنوات العشر استطاعوا أن ينشروا مبادىء علم اللغـة الحديث وأصوله النظـرية • ومن ثم زلزلوا فكرة اكتمال عـلوم اللغة العربية ـ على الاقل ـ داخل الجامعات • وعدم احتياج اللغة العربية لنظريات أجنبية تطبق عليها • وكانت التفرقة بين دراسة اللغة من حيث هى ظاهرة انسانية عامة ، ودراسة اللغة من حيث هى لغة معينة أمرا لم يلتفت اليه علماء العربية القدماء ، ومن ثم كانت هذه الفكرة من الاصول الجوهرية التى قدمها دعاة الوصفية للفكر اللغوى العربى الحديث • كما قدموا أيضا فكرة التطور اللغوى والدراسة التاريخية للغة فيما يعرف بالتفرقة بين الدراسة الآنية Syncronic والدراسـة التاريخية Dycronic ولم تكن فكرة التطور اللغوى ملحوظة ، أو ذات وجود فعال فى توجيه التفكير اللغوى عند البصريين أو الكوفيين أو من جاء بعدهم من علمـاء اللغة • وان وجدت آثارها فى جوانب من التراث اللغوى العربى • كما أشاعوا أيضا فى كتاباتهم الفرق بين دراسة اللغة المنطوقة Spoken language ودراسة اللغة المكتوبة Written language وأن لكل منهما نظاما خاصا

يختلف عن الاخر وهو ما لم يلحظه القدماء فى تحليلاتهم اللغوية كما قدموا أيضا مبدأ الموضوعية فى الدراسة اللغوية من حيث اعتماده على وصف الاشكال اللغوية ورصدها وتصنيفها دون تقويمها ، أو الحكم عليها ، فليست هناك لغة أفضل من لغة أو لهجة أفضل من لهجة • وانما مهمة عالم اللغة تنحصر ، كما تصوروها فى الوصف والتحليل والتصنيف• ومن ثم أصبحت اللغة العربية ، من حيث هى لغة ، تستوى مع غيرها من اللغات الاخرى • كما ألحوا على ابعاد فكرة التعليل أو التفسير ، سواء فى التحليل اللغوى أو لاستعمالات لغوية معينة • وارتبطت هذه الفكرة بفكرة الصواب والخطأ التى لا ينبغى أن توجه الدراسة اللغوية • أو بعبارة أخرى ارتبطت هذه الفكرة بالمعيارية التى تجافى الوصفية ، وتنحرف بعلم اللغة عن موضوعيته •

وهنا نجد أن دعاة الوصفية قد أشاعوا لونا من التناقض بين الوصفية من ناحية والمعيارية من ناحية أخرى • وهو تناقض يعنى عندهم النفى الذى يرتبط باختلال النظر والمنهج فى البحث اللغوى • وعلم اللغة ينبذ فعلا كل موقف معيارى من الاستعمال اللغوى فهو لا يحكم على هذا الاستعمال أو يقومه • وقد نتج عن وضع الوصفية فى مقابل المعيارية وضعا متناقضا على هذا النحو ، أن خلقت الوصفية لنفسها أعداء كانت فى غنى عنهم ممن يتمسكون بحرفية التراث،بل مازالت بعض أصداء هذا العداء تتردد حتى اليوم ، ولعل السبب فى ذلك أن دعاة الوصفية لم يفطنوا الى موقفين مختلفين لا تناقض بينهما هما الوصفية من ناحية ، والمعيارية من ناحية أخرى ، فالوصفية لا تعنى بالضرورة الهجوم على المعيارية ورفضها ، فعالم اللغة قد يكون وصفيا فى مرحلة معينة،ومعياريا فى مرحلة أخرى ، أو قد يكون وصفيا ومعياريا فى آن واحد • وصفيا عندما ينظر الى القوانين العامة التى تحكم الاستعمال اللغوى • ويصفها ويستقرىء خصائصها ويصنف وحداتها ويبنى نموذجا لما يجرى فى داخلها • ومعياريا عندما يستخدم نتائج هذا الوصف فى تعليم اللغة مثلا•

وقد أدى هذا الاختلاط بين موقفين لا تناقض بينهما الى وصم علم اللغة بأنه علم أجنبى ورطانات لا تصلح للغة العربية ونتيجة لذلك ازداد

تمسك علماء اللغة التقليديين بالنماذج القديمة التى ألفوها وحفظوها عن ظهر قلب • خصوصا وأن دعاة الوصفية قد أخفقوا فى وضع نموذج كامل لوصف العربية وفق نظريات علم اللغة وما قد يترتب على هذا النموذج من نتائج عملية فى تعليم اللغة العربية فى المدارس والجامعات وتلك كانت حجة المناوئين لعلم اللغة وما زالت •

وقد ظل التحليل البنيوى الوصفى للغة قابعا طوال العقد السابع وبداية العقد الثامن من هذا القرن فى اطاره النظرى والابحاث والمحاضرات ، سواء فى الجامعة أو فى غير الجامعة ، دون أن يتجاوز ذلك الى نظرة شاملة للغة العربية يقف بها أمام النموذج التقليدى حتى صدر كتاب د• تمام حسان اللغة العربية مبناها ومعناها (١٩٧٣ م) وهو يمثل التيار الثالث والاخير من التيارات التى أسفر عنها الفكر البنيوى الوصفى فى دراسة اللغة•

ثالثا ــ تطبيق النظرية اللغوية الحديثة على اللغة العربية :

لاشك أن كتاب د• تمام حسان « اللغة العربية مبناها ومعناها » يقف وحيدا فى مجال تطبيق النظرية اللغوية الحديثة على اللغة العربية، وأعنى بالنظرية اللغوية الحديثة هنا ، الاطار العام والتحليلى للبنيوية الوصفية التى سيطرت على الفكر اللغوى الى ما قبل ظهور نظرية تشومسكى فى رأى بعض المؤرخين ، كما أعنى بها أيضا بصورة خاصة ، نظرية فيرث اللغوية ، أو بعبارة أخرى ، أن النظرية اللغوية التى طبقها د• تمام فى دراسته للغة العربية هى نظرية فيرث ، وهى نظرية ، كما أشرت من قبل ، تأثر بها ثلاثة من دعاة الوصفية هم : د• تمام و د• كمال بشر و د• محمود السعران •

ولكن أهمية كتاب «اللغة العربية مبناها ومعناها» تأتى كما قلت من حيث هو محاولة التطبيق الوحيدة التى أسفر عنها الاتجاه الوصفى ، كما تأتى أيضا من تجاهل هذا التطبيق وعدم تقويمه أو التعرض له أو

مناقشته طوال ثلاثة عشر عاما تقريبا ، منذ نشره ، برغم دعوة صاحبه جمهور الدارسين الى ذلك(١٠٨) .

والكتاب فى الحقيقة ليس نموذجا وصفيا للغة العربية الكلاسيكية أو المستعملة فى هذا العصر أو فى أى عصر من عصور العربية أو احدى لهجاتها ، وانما هو من قبيل اعادة النظر فيما جاء فى كتب النحو والصرف من وصف للغة العربية الكلاسيكية ، وبعبارة أخرى هو قراءة جديدة لتراث اللغوى العربى من منظور علم اللغة الحديث ، واذا شئنا الدقة من خلال نظرية من نظريات علم اللغة الحديث ، وهى نظرية السياق عند فيرث .

وبهذا يخالف الدكتور تمام حسان أول مبدأ من مبادىء الوصفية ، كما دعا لها وبشر بها ، يقول فى مقدمة الكتاب : « مجال هذا البحث اللغة العربية الفصحى بفروع دراستها المختلفة ، فليس هذا الكتاب كتابا فى فرع معين من فروع هذه الدراسات ، ولكنه يجول فيها ويأخذ من كل فرع منها ما يراه بحاجة الى معاودة العلاج على طريقة تختلف اختلافا عظيما أو يسيرا عن الطريقة التى ارتضاها القدماء ، ثم ينتهى أخيرا الى نتيجة مختلفة أيضا »(١٠٩) .

نحن اذا أمام دراسة تقوم على دراسات سابقة ، ولسنا أمام وصف جديد للغة العربية الكلاسيكية أو اللغة العربية المعاصرة ، أو كما يقول : « والغاية التى أسعى وراءها بهذا البحث أن القى ضوءا كاشفا على التراث اللغوى العربى كله منبعثا من المنهج الوصفى فى دراسة اللغة »(١١٠) .

ولان المنهج الوصفى ليس من مهامه الاساسية اعادة النظر فى نماذج وصفية أو تحليلية أخرى وانما يقوم على دراسة اللغة المنطوقة والمستعملة فعلا ، يرى الدكتور تمام حسان فى عمله هذا تطبيقا من لون

---

(١٠٨) د. تمام حسان ، اللغة العربية مبناها ومعناها ، المقدمة .
(١٠٩) اللغة العربية مبناها ومعناها ، ص ٩ .
(١١٠) المرجع السابق ، ص ١٠ .

مناقشته طوال ثلاثة عشر عاما تقريبا ، منذ نشره ، برغم دعوة صاحبه جمهور الدارسين الى ذلك(١٠٨) .

والكتاب فى الحقيقة ليس نموذجا وصفيا للغة العربية الكلاسيكية أو المستعملة فى هذا العصر أو فى أى عصر من عصور العربية أو احدى لهجاتها ، وانما هو من قبيل اعادة النظر فيما جاء فى كتب النحو والصرف من وصف للغة العربية الكلاسيكية ، وبعبارة أخرى هو قراءة جديدة لتراث اللغوى العربى من منظور علم اللغة الحديث ، واذا شئنا الدقة من خلال نظرية من نظريات علم اللغة الحديث ، وهى نظرية السياق عند فيرث .

وبهذا يخالف الدكتور تمام حسان أول مبدأ من مبادىء الوصفية ، كما دعا لها وبشر بها ، يقول فى مقدمة الكتاب : « مجال هذا البحث اللغة العربية الفصحى بفروع دراستها المختلفة ، فليس هذا الكتاب كتابا فى فرع معين من فروع هذه الدراسات ، ولكنه يجول فيها ويأخذ من كل فرع منها ما يراه بحاجة الى معاودة العلاج على طريقة تختلف اختلافا عظيما أو يسيرا عن الطريقة التى ارتضاها القدماء ، ثم ينتهى أخيرا الى نتيجة مختلفة أيضا »(١٠٩) .

نحن اذا أمام دراسة تقوم على دراسات سابقة ، ولسنا أمام وصف جديد للغة العربية الكلاسيكية أو اللغة العربية المعاصرة ، أو كما يقول : « والغاية التى أسعى وراءها بهذا البحث أن ألقى ضوءا كاشفا على التراث اللغوى العربى كله منبعثا من المنهج الوصفى فى دراسة اللغة »(١١٠) .

ولان المنهج الوصفى ليس من مهامه الاساسية اعادة النظر فى نماذج وصفية أو تحليلية أخرى وانما يقوم على دراسة اللغة المنطوقة والمستعملة فعلا ، يرى الدكتور تمام حسان فى عمله هذا تطبيقا من لون

---

(١٠٨) د. تمام حسان ، اللغة العربية مبناها ومعناها ، المقدمة .
(١٠٩) اللغة العربية مبناها ومعناها ، ص ٩ .
(١١٠) المرجع السابق ، ص ١٠ .

جديد للنظرية الوصفية ، يقول : «وهذا التطبيق الجديد للنظرية الوصفية في هذا الكتاب يعتبر مع التحلى بما ينبغى لى من التواضع ، أجرأ محاولة شاملة لاعادة ترتيب الأفكار اللغوية تجرى بعد سيبويه وعبد القاهر .

أما سيبويه وعبد القاهر ، فلم يكن عملهما من قبيل اعادة الترتيب ، وانما كان عملهما أصيلا غير مسبوق بمثله . فقد أقام سيبويه عمله على أصول نظرية تمثلت فى النموذج البصرى ، أما عبد القاهر فهو ينطلق من نظرية أسلوبية هى نظريته فى النظم ، وكلاهما انطلق فى عمله من مستوى استعمالى معين ، سيبويه من كلام العرب وعبد القاهر من القرآن الكريم، أما الدكتور تمام فينطلق كما يقول من كتب النحو والصرف التقليدية ، ومعنى هذا انه يرى أن اللغة العربية الفصحى هى ما فى كتب النحو والصرف ، مع أن علماء اللغة المحدثين يجمعون على أن وصف لغة ما ووضع نموذج وصفى لها شىء ، واللغة فى ذاتها شىء آخر ، أو بعبارة أخرى ، أن ما فى كتب النحو والصرف ، هو تصور علماء اللغة القدماء عما يجرى داخل اللغة العربية وتراكيبها وفق نظرية لغوية معينة ، وليس هو اللغة العربية ذاتها لاننا نستطيع وضع أكثر من نموذج لوصف لغة ما ، وهو ما فعله القدماء ، عندما وصف البصريون العربية وخالفهم الكوفيون فى جوانب من هذا الوصف . ومن ثمة فنحن أمام نموذج قديم يعاد النظر فيه ، لا أمام نموذج جديد كما أطلق الدكتور تمام على دراسته تلك « نموذج اللغة العربية مبناها ومعناها » فى مقابل النموذج البصرى والكوفى ، والنموذج التحويلى أيضا[١١١] .

والنتيجة أن اللغة العربية ، لم تكن هى مجال البحث كما قال[١١٢] بل ما فى كتب النحو والصرف ، أو بصفة خاصة ، أن النموذج البصرى كان هو مجال البحث . ومعنى هذا اننا لسنا بصدد نموذج جديد ينطلق

---

(١١١) د. تمام حسان ، اعادة وصف اللغة العربية السنيا . مقال منشور فى أعمال ندوة اللسانيات واللغة العربية المنعقدة فى تونس فى الفترة من ١٣ – ١٩ ديسمبر ١٩٧٨ ، ص ١٤٥ – ١٨٤ .

(١١٢) اللغة العربية مبناها ومعناها ، ص ٩ .

من مادة لغوية مسموعة أو من مستوى استعمالى معين ، يحاول وصفه وتصنيفه ، وانما نحن ـ كما قلت ـ أمام قراءة جديدة للتراث اللغوى العربى ، ومحاولة اعادة تصنيفه وفق نظرية يحددها الدكتور تمام بأنها نظرية المعنى . يقـول : « واذا كان مجال هذا الكتاب هو الفروع المختلفة لدراسة اللغة العربية الفصحى ، فلابد أن يكـون المعنى هـو الموضوع الاخص لهذا الكتاب ، لان كل دراسة لغوية ، لا فى الفصحى فقط ، بل فى كل لغة من لغات العالم ، لابد أن يكون موضوعها الاول والاخير هو المعنى ، وكيفية ارتباطه بأشكال التعبير المختلفة . فالارتباط بين الشكل والوظيفة ، هو اللغة ، وهو العرف ، وهو صلة المبنى بالمعنى ، وهـذا النوع من النظر الى المشكلة يمتد من الاصوات الى الصرف الى النحو الى المعجم الى الدلالة »[١١٣] .

وبالرغم من أننى أرى ما يراه الدكتور تمام من أهمية بالغة لدور المعنى فى اللغة ، الا أن بعض المدارس اللغوية ـ كما رأينا من قبل ـ مثل مدرسة بلومفيلد ـ لم تر هـذا الرأى وأقامت تحليلها اللغـوى على أسـاس من الشكل الخالص ، واقتصرت مهمتها على التـوزيع والتصنيف[١١٤] . ومعنى هذا أن كل دراسة لغوية قد لا ترى بالضرورة أن المعنى هو محور موضوعها الاول ، ومع ذلك فان قضية المعنى كانت المنطلق التى بدأت منه الدراسات اللغوية التقليدية ، التى يتخذ منهـا الدكتور تمام أساسا لدراسته . فغاية التحليل اللغوى أو الاعراب من حيث هو بيان لوظائف ، كانت عند القدماء هى المعنى . ولعل من أقدم النصوص التى بين أيدينا حول دور الاعراب فى أداء المعنى ، ما أورده الزجاجى فى كتابه الايضاح ، حيث عرض لموقف المؤيدين لدور المعنى فى الاعراب والرافضين له ، ولكن الرأى القائل بدور الاعراب فى أداء المعنى هو الذى ساد فى أمهات الكتب النحوية[١١٥] .

---

(١١٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة .
(١١٤) راجع الفصل الاول من هذا الباب .
(١١٥) الايضاح فى علل النحو ، صفحات ٧٠ ، ٧٧ ـ ٨٢ .

فابن جنى يعرف الاعراب بقوله : « هو الابانة عن المعانى بالالفاظ»[١١٦] والى مثل ذلك ذهب أصحاب الشروح والمختصرات[١١٧] . ولذلك قال الزجاجى ، ان البصريين والكوفيين قد أجمعوا على دور الاعراب فى أداء المعنى ، وان اختلفا فى مدى تطبيقه[١١٨] . ومعنى هذا أن المبدأ الذى ينطلق منه الدكتور تمام فى قراءاته الجديدة للتراث اللغوى ، هو نفس المبدأ الذى صدر عنه هذا التراث ، وهو كما قال ابن جنى ، الابانة عن المعانى ، ومع ذلك يقرر الدكتور تمام ، أن الدراسات اللغوية العربية اتسمت بسمة « الاتجاه الى المبنى اساسا ولم يكن قصدها المعنى الا تبعا وعلى استحياء » . ذلك أن المعنى عنده له مفهوم خاص يختلف عن مفهوم المعنى عند القدماء ، يقول : «والدراسات اللغوية الحديثة اهتمام خاص بدراسة المعنى ، يقويه ويدعمه أن المعنى فى نظر هذه الدراسات صدى من أصداء الاعتراف باللغة كظاهرة اجتماعية ، ونتيجة لتشابك العوامل المختلفة فى اطار سياق الثقافة الشعبية من عادات وتقاليد وفولكلور وأغان ومناهج عمل وطرق معيشة وهلم جرا ... ومن هنا دعت الحاجة الى المنهجية الى تشقيق المعنى الى ثلاثة معان فرعية ، أحدها : المعنى الوظيفى ، وهو وظيفة الجزء التحليلى فى النظام ، أو فى السياق على حد سواء . والثانى المعنى المعجمى للكلمة ، وكلاهما متعدد ومحتمل خارج السياق ، وواحد فقط فى السياق والثالث المعنى الاجتماعى ، وهو معنى المقام ، وهو أشمل من سابقيه ، ويتصل بهما عن طريق المكانة لانه يشملهما ليكون بهما وبالمقام معبرا عن معنى السياق فى اطار الحياة الاجتماعية .... وهذا التشقيق هو ما أسهمت به الدراسات اللغوية الحديثة فى محاولة الكشف عن المعنى اللغوى وسنحاول فى هذا الكتاب أن نطبقه على اللغة العربية الفصحى[١١٩] .

هذا هو مفهوم المعنى عند الدكتور تمام ، كما أجمله فى مقدمة كتابه،

---

(١١٦) الخصائص ١/٣٥ .
(١١٧) أنظر مثلا : شرح المفصل ١/٥١ .
(١١٨) الايضاح ، ص ٧٧ وما بعدها .
(١١٩) اللغة العربية مبناها ومعناها ، ص ٢٨ ـ ٢٩ .

وكما فصله تفصيلا فى الفصل الاخير منه[١٢٠] . وهو كما نرى مفهوم منتزع انتزاعا مباشرا من نظرية السياق Context of situation عند فيرث[١٢١] . ومع ذلك ، فهو لا يكاد يختلف عن مفهوم المعنى فى التراث العربى الا من ناحية التنظير ، وأقول ، التراث العربى لا اللغوى وحده ، لان هذا الادراك لحقيقة المعنى وتشقيقاته ، نراه مبثوثا بصور شتى فى التراث العربى من تفسير وأصول وبلاغة ونحو وصرف ، ذلك لان قضية الاعجاز القرآنى ، كانت وراء ذلك كله . ولذلك نرى عبد القاهر الجرجانى يحدد النظم وفق هذا التشقيق فى المعنى مع الاشارة الى العلاقات المختلفة بين المعنى الوظيفى والمعنى المقامى فى عبارة جامعة ، يقول فيها : «واذا عرفت أن مدار النظم على معانى النحو وعلى الوجوه والفروق التى من شأنها أن تكون فيه ، فاعلم أن الفروق والوجوه كثيرة ليس لها غاية تقف عندها ، ونهاية لا تجد لها ازديادا بعدها . ثم اعلم أن ليست المزية بواجبة لها فى أنفسها ، ومن حيث هى على الاطلاق ولكن تعرض بسبب المعانى والاغراض التى يوضع لها الكلام ثم بحسب موقع بعضها من بعض ، واستعمال بعضها مع بعض »[١٢٢] .

وفى موضع آخر ، يشقق الجملة أو الخبر كما يقول ، الى عناصره المقالية والسياقية المرتبطة بالمرسل والمستقبل ، ليؤكد أن المعنى الذى يدركه الفكر هو محصلة هذه العناصر جميعا ، يقول : « واذا ثبت أن الجملة اذا بنى عليها حصل منها ومن الذى بنى عليها فى الكثير معنى يجب أن ينسب الى واحد مخصوص ، فان ذلك يقتضى لا محالة أن يكون للخبر فى نفسه معنى ، هو غير المخبر به والمخبر عنه ، ذلك لعلمنا باستحالة أن يكون للمعنى المخبر به نسبة الى المخبر ، وأن يكون المستنبط والمستخرج والمستعان على تصويره بالفكر »[١٢٣] .

---

(١٢٠) المرجع السابق ، ص ٣٣٦ وما بعدها .
(١٢١) راجع الفصل الاول من هذا الباب .
(١٢٢) دلائل الاعجاز ، ص ٦٠ .
(١٢٣) المصدر السابق ، ص ٣٥٢ .

ويدل هذا على أن المعنى أو المضمون النهائى للكلام الذى يدركه الفكر أو العقل ينحل عند عبد القاهر الى عناصر هى :

١ ــ المرسل ، وهو الناطق بالكلام ومنشئه •

٢ ــ المستقبل ، الذى يقوم بحل الشفرة اللغوية وادراك معناها •

٣ ــ المخبر به ، وهو الكلام المنطوق من حيث هو تركيب لغوى •

٤ ــ المخبر عنه ، وهو المعنى ، أو ما يدور حوله الحديث بين المرسل والمستقبل •

ثم يأتى بعد ذلك العقل أو الفكر ، سواء عند المرسل أو المستقبل ، ليستعان به على ادراك المستنبط من الخبر •

وكل هذا يتصل بالسياق ، وعناصره وارتباطه بالمعنى ارتباطا مباشرا• ومعنى هذا أن نظرية المعنى وارتباطها بالسياق ، لم تكن بعيدة عن علماء العربية من لغويين وبلاغيين وفقهاء • ومن الغريب حقا أن ما قرره الدكتور تمام فى مقدمة كتابه هذا من أن الدراسة اللغوية عند العرب تتجه أساسا الى المبنى ، ولم يكن قصدها المعنى الا على استحياء ، يعود فينقضه فى آخر كتابه ، وهو يثبت لعلماء البلاغة العرب ، سبقهم لعلماء اللغة فى العصر الحديث ، فى ادراك نظرية السياق ، وهو ما اعتبره أيضا فى مقدمة الكتاب نتيجة من النتائج التى أسفر عنها البحث اللغوى الحديث • يقول : « وحين قال البلاغيون لكل مقام مقال ، ولكل كلمة مع صاحبتها مقام ، وقعوا على عبارتين من جوامع الكلم يصدقان على دراسة المعنى فى كل اللغات ، لا فى العربية الفصحى فقط ، وتصلحان للتطبيق فى اطار كل الثقافات على السواء • ولم يكن مالينوفسكى وهو يصوغ مصطلحه الشهير Context of situation يعلم أنه مسبوق الى مفهوم هذا المصطلح بألف سنة أو ما فوقها ان الذين عرفوا هذا المفهوم قبله سجلوه فى كتب لهم تحت اصطلاح المقام ، ولكن كتبهم هذه لم تجد من الدعاية على المستوى العالمى ما وجده اصطلاح مالينوفسكى »[١٢٤] •

---

(١٢٤) اللغة العربية مبناها ومعناها ، ص ٣٧٢ •

أما عن اهتمام النحاة بدراسة المعنى فيقول : « ولم يكن أقل من هاتين العبارتين صدقا فى تحليل اللغة بصفة عامة ، ما سبق النحاة العرب اليه من قولهم الاعراب فرع المعنى ، فهذه أيضا ، واحدة من جوامع الكلم اذا فهمنا بالاعراب معنى التحليل لان كل تحليل لا يكون الا عند فهم المعنى الوظيفى لكل مبنى من مبانى السياق »[١٢٥] .

ومعنى هذا كله ، أن « كتاب اللغة العربية مبناها ومعناها » يقوم على دعامتين هما :

١ ـ الدراسات اللغوية العربية كما تتمثل فى كتب النحو والصرف والبلاغة .

٢ ـ النظر الى هذه الدراسات من خلال قضية المعنى كما تتمثل أساسا فى نظرية السياق عند فيرث .

فاذا سلمنا بما سبق ذكره ، من أن اللغة شىء ، ودراسة اللغة وفق نظرية معينة ، ووضع نموذج لها شىء آخر ، خرجنا بنتيجة واحدة هى أن اللغة العربية الفصحى لم تكن موضوع الكتاب ، وانما الدراسات اللغوية العربية التقليدية ، كانت المنطلق الاول الذى بنى عليه دراسته ، وهو تسليم غير مباشر بقبول الدكتور تمام للمستوى اللغوى الذى أقام عليه القدماء درسهم للعربية ، وهو ما أخذه عليهم أيضا ، يقول : «والمعروف أن النحاة درسوا لهجات عربية متعددة ليستخرجوا منها نظاما نحويا موحدا، وأنهم فوق ذلك درسوا هذه اللهجات فى أطوار متعددة من نموها ، ولم يفطنوا الى ضرورة الفصل بين مرحلة ومرحلة أخرى من تطور اللغة ... فأخذوا شواهدهم من فترة لغوية دامت أكثر من خمسة قرون كاملة »[١٢٦] .

---

(١٢٥) المرجع السابق ، نفس الصفحة .
(١٢٦) اللغة العربية مبناها ومعناها ، ص ١٤ ، وأنظر أيضا ، اللغة بين المعيارية والوصفية فى مواضع مختلفة .

أما قضية المعنى ، وهى الدعامة الثانية ، التى أقام عليها دراسته ، فقد رأينا كيف كان القدماء يصدرون عنها وان بثوا وعيهم بها فى عبارات جامعة ونظرات تحليلية جزئية ، وخاصة عند علماء البلاغة ، دون التنظير المألوف فى النظرية اللغوية الحديثة .

فاذا كانت المادة قديمة ، والنظرية أيضا ذات أصول قديمة ، فما الجديد فى هذا الكتاب ، حتى يعده صاحبه نموذجا جديدا لوصف اللغة العربية فى مقابل النموذجين البصرى والكوفى كما يقول ؟[١٢٧] .

اذا استبعدنا الجوانب النظرية فى كل فصل من فصول الكتاب ، وهى غالبا ما تتناول بعض مفاهيم النظرية اللغوية الحديثة ومصطلحاتها وجدنا الكتاب يخلص الى تقسيم يختلف حقا عن تقسيم القدماء للدرس النحوى والصرفى ، فهو يلتزم فى اعادة الترتيب ، كما يقول ، بفكرة المستويات Levels أو النظام System التى استقر عليها المفهوم البنيوى الوصفى فى دراسة اللغة ، وهى فكرة لم يلتزم بها القدماء فعلا . وفيما يلى سنحاول النظر فى فصول الكتاب وفق هذه المستويات .

١ — النظام الصوتى :

يخصص الدكتور تمام الفصلين الثانى والثالث من الكتاب لدراسة هذا المستوى ، وهو يفصل فى هذه الدراسة بين ما أسماه « الاصوات » فى الفصل الثانى[١٢٨] وبين ما أطلق عليه « النظام الصوتى » أو «علم الصوتيات فى الفصل الثالث »[١٢٩] . وهو يقصد بمصطلح الاصوات ما تشير اليه النظرية اللغوية الحديثة بمصطلح Phonetics أى الدراسة الصوتية التى تقوم على الملاحظة والتسجيل والوصف للجوانب

---

(١٢٧) د. تمام حسان : اعادة وصف اللغة العربية السنيا ص ١٤٥ وما بعدها .

(١٢٨) اللغة العربية مبناها ومعناها ، ص ٤٦ — ٦٣ .

(١٢٩) المرجع السابق ، ص ٦٦ — ٧٩ .

الفسيولوجية والنطقية والسمعية والآثار المصاحبة لها دون النظر الى وظائف الاصوات داخل اللغة •

أما « النظام الصوتى » أو « علم الصوتيات » فيقصد بهما ما تشير اليه النظرية اللغـوية الحديثة أيضا بمصطلح الفونولوجيا Phonology وهو دراسة الأصوات من حيث هى نظام داخل لغة معينة وهذه الاصوات لها وظائف مميزة ولكنه يستخدم مصطلح الصوت للدلالة على الوحدة الصوتية فى دراسته للاصوات ويستخدم مصطلح الحرف للدلالة على الفـونيم Phoneme ، أى الوحدة الصوتية على مستوى النظام الصوتى من حيث التشكيل والوظيفة •

وما من شك فى أن النظـرية اللغوية الحـديثة ، تفـرق بين هذين المستويين من دراسة اللغة ، كما فعل الدكتور تمام ، ولكن على المستوى النظرى ، دون التطبيق على لغة معينة ، حيث يضطر الباحث دائما الى التحرك والانتقال بين هذين المستويين وهو يدرس أصوات لغة ما(١٣٠) • ومع أن الدكتور تمام يرى أن دراسة الاصوات مقدمة لابد منها لدراسة النظام الصوتى « الفونولوجيا » الا أنها كما يقول : لا تعتبر بحـال جزءا من دراسة اللغة ••• أى أنها تقع خارج دائرة الدراسات القاعدية Grammatical بالمعنى الضيق »(١٣١) • وهـو الرأى الـذى نادت به مدرسة براج حينما اعتبرت الدراسات الفونتيكية أقرب الى العـلوم الطبيعية منها الى العلوم اللغوية ، ومع ذلك يعود مرة أخرى فيقرر أن علم الصوتيات « الفونولوجيا » ينبنى على دعامتين رئيسيتين هما :

١ ــ معطيات علم الاصوات ، أى مجموعة الملاحظات المسجلة التى تقرر أن اللغة المدروسة تشتمل على عدد معين من الاصوات •

٢ ــ طائفة المقابلات بين الاصوات من حيث المخارج والصفـات

---

(١٣٠) Crystal : Op. Cit., p. 182.

(١٣١) اللغة العربية مبناها ومعناها ، ص ٦٦ •

والوظائف وهذه المقابلات هى جهة الاختلاف بين كل صوت وآخر ، أما من حيث المخرج أو الصفة أو هما معا ، وتسمى القيم الخلافية[١٣٢] .

ومعنى هذا أن الفصل الذى رآه من قبل بين هذين المستويين ، غير موجود أصلا وخاصة عند دراسة لغة معينة ، وهو يقدم كتابه هذا على أنه دراسة تطبيقية على اللغة العربية الفصحى ، وبالتالى فـان الفصل ليست له مبررات علمية واضحة ، ناهيك عن التداخل الاصطلاحى بين « الأصوات » و « النظام الصوتى » و « علم الصوتيات » .

أما المصطلحات الاساسية الاخرى التى استخدمها فى دراسة هذين المستويين فهى :

١ ـ الصوت .

٢ ـ الحرف .

٣ ـ القيم الخلافية .

وهو يستخدم مصطلح الصوت ليدل به على « عملية حركية يقوم بها الجهاز النطقى وتصحبها آثار سمعية معينة تأتى من تحـريك الهواء فيما بين مصدر ارسال الصوت وهو الجهاز النطقى ، ومركز استقباله وهو الاذن »[١٣٣] .

أما مصطلح الحرف ، فهو يدل عنده على الصوت عندما يقع فى اطار وظيفى أو تشكيلى[١٣٤] أو هو كما يقول جزء من تحليل اللغة فى حين أن الصوت جزء من تحليل الكلام[١٣٥] ، أى أن الحرف عنده هو ماتدل عليه النظرية الحديثة بمصطلح الفونيم . ومن المعروف أن مصطلح الحرف فى الاستعمال العربى يصدق على الصامت Consonant وعلى الصائت

---

(١٣٢) راجع الفصل الاول من هذا الباب .
(١٣٣) اللغة العربية مبناها ومعناها ، ص ٣٤ ، ٦٧ .
(١٣٤) المرجع السابق ، ص ٦٦ ، ٧٣ ، ٧٤ .
(١٣٥) المرجع السابق ، ص ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٤ .

Vowel وعلى الحرف المكتوب Letter وعلى الكلمة والقافية أيضا[١٣٦] . ومن ثم فهو لا يصلح للتمييز الدقيق بين الصوامت والصوائت من حيث هى فونيمات ، لذلك يضطر الدكتور تمام الى استعمال مصطلح «الحروف الصحاح» و «حروف العلة» و «حروف المد» حتى لا يحدث هذا اللبس .

أما مصطلح القيم الخلافية فهو يتصل بفكرة الملامح المميزة Distinctive Features من ناحية ، وبفكرة التوزيع التقابلى Contrastive Distribution من ناحية أخرى[١٣٧] ، أو كما يقول دكتور تمام : « انها القيم التى تتمايز بها وظائف الاصوات فى الكلمات»[١٣٨] . فالصحة والعلّة ، كما يقول ، والجهر والهمس والترقيق والاطباق وغيرها ، هى قيم خلافية ، أو ملامح مميزة لكل فونيم من فونيمات اللغة ، وفى الوقت نفسه يقف كل منهما فى مقابل الاخر وينتج عن هذا التقابل قسط من المعنى . ومثل ذلك أيضا فى القيم الاستبدالية ، عن طريق احلال فونيم محل فونيم آخر فى كلمة ما . وبناء على هذه المعايير ينهى الدكتور تمام دراسته للنظام الصوتى بوضع جدول «للنظام الصوتى للفصحى المعاصرة»[١٣٩] كما يقول : وهنا نجد تحديدا جديدا للمستوى اللغوى الذى يدرسه الكتاب ، وكان من قبل اللغة العربية الفصحى وفروع دراستها ، أما النظام الصوتى فهو للفصحى المعاصرة .

٢ ـ النظام الصرفى :

يقوم النظام الصرفى فى كتاب اللغة العربية مبناها ومعناها على ثلاثة أصول هى :

---

(١٣٦) راجع د. محمود السعران ، علم اللغة ص ٢٦ ـ ٣٢ وانظر أيضا مقدمة رسالته لدرجة الدكتوراه بعنوان :
A critical study of the phonetic observations of the Arab grammarians
نسخة مكتوبة على الالة الكاتبة محفوظة بمكتبة كلية الاداب ـ جامعة الاسكندرية .

(١٣٧) اللغة العربية مبناها ومعناها ص ٧٢ ـ ٧٤ .

(١٣٨) المرجع السابق ، ص ٧٤ .

(١٣٩) المرجع السابق ، ص ٧٩ .

١ ــ المعانى الصرفية التى يرجع بعضها الى أقسام الكلام وبعضها الاخر الى تصريف الصيغ •

٢ ــ الصيغ الصرفية التى يتمثل بعضها فى الصيغ المجردة ويتمثل بعضها فى زوائد تلحق بالكلمات ، كما تتمثل فى دلالة بعض الادوات •

٣ ــ مجموعة من العلاقات تتمثل فى وجوه الارتباط بين المعنى وعدد من القيم الخلافية أو المقابلات ، وهى وجوه الاختلاف بين هذه المبانى•

ويستعمل الدكتور تمام حسان مصطلح « المبانى الصرفية » ليدل به على مصطلح المورفيمات Morphemes ، غير أنه يجد أن مصطلح المبانى الصرفية لا يكفى للدلالة على المعانى الصرفية الوظيفية فى بيــان طبيعة هذه المورفيمات فيضيف اليه مصطلحا آخر ويعده من مورفيمات اللغة العربية ، وهو مصطلح « مبانى التقسيم » وهى المبانى التى تنــدرج تحتها الصيغ الصرفية المختلفة التى يصب فى قالبها كل قسم من أقسام الكلام • فكل الصيغ الصرفية التى الاسماء بأنواعها والصفات والافعال تندرج تحت معانى التقسيم هذه ، ويلحق بها الضمائر وأسماء الاشارة والموصولات والظروف والخوالف والادوات ، بالرغم من أنها تختلف عن مبانى التقسيم ، اذ ليست لها مبان صرفية أو صيغ تجرى عليها ، أى أننا بعبارة أخرى أمام نوعين من المورفيمات ، أحدهما يعتمد على الجذر والصيغة ، مثل المشتقات وما فى حــكمها ، والاخر لا جــذر ولا صيغة له ، وهو غير المشتق • يضاف الى هذه المورفيمات بنوعيها طائفة أخرى من العلاقات تتمثل فى جوانب الارتباط بين المبانى الصرفية وماتدل عليه طائفة أخرى من القيم الخلافية أو المقابلات التى تتمثل فى وجوه الاختلاف بين هذه المبانى وهذه العلاقات • وجوانب الارتباط هذه تمثل نوعا آخر من المورفيمات لايظهر فى المعنى ولكن تدل عليه الصيغ الصرفية أحيانا ، كما تدل عليه أحيانا أخرى المقابلة بين بنية لغوية معينة وأخرى• فمثلا الفعل « ضرب » على صيغة « فعل » ، وهذا المبنى مع المعنى وهو الفعلية والمعنى يعطى معانى التقسيم • أما معانى التصريف فتتمثل من حيث المبنى فى استتار الفاعل ، ومن حيث المعنى فى الاسناد الى الغائب•

أما الضمير فهو ، من حيث معانى التقسيم ، يظهر مبناه فى صورة الضمير نفسه ، ومعناه فى الدلالة على الاضمار • أما من حيث معانى التصريف، فصورة الضمير ، من حيث المبنى ، هو ضمير رفع منفصل ، ومن حيث المعنى ، تدل على الافراد والتذكير والغيب • وبناء على هذه المعايير المختلفة ، وضع الدكتور تمام جدولا تمثلت فيه المورفيمات المختلفة للغة العربية ، ووزعها وفق هذه التقسيمات(١٤٠) •

وبغض النظر عن بعض المصطلحات التى كانت تحتاج الى ايضاح أكثر مثل مبانى التقسيم وصور الضمير وغير ذلك ، فان جميع ما ذكره من هذه التقسيمات ، تندرج كما قلت ، تحت مفهوم المورفيم• فالمورفيم اما أن يكون مورفيما حرا Free Morpheme مثل : كتاب وقلم وأنا وهو ••• الخ أو مورفيما مقيدا Bound Morpheme وهو عنصر لغوى لا يستخدم منفردا ، وانما يستخدم عادة مع مورفيم حر مثل ألف الاثنين وواو الجماعة وياء المضارعة وتاء التأنيث وغيرها ، أو مورفيما صفريا Zero morpheme وهو مورفيم يدل عدم وجوده على وجود مورفيم محذوف أو مستتر أو مقدر مثل الضمائر المستترة والصيغ فى المشتقات والاسناد فى الجملة •

ومهمة هذه المورفيمات بأنواعها الثلاثة تنحصر فى ثلاث وظائف أساسية هى :

١ ــ التعريف أو التحديد • Identification (١٤١)

٢ ــ التصنيف Classification

٣ ــ التوزيع Distribution

ومعنى هذا ان اضافة مورفيم الى مورفيم آخر ، أو نزعه منه ، أو

---

(١٤٠) اللغة العربية مبناها ومعناها ، ص ٨٤ ــ ٨٥ •

(١٤١) Crystal, Op. Cit., p. 192-195.

وتحديد هذه المورفيمات فى أى لغة ، أى اننا نستطيع من خلال التحليل المورفولوجى أن نصل الى ثلاثة عناصر تحدد طبيعة المورفيم فى هـذه اللغة وهى :

١ ــ بنية المورفيم ، أو صورته الصوتية •

٢ ــ معنى هذه البنية ، سواء أكان وظيفيا أم دلاليا •

٣ ــ وظيفة المورفيم النحوية •

وبناء على هذا نجد أن مبانى التقسيم ومعانى التصريف وغير ذلك من المصطلحات التى استخدمها الدكتور تمام لا تكاد تخرج عن واحـد من المورفيمات السابقة ، كلها أو بعضها ، مثال ذلك :

فى الفعل : ضرب ، يمكن تحليله مورفولوجيا على النحو التالى :

١ ــ مورفيم حر يتمثل فى الجذر ض ر ب •

٢ ــ مورفيم صفرى يتمثل فى الصيغة (فعل) التى تدل على المعنى والفعلية •

٣ ــ مورفيم صفرى آخر هو الضمير المستتر ، ويدل على الاسناد للغائب •

٤ ــ مورفيم مقيد يتمثل فى حركة الفتح التى تدل على البناء •

وفى الاسم : الكتاب ، يمكن تحليله على النحو التالى :

١ ــ مورفيم مقيد يتمثل فى الالف واللام التى تدل على التعريف•

٢ ــ كتاب مجردة من التعريف ، مورفيم آخر •

٣ ــ مورفيم صفرى يتمثل فى صيغة فعال،التى تدل على الاسمية•

وفى الضمير : هــو

١ ــ مورفيم حر يدل على الانفصال والتذكير والافراد والغيبة •

٢ ــ مورفيم صفرى يتمثل فى علاقة البناء •

٣ ــ مورفيم صفرى يتمثل فى حالة الاعراب ، أى الرفع •

وفى الحرف : فى وهو مورفيم حر يدل على الظرفية ، وصفرى يدل على البناء •

ومعنى هذا أن المورفيم قد يكون مقطعا واحدا أو عدة مقاطع ، وأحيانا يكون فونيما واحدا ، يضاف الى ذلك المورفيم الصفرى الذى لا يتمثل فى بنية ، بل يستدل على وجوده من المعنى الوظيفى أو الاستتار أو الحذف • بل ان النبر والتنغيم والوقف تمثل عناصر مورفولوجية • ومعنى هذا أن استقصاء مورفيمات اللغة العربية وحصرها هو عمل صرفى ونحوى فى آن واحد ومن ثم تصبح قضية تحديد أقسام الكلام فى حاجة الى اعادة النظر،لانها تقوم أساسا على مفهوم الكلمة من حيث هى عنصر لغوى مستقل وهو ما لم يسلم به الوصفيون ، وعلى رأسهم الدكتور تمام حسان • اذ أن مصطلح الوظيفة عند علماء اللغة لا ينصرف فقط الى الوظيفة النحوية ، أو الى وظيفة المورفيم فى التركيب وانما يتجاوزه الى ما يسمى بالتحليل الوظيفى للكلام وهو يتناول كافة مستويات اللغة ، حيث ينظرون الى العلاقات التركيبية من الفونيمات الى الجمل ، ولكن الدكتور تمام حسان أبقى على فكرة تقسيم الكلام الى أقسام ، فأصبحت عنده تنقسم الى : اسم وفعل وصفة وضمير وخالفة وظروف وأداة(١٤٢) • وهذا التقسيم يقوم على أساس وظيفى ، أى على مفهوم المورفيم ودوره سواء على المستوى الصرفى أو النحوى ، حيث يظهر من التحليل المورفولوجى الذى أشرنا اليه من قبل ما يلى :

١ ــ بيان الوظائف أو العناصر المورفولوجية •

٢ ــ بيان الوظائف النحوية،وهى وثيقة الصلة بالوظائف الصرفية، كما فى اللغة العربية •

---

(١٤٢) اللغة العربية مبناها ومعناها ، ص ٨٦ وما بعدها •

غير أن بيان الوظيفة النحوية قد يتم عن طريق الموقعية أحيانا ، كما فى مثل : ضرب عيسى موسى ، كما يتم أيضا عن طريق بيان وظائف حركات الاعراب من حيث هى مورفيمات • وبيان الوظائف النحوية والصرفية للمورفيمات تبين فى ذات الوقت وظيفة هامة لهذه المورفيمات وهى تكوين العلاقات النحوية • ومعنى هذا كله أن الوظيفة اللغوية للمورفيم سواء أكان حرا أم مقيدا أم صفريا هى المحصلة من استخدامه على مستوى التركيب •

ولكن الدكتور تمـام حسان لا يمضى مع التحليل المورفولوجى الى نهايته فى بيان وتصنيف العناصر المورفولوجية فى اللغـة العربية ، وانما مزج بين فكرة تقسيم الكلام الى أقسام ، وهو تصور تقليدى ، يقوم على وحدة لم يعترف بوجودها الوصفيون فى الكلام وهى الكلمة ، وبين التحليل المورفولوجى وفكرة المورفيم التى حلت محل مفهوم الكلمة فى النظرية اللغوية الحديثة •

٣ ــ النظام النحوى :

وهو يتصل بوضع وتركيب الكلمات داخل وحدة لغوية أكبر تسمى فى النحو التقليدى الجملة • وقد أقام الدكتور تمام تحليله للمسـتوى النحوى على فكرة التعليق التى استقاها من عبد القاهر الجرجانى ، أو العلاقات السياقية حيث تنشأ علاقات من التوافق والاختلاف أو التناظر ، تحكمها شبكة من القرائن تتحول فيها المورفيمات الى نظام من العلاقات تتجاوز أفقيا من ناحية ورأسيا من ناحية أخرى • أما العلاقات السياقية فتقوم على قرائن معنوية وقرائن لفظية ، وكل ذلك يتصل بالمبنى أو ما يسميه الدكتور تمام المعنى المقـالى ، وهو يقابل السياق اللغـوى Linguistic context عند فيرث(١٤٣) •

---

(١٤٣) راجع الفصل الاول من هذا الباب ، وانظر أيضا : اللغـة العربية معناها ومبناها ، ص ١٩١ •

وتتمثل القرائن المعنوية عنده فيما يلى :

١ ــ قرينة الاسناد ، أى العلاقة الرابطة بين المبتدأ والخبر والفعل والفاعل .

٢ ــ قرينة التخصيص مثل التعدية فى المفعول بل ، والمعية فى المفعول معه ، والظرفية .

٣ ــ قرينة المخالفة مثل المنصوبات التى يتغير المعنى برفعها .

٤ ــ قرينة النسبة وهى معانى حروف الجر التى تنسب بها معانى الأفعال الى الاسماء .

٥ ــ قرينة التبعية مثل النعت والتوكيد والعطف والبدل[١٤٤] .

أما القرائن اللفظية فتتمثل فيما يلى :

العلامة الاعرابية ــ الرتبة ــ مبنى الصيغة ــ المطابقة ــ الربط ــ التضام ــ الاداة ــ النغمة[١٤٥] .

وهذه القرائن المعنوية واللفظية تؤدى عنده الى فكرة « تضافر القرائن » وهى التى تؤدى الى وضوح المعنى الوظيفى النحوى ، أو المعنى المقالى . ويرى أن هذه الفكرة تغنى عن نظرية العامل[١٤٦] ، أى أن المعنى النحوى عنده لا يظهر الا من خلال عدد من القرائن حراسة للمعنى من خلال المبنى أو ما أسماه القدماء بأمن اللبس .

ولكن هذه القرائن سواء اللفظية أم المعنوية ، يمكن بالتحليل المورفولوجى الكامل للغة العربية أن تدخل فى اطار المورفيمات بأنواعها الثلاثة ، فهى بمجموعها معان وظيفية نحوية وصرفية ناتجة عن توزيع هذه المورفيمات وفق علاقات تركيبية[١٤٧] . ففى جملة مثل : ضرب زيد

---

(١٤٤) اللغة العربية مبناها ومعناها ، ص ١٩١ ــ ٢٠٢ .
(١٤٥) المرجع السابق ، ص ٢٠٥ ــ ٢٣٠ .
(١٤٦) المرجع السابق ، ص ٢٣١ .
(١٤٧) Palmer, Grammar, pp. 119-123.

عمرا ، نجـد أن القرائن اللفظية والمعنوية أيضـا تتحقق من خـلال مورفيمات الصيغة والاعراب والبناء والرتبة والاسناد وغيرها ، وهى مورفيمات بعضها لفظى والبعض الاخر صفرى أى لاتتحقق لفظا ولكنها تقوم بوظيفة لغوية واضحة •

ومعنى هذا أن التحليل النحوى عند الدكتور تمام كما هو أيضا عند فيرث شبكة من العلاقات السياقية المقالية أو اللفظية تبدأ من الفونيمات ثم المورفيمات وتنتهى الى التركيب فى وحـدة أكبر ، وهـذه العلاقات اللفظية أو المعنوية تقوم على مبدأ توزيعى تنشأ منه علاقات توافق أو اختلاف أو تناظر بين العناصر اللغوية المكونة للتركيب ، وهى جزء من هذه العلاقات السياقية • ولكن تحليل هذه العلاقات ورصدها وتصنيفها لا يؤدى الا الى المعنى المقالى فقط ويتبقى بعد ذلك جزء هام من المعنى لا يكتمل الا بالسياق الاجتماعى Context of situation وهو الشق الثانى من نظرية السياق عند فيرث ، وبه يكتمل المعنى • وقد رأينا من قبل أن فكرة السياق هـذه لم تكن بعيدة تماما عن عقول علماء اللغـة العربية القدماء •

٤ ـ النظام الدلالى :

قبل أن يتطرق الدكتور تمام الى دراسة النظام الدلالى يمهد لذلك بفصلين أحدهما يتناول فيه الظواهر السياقية[١٤٨] والثانى يتناول فيه المعجم[١٤٩] ، وهو يقصد بالظواهر السياقية ما يحـدث على المستوى الصوتى من تغيرات تطـرأ على بعض فونيمـات اللغة العـربية نتيجة لوقوعها فى سياقات صوتية معينة • والقانون الذى يحكم هذه الظواهر هو كراهية التقاء صوتين يتنافى التقاؤهما مع أمن اللبس ، أو مع ذوق العـربية الفصحى فى الصياغة ، ومن ثمة تحدث ظواهـر مثل الوقف والاعلال والابدال والادغام والحذف والتسكين والاشـباع والاضعاف

---

(١٤٨) اللغة العربية مبناها ومعناها ، ص ٢٦٢ وما بعدها .
(١٤٩) المرجع السابق ، ص ٣١٢ وما بعدها .

والنبر والتنغيم • ويرى الدكتور تمام أن اللغة العربية الفصحى تحرص على التقاء المتخالفين ، أو بعبارة أخرى تحـرص على التخالف وتكره التنافر والتماثل ، لانهما يؤديان الى اللبس ، بينما يعين التخالف على أمن اللبس عن طريق المقابلات أو الفروق بين المتخالفين ، أى بواسطة القيم الخلافية(١٥٠) •

ومبدأ القيم الخلافية قانون عام يسرى على معظم اللغات الانسانية، ولا تنفرد به اللغة العربية ، ولذلك أشار كثير من علماء العربية القدماء الى كثير من الظواهر الصوتية التى تحدث سعيار وراء القيم الخلافية مثل تقارب المخارج أو بعدها ودورها فى تأليف الكلام والوقف وعلاقته بتمام المعنى جزئيا أو كليا وحركة المناسبة والاعلال والابدال ، ولكن الدكتور تمام حسان ينفرد بالحديث عن ظاهرتين لم يتطرق اليهما القدماء وهما ظاهرتا النبر والتنغيم ، فرصد بعض الفروق السياقية الناتجة عن تغير مواضع النبر والتنغيم بين القاعدة والاستعمال ، حيث رأى أن اللغة العربية الفصحى لاتعطى النبر معنى وظيفيا على مستوى الكلام(١٥١) •

ولاشك أن هذه الظواهر جميعا هى جزء من النظام الصوتى للغـة العربية ، ومن ثم فان مكانها الطبيعى كان مع هذا النظام ، اذ هى جزء منه • ولان الدكتور تمام يفرق بين النظام والكلام ويرى أن النظام تجريد للكلام فى حين أن الكلام تطبيق للنظام • وهذه الظواهر لاتحدث الا على مستوى الكلام ، أى فى سياق • ولكن هذه الظواهر من حيث اطرادها فى الكلام تعد جزءا من النظام الصوتى للغة ، فهى فى الواقع ظواهر فونولوجية،ومن ثم يصبح النظام الفونولوجى هو المكان الطبيعى لرصدها ، بل وتجريدها بما لها من صلة بالنظام الصوتى •

ثم ينتقل بعد ذلك الى المعجم ، ويرى أنه ليس نظاما من أنظمة اللغة، لانه لا يحتوى على شبكة من العلاقات والقيم الخلافية ، ولكنه بالنسبة

---

(١٥٠) المرجع السابق ص ٢٦٤ وما بعدها •
(١٥١) المرجع السابق ، ص ٣٠٨ •

للغة هو المصدر الذى يزودها بالكلمات • والكلمات داخل المعجم صامتة ومتعددة الدلالة ، ولكنها داخل النظام اللغوى ذات دلالات محددة عند المتكلم ، واذا كان المعجم من حيث هو قائمة للمفردات وليس نظاما من أنظمة اللغة ، كما قرر الدكتور تمام ، فان المعنى المعجمى هو جـزء من النظام الدلالى للغة ، ولذلك يعرف علماء المعاجم علم الدلالة بأنه ذلك الفـرع من عـلم اللغة الذى يقوم بدراسـة وتحليل المعنى المعجمى Lexical meaning (١٥٢) • وصدد هذا يفرقـون بين عـلم المعاجم من حيث هو فرع من فروع علم اللغة يقوم بدراسة وتحليل مفردات أى لغة وبين الفرع التطبيقى له أى فن صناعة المعاجم(١٥٣) • هذا على مستوى العلم وتجريداته ، أما على مستوى النظام الدلالى فقد رأى علماء اللغة المعاصرون ، أن التركيب كمـا يتم بين عناصر أو وحدات فونولوجية أو مرفولوجية يتم أيضا بين وحدات أو عناصر دلالية ، هى : السـيميمات Sememes ، أى أن المعنى المعجمى للكلمات يمكن أن يحلل الى وحدات،كما تحلل البنية فونولوجيا ومورفولوجيا ، وهو ما يفسر استقـامة بعض التراكيب نحويا واضطرابها دلاليا • ولعل جملة مثل :

The colourless green ideas sleep furiously

أى الافكار الخضراء العديمة اللون تنام بغضب ، تعد من أشهر الجمل التى تداولها علماء اللغة المعاصرون للدلالة على هذا النوع من التراكيب الصحيحة نحويا والمضطربة دلاليا(١٥٤) •

وقد تناول الدكتور تمام حسان فى حديثه عن المعجم هذين الجانبين من علم المعاجم ، النظرى والعملى ، غير أنه وقف بالجانب النظرى عند دراسة المعنى داخل المعجم ، دون التركيب الذى يظهر فى الحقيقة النظام الدلالى للغة • وبذلك ينتهى من حديثه حول الظواهر السياقية والمعجم ليقرر أن التعدد والاحتمال للمعنى الوظيفى أولا ، ثم للمعنى المعجمى ثانيا ، يشيران الى ضرورة عدم الاكتفاء بالمعنى المقالى ، مهما توافرت

---

(١٥٢) Zgusta, Manual of lexicography, p. 23.
(١٥٣) Ibid., 129.
(١٥٤) Lyons, semantics, Vol. 2, p. 386.

القرائن المعنوية واللفظية ، لان هـذه القرائن لا تغنى بأى حـال عن القرائن الحالية التى نستمدها من المقام Context of situation وما يمكن أن يستمد منه من القرائن هى التى تعين على تحديد المعنى. وفكرة المقام هذه ــ كما يقول ــ هى المركز الذى يدور حوله علم الدلالة الوصفى . والواقع أن علم الدلالة الوصفى لا يقوم كله حول فكرة المقام ، وانما نظرية فيرث من بين النظريات الوصفية التى تعطى للمقام هذه الاهمية البارزة فى التحليل اللغوى .

وفكرة المقام عند الدكتور تمام هى نفسها فكرة المقام عند فـيرث بعناصرها المختلفة ، الذى صاغ من فكرة السياق نظرية علمية قد تلتقى فى بعض جوانبها مع آراء القـدماء ، ولكنها بلاشـك تختلف من حيث التنظير والتطبيق مما جعل منها نظرية لغوية كاملة فى دراسة المعنى بما له من صلة بالمبنى .

هذه هى أول دراسة تطبيقية للمنهج البنيوى الوصفى ، لا أقـول على اللغة العربية ، وانما على الدراسات اللغوية العربية ، أو هى كما قال الدكتور تمام حسان ، محاولة لاعادة ترتيب الافكار اللغوية التقليدية من خـلال المنهج الوصفى ، أو بمعنى أدق من خـلال نظرية فيرث مع اقتباس بعض المفاهيم والمصطلحات وطرق التحليل من المدارس الوصفية الاخرى ، مثل مدرسة براج وغيرها . ومن ثم فان هذه المحاولة ليست نموذجا جديدا يقف أمام النموذج البصرى وانما هى فى الحقيقة دراسة نقدية مع اعادة ترتيب ولكن شمولها واعادة الترتيب وفق المنهج البنيوى الوصفى يجعلها تنفرد بميزات خاصة عن الدراسات الوصفية الاخرى ، التى كانت غالبا ، تكتفى بالنقد دون محاولة اعادة الترتيب أو تكتفى بتناول جزئيات أو جوانب محددة من مستويات اللغة العربية ، ولا تنظر هذه النظرة الشاملة التى نراها فى كتاب اللغة العربية مبناها ومعناها .

وبذلك لم تكن البنيوية الوصفية بين يدى علماء اللغة العربية المحدثين منهجا لمحاولة بناء نموذج جديد للغة العربية وانما كانت منهجا نقديا تتخذ من الدراسات اللغوية التقليدية موضـوعا لها . أما من الناحية

التطبيقية العملية فلم تستطع زحزحة النموذج التقليدى عن مجال تعليم اللغة العربية ، سواء فى المدارس أو الجامعات وانما ظلت حبيسة فى دراسات جامعية وأكاديمية(١٥٥) ، اذ ما زالت اللغة العربية تعلم حتى اليوم وفقا لمقولات النموذج التقليدى وتحليلاته.

ولعل من أهم الأسباب التى أدت الى ذلك هو طرح قضية الوصفية والمعيارية طرحا غير صحيح ، حتى استقر فى وعى كثير من الباحثين أن المعيارية تناقض الوصفية ، حقا أن الوصفية تنبذ كل موقف معيارى من اللغة ، فهى تمسك عن اصدار الاحكام سواء ما كان منها مدحا أو قدحا لانها لا تستند الى تصنيفات الصواب والخطأ ولا مقولة الحسن والقبيح فى حين أن المعيارية تستند الى مقولة الصواب والخطأ وتصدر الاحكام بشأن الاستعمال اللغوى . ولكن هل معنى هذا أن الوصفية والمعيارية متناقضتان بالمفهوم المطلق للتناقض ؟ الحقيقة أن الوصفية والمعيارية مقولتان لا تنتميان على صعيد المعرفة الى مبدأ واحد ، فهما ليستا من طبيعة واحدة حتى يتسنى مقارعة احداهما بالاخرى ومن ثمة فليس من اللازم أن تقوم بينهما علاقة تواز أو تصادم أو تطابق فكل منهما منهج مستقل عن الاخر(١٥٦) .

والفرق بينهما هو عين الفرق بين عالم اللغة ومعلم اللغة ، فعالم اللغة يفحص ويصف الظواهر اللغوية ويستقرىء خصائصها من خلال الاستعمال ويصنفها ويجردها ولا يسأل عن الجائز أو غير الجائز ، أما معلم اللغة فهو الذى يسأل عن الصواب والخطأ والجائز فى اللغة وغير الجائز . فالوصفية تستقرىء وتصف وتصنف وتفسر ، والمعيارية تقنن وتقعد وتضع مقاييس الصواب والخطأ وكان من نتيجة هذا الغموض توقف الوصفية عند حدود الدرس النظرى دون تطبيق وبخاصة فى مجال

---

(١٥٥) راجع الدكتور محمود فهمى حجازى : اتجاهات الدراسات اللغوية فى مصر المعاصرة ، ندوة اللسانيات واللغة العربية رقم ٤ الجامعة التونسية سنة ١٩٧٨ ، ص ٣٥ ـ ٤٠ .

(١٥٦) د. عبد السلام المسدى : اللسانيات وأسسها المعرفية ص ص ١٤ ـ ١٥ .

تعليم اللغة العربية ، فمازال معلم اللغة العربية يستخدم حتى اليوم مصطلحات الخليل وسيبويه وغيرهما من علماء اللغة العربية القدماء ، وكان هذا ومازال تحديا لعلم اللغة ، لانه لم يستطع بناء نموذج جديد يستمد منه معلم العربية وواضع كتب تعليمها الاصول والقواعد التى يعلم هذه اللغة بها ، كما لم تستطع أن تضع برنامجا لتكوين معلم اللغة العربية تكوينا علميا ولغويا يؤهله لتدريس اللغة القومية فمازالت عملية تعليم اللغة خاضعة للخبرة الشخصية للمعلم دون الاسس اللغوية الحديثة التى ينبغى أن يقوم عليها تعليم اللغة • ومع ذلك فلا يستطيع منصف أن ينكر رغم هذه الآثار السلبية الجانب الايجابى الذى قام به دعاة الوصفية فى الفكر اللغوى العربى الحديث • فقد استطاع عالم اللغة الوصفى أن يكشف عن جوانب علمية ايجابية فى التراث اللغوى العربى كما هيأ العقول لقبول وصف جديد للغة العربية يختلف عن النموذج التقليدى كما ربط هذا الاتجاه بين اللغة والمجتمع ودفع الى الفكر اللغوى فكرة تعدد المستويات اللغوية واختلافها من ناحية ، وترابطها من ناحية أخرى ، كما قطع شوطا بعيدا فى الدراسات الصوتية واللهجية القديمة والحديثة ، وبصورة عامة كان لدعاة الوصفية فضل فى نشر أصول ومبادىء الفكر اللغوى الحديث ووضح الباحثين والدارسين للغة العربية فى العالم العربى أمام تحد حضارى يتمثل فى تطور علم اللغة وضرورة اللحاق به ومتابعته ، وبذلك فتحوا أمامهم مجالا حضاريا كان لدعاة الوصفية فضل ارتياده واقتحامه ، فى وقت كان العالم العربى كله ، لا يدرى شيئا عما يسمى بعلم اللغة ، ولولا جهودهم فى هذا الصدد ما أصبح هذا العلم وفروعه الآن من المقررات الثابتة فى الجامعات العربية •

خـــاتمة ونتـــائج

وبعد ، فقد حاول هذا البحث أن يتتبع بداية اتصال الفكر اللغوى العربى بميادين ومناهج من التفكير فى اللغة والبحث فيها لم تكن ضمن أصول تراثه اللغوى فى الصورة التى هى عليها فى الفكر اللغوى الغربى• وحددت ذلك فى التفكير اللغوى البنيوى،أو فى علم اللغة البنيوى من حيث هو الاطار العام للنظرية اللغوية الحديثة منذ دى سوسير وحتى ظهور نظرية تشومسكى ، وجعلت ظهور هذه النظرية وانتشارها فى نهاية العقد السادس من هذا القرن حدا فاصلا فيما يتصل بالفكر اللغوى العربى والغربى الحديث على السواء • على الرغم مما فيها من جوانب بنيوية واضحة ، كما أشرت فى مقدمة هذا البحث ، وذلك نظرا لان كثيرا من الدارسين والباحثين فى علم اللغة عندنا يعتبرونها حدا فاصلا بين مرحلة ومرحلة فى تاريخ الفكر اللغوى •

وتتميز هذه المرحلة التى درسها هذا البحث من تاريخ الفكر اللغوى العربى الحديث بأنها كانت مرحلة مواجهة حقيقية بين التراث اللغوى العربى الذى بدأ على يد أبى الاسود الدؤلى (ت ٦٧ هـ) وبين الفـكر اللغـوى الغربى المتسلح بنظريات علمية ومنـاهج تحليلية لم يألفها التراث اللغوى العربى ، وان ألم ببعض جوانبها بصورة أو بأخرى • ولان الفكر اللغوى هو جزء من التاريخ الحضارى لامة من الامم فكان من اللازم أن يتصدى باحث لدراسة هذه المرحلة الهامة من تاريخ الفكر اللغوى العربى الحديث وهى المرحلة التى أنشأت جيلا وكونت عددا من الباحثين يتصدرون الآن قاعات الدرس فى المعاهد والجـامعات العربية حاملين معهم أفكار هذه المرحلة ومبادئها •

ومن ثم فقد حاول هذا البحث أن يتتبع تلك المرحلة تتبعا يقوم على دعامتين احداهما تاريخية والاخرى لغوية تحليلية • ولكى يتحقق ذلك

فدرست كتبهم ومؤلفاتهم التى كتبوها بعد عودتهم ، ورصدت من خلال ذلك تيارات ثلاثة أساسية سارت فيها دعوتهم وهى :

١ ــ التيار النقدى للتفكير اللغوى العربى القديم •

٢ ــ الدعوة النظرية لاصول علم اللغة البنيوى •

٣ ــ تطبيق البنيوية الوصفية على اللغة العربية •

فتتبعت بالتفصيل كل تيار من هذه التيارات وبينت آثاره وما انتهى اليه من نتائج ايجابية وسلبية •

فاذا كان لى أن أرصد أهم النتائج التى أسفر عنها هذا البحث فهى تتمثل فى نتيجة سلبية ونتائج ايجابية • أما النتيجة السلبية فتتمثل فى فشل أصحاب دعوات التيسير والاصلاح فى دعوتهم لانها لم تقم على أصول لغوية أو نظرية تختلف عن الاصول التقليدية وانما كانت شيئا أشبه بتشويه الاصل ، أو الاتجاه الى الصورة وترك الاصل ، والاصل أولى بكما شاركهم فى هذا الفشل دعاة البنيوية الوصفية ، رغم استنادهم لاصول لغوية ونظرية جديدة نتيجة لحماسهم وطرحهم غير الدقيق لقضية المعيارية والوصفية • واشترك الفريقان معا فى عدم قدرتهم على زحزحة النموذج التقليدى الذى وضعه علماء العربية القدماء ، على الاقل ، فى مجال تعليم اللغة العربية فى المدارس والجامعات فى العالم العربى اذ مازال هذا النموذج حتى اليوم هو الدعامة الاساسية التى يقوم عليها تدريس العربية وتعليمها لابنائها •

أما النتائج الايجابية فيمكن اجمالها فيما يلى :

١ ــ أن دعاة البنيوية الوصفية قاموا بأول دراسة للتفكير اللغوى العربى التقليدى ، تقوم على أصول نظرية وعلمية مضبوطة • وكان من آثار هذه الدراسة بيان جوانب ايجابية وجوانب أخرى سلبية فى هذا التراث •

٢ ــ عرف الفكر اللغوى العربى الحديث ــ لا فى مصر وحدها ،

بل فى العالم العربى كله ـ نظريات وأصول علمية ومنهجية فى دراسة اللغة الانسانية وتحليلها ، لم يعرفها التراث العربى على هذا النحو من الدقة والضبط والموضوعية والشمول ، والفضل فى هذا يرجع ، أولا وأخيرا ، لهذا الجيل من دعاة البنيوية الوصفية فى مصر .

٣ ـ استقراء عدد من الاصول والمفاهيم العلمية فى دراسة اللغة بعامة ، واللغة العربية خاصة ، ما زالت توجه البحث اللغـوى العربى وجهة ذات أثر فعال فى الفكر اللغوى العربى الحديث .

٤ ـ وضع جيل من الدارسين والباحثين فى اللغة العربية تلمذ على دعاة الوصفية فى مصر والعـالم العربى أمام مواجهـة علمية تتمثل فى ضرورة متابعة التطورات الهائلة التى حدثت فى ميدان علم اللغـة من بعدهم . بل مازال عطاء بعضهم فى هذا الميدان ملهما لكثير من الدراسات والابحاث اللغوية .

فاذا كان ثمة جديد فى هذا البحث فاننى أزعم أنه أول دراسة حاولت أن تتبع بموضـوعية فترة من أخصب فترات الفـكر اللغوى العربى الحديث. فاذا كان قلمى قد زل بعبارة هنا أو عبارة هناك ، مما عن غير قصد كان ، فأنا واحد ممن يدينون لهذا الجيل من دعاة البنيوية الوصفية بالكثير . تلمذت على يد واحد منهم ، كما تعلمت من كتبهم وأبحاثهم. وهذا البحث هو ثمرة من ثمار غرسهم قصدت به وجـه الله والعلم ، والله من وراء القصد ، منه الهدى والتوفيق .

الفهـــــــارس

١ ـ فهرس المصادر والمراجع
٢ ـ فهرس الموضوعات

المصـــادر والمراجـــع

أولا ـ المصـادر والمراجع العربية

ابراهيم أنيس (دكتور)

■ الاصوات اللغوية
القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، الطبعة الرابعة ١٩٧١

■ دلالة الالفـــاظ
القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، الطبعة الثالثة ١٩٧٦

■ فى اللهجات العربية
القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، الطبعة الثالثة ١٩٦٥

ابراهيم بيومى مدكور (دكتور)

■ فى اللغة والادب
القاهرة ، دار المعـــارف ، سلسلة اقرأ (٣٣٧) ، ١٩٧٠

ابراهـــيم مصطفى

■ احياء النحـــو
القاهرة ، مطبعة لجنـة التاليف والترجمـة والنشر ١٩٣٧

أحمد مختار عمر (دكتور)

■ البحث اللغوى عند العرب
توزيع دار المعارف بمصر ١٩٧١

الانبارى ، عبد الرحمن بن محمد بن سعيد

■ الانصاف فى مسائل الخـــلاف ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد .
القـــاهرة ، مطبعة الســـعادة ، الطبعة الثـــالثة ١٩٥٥

برجشتراسر ، ج

■ التطور النحوى للغة العربية ، أخرجه وصححه وعلق عليه د. رمضان عبد التواب
القاهرة ، مكتبة الخانجى ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢ م

البغدادى ، عبد القادر بن عمر

■ خزانة الادب ولب لباب لسان العرب
القاهرة ، المطبعة السلفية ، ١٣٤٧ هـ

تمـام حســان (دكتور)

■ الاصــول
القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢

■ اعادة وصف اللغة العربية السنيا
بحث منشور فى أعمال ندون اللسانيات واللغـة العربية التى انعقدت فى تونس فى ديسمبر ١٩٧٨

■ اللغة بين المعيارية والوصفية
القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٨

■ اللغة العربية : مبناها ومعناها
القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣

■ مناهج البحث فى اللغة
الدار البيضاء ، دار الثقافة ، ١٩٧٩

الثعالبى ، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل

■ فقه اللغة وأسرار العربية
مصر ، المطبعة الادبية ١٣١٧ هـ

الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب

■ البيان والتبيين ، تحقيق وشرح الاستاذ عبد السلام هارون
القاهرة ، مكتبة الخانجى ، الطبعة الرابعة ١٩٧٥

أبو جعفر النحــاس

■ التفاحة فى النحو تحقيق كوركيس عواد
بغداد ، مطبعة العانى ١٣٨٥ هـ/١٩٦٥ م

ابن جنى

■ الخصائص ، تحقيق محمد على النجار
القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٣٧٤ هـ/١٩٥٥ م

حســن عــون (دكتور)

■ تطور الدرس النحوى
القاهرة ، معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧٠

■ اللغـة والنحو
الاسكندرية ، مطبعة رويال ، الطبعة الاولى ١٩٥٢

حـلمى خليـل (دكتور)

■ الكلمة ، دراسة لغوية ومعجمية
الاسكندرية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٠
■ المولد فى العـــربية
بيروت ، دار النهضة العربية ، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م

ابو حيان التوحيـدى

■ الامتاع والمؤانسة ، صححه وضبطه وشرح غريبه أحمـد أمين وأحمد الزين
بيروت ، دار مكتبة الحياة ، بدون تاريخ

خلف الاحمر ، خلف حيان

■ مقدمة فى النحو ، تحقيق عز الدين التنوخى
دمشق ، مطبوعات مديرية احياء التراث القديم
١٣٨٠ هـ/١٩٦١ م

الخليل بن أحمد الفراهيدى

■ كتاب العين ، تحقيق د. عبد الله درويش
بغداد ، مطبعة العانى ١٣٨٦ هـ/١٩٦٧ م

داود عبـده (دكتور)

■ أبحاث فى اللغة العربية
بيروت ، مكتبة لبنان ١٩٧٣

الزبيدى ، أبو بكر محمد بن الحسن الاندلسى

■ طبقات النحويين واللغويين تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم
القاهرة ، دار المعارف ، ذخائر العرب (٥٠) ١٩٧٣

الزجاجى ، أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحاق

■ الجمل ، اعتنى بتصحيحه وشرح أبياته الشيخ ابن أبى شنب
الجزائر ، مطبعة جول كريونل ، ١٩٢٦

زكريا ابراهيم (دكتور)

■ مشكلة البنية

سـعد مصـلوح (دكتور)

■ دراسة السمع والكلام
القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٨٠

السعيد بدوى (دكتور)

■ مستويات العربية المعاصرة فى مصر
القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٣

سـلامة موسى

■ البلاغة العصرية واللغة العربية
القاهرة ، المطبعة العصرية ، ١٩٥٣

ابن سـلام الجمحى

■ طبقات فحول الشعراء ، شرحه محمود محمد شاكر
القاهرة ، دار المعارف ، ذخائر العرب (٧) ١٩٥٢

سيبويه ، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر

■ الكتاب ، تحقيق عبد السلام هارون
القاهرة ، دار القلم الجزء الاول ١٣٨٥ هـ/١٩٦٦ م
دار الكاتب العربى ، الجزء الثانى ١٣٨٨ هـ/١٩٦٨ م

السيرافى ، أبو سعيد الحسن بن عبد الله

■ أخبار النحويين البصريين ، تحقيق طه محمد الزينى ومحمد عبد المنعم خفاجه
القاهرة ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى ، الطبعـة الاولى ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م :

السيوطى ، جلال الدين عبد الرحمن

■ الاتقان فى عـلوم القـرآن
بيروت ، دار الفكر ، نسخة مصورة عن نسخة المكتبة التجارية ١٣٦٨ هـ

■ الاقتراح فى أصول النحو ، تحقيق وتعليق د. أحمـد محمد قاسم
القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٣٩٦ هـ/١٩٧٦ م

■ بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة
تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم
القاهرة ، مطبعة عيسى البابى الحـلبى ، الطبعـة الاولى ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م

عبد الوارث مبروك سعيد

■ فى اصلاح النحـو العربى
الكويت ، دار القلم ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥ م

عبده الراجحى (دكتور)

■ فقه اللغة فى الكتب العربية
دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ١٩٧٢

■ النحو العربى والدرس الحديث
الاسكندرية ، مطبعة دار نشر الثقافة ١٩٧٧

ابن عقيل ، بهاء الدين عبد الله

شرح ابن عقيل على الالفية ، تحقيق محمـد محيى الدين عبد الحميد
مصر ، مطبعة السعادة ، الطبعة الخامسة ١٣٦٧هـ/١٩٤٧م

على عبد الواحد وافى (دكتور)

■ عـلم اللغـة
القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ، الطبعة الرابعة ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م

■ فقـه اللغـة
القاهرة ، دار نهضة مصر ، الطبعة السادسة ، بدون تاريخ.

فـؤاد زكـريا

■ جـذور البنـائية
الكويت ، حوليات كلية الآداب ، جامعة الكويت ـ العدد الاول

الفـراء ، ابو زكريا يحيى بن زياد

■ معانى القرآن،تحقيق أحمد يوسف نجاتى ومحمد على النجار
القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الجزء الاول ١٩٨٠

فندريس ، ج

■ اللغة ، ترجمة عبد الحميد الدواخلى و د. محمد القصاص
القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٠

كمـال بشر (دكتور)

■ دراسات فى علم اللغـة
القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ١٩٧١

■ علم اللغة العام (الاصوات)
القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ١٩٧١

لانسون مايبه

■ منهج البحث فى الادب واللغة،نقله الى العربية د٠محمد مندور
بيروت ، دار العلم للملايين ١٩٤٦

ليونز جـــون

■ نظرية تشومسكى اللغوية ، ترجمة د٠ حلمى خليل
الاسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٥

ابن مالك ، محمد بن عبد الله

■ متن الالفيــة
القـــاهرة ، مكتبــة ومطبعــة مصطفى البابى الحـــلبى ،
١٣٥٨هـ/١٩٤٠م

محمد أحمـــد برانق

■ النحـــو المنهجى
القاهرة ، مطبعة لجنة البيان العربى ، بدون تاريخ

محمـد الطنطـاوى

■ نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة
القاهرة ، دار المعارف الطبعة الخامسة ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م

محمد عبد المطلب (دكتور)

■ البلاغــة والاســلوب
القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤

محمد كامل حسين (دكتور)

■ اللغة العــربية المعــاصرة
القاهرة ، دار المعارف ١٩٧٦

محمد مهدى عـــلام (دكتور)

■ المجمعيون فى خمسين عاما
القاهرة ، مجمع اللغة العربية ، طبع الهيئة العامة لشئون
المطابع الاميرية ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م

محمـود السعران (دكتور)

■ علم اللغة ، مقدمة للقارىء العربى
الاسكندرية ، دار المعارف ، ١٩٦٢

■ اللغة والمجتمع رأى ومنهج
الاسكندرية ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ١٩٦٣

محمود فهمى حجازى (دكتور)

■ اتجاهات الدراسة اللغوية فى مصر المعاصرة
ندوة اللسانيات واللغة العربية
تونس ، العدد رقم (٤) ١٩٧٨

■ أصول البنيوية فى علم اللغة والدراسات الانثروبولوجية
الكويت ، مجلة عالم الفكر، المجلد الثالث ، العدد الاول ١٩٧٢

■ مدخل الى علم اللغـــة
القاهرة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٧٨

■ علم اللغـة العـربية
الكويت ، وكالة المطبوعات ، ١٩٧٣

مصطفى مندور (دكتور)

■ اللغة بين العقل والمغامرة
الاسكندرية ، منشاة المعارف ، ١٩٧٤

ابن مضـاء القرطبى

■ الرد على النحاة ، تحقيق د. شوقى ضيف
القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ١٩٨٢

ابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم

■ لسـان العـــرب
القاهرة ، الدار المصرية للتاليف والترجمة ، طبعة مصـورة عن طبعة بولاق

مهدى المخـزومى (دكتور)

■ فى النحو العربى ، قواعد وتطبيق
القاهرة ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى ، الطبعـة الاولى ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م

■ مدرسة الكوفة
القاهرة ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى ، الطبعـة الثانية ١٣٧٧هـ/١٩٥٨م

مونين جـــورج

■ تاريخ علم اللغة ، ترجمة د. بدر الدين قاسم
دمشق ، مطبعة جامعة دمشق ، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م

ابن النـديم

■ الفهـــرست
بيروت ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بدون تاريخ

نفوسة زكريا (دكتورة)

■ تاريخ الدعوة الى العامية وآثارها فى مصر
الاسكندرية ، دار نشر الثقافة ١٩٦٤

نهـــاد المـوس

■ نظرية النحو العربى فى ضوء مناهج النظر اللغوى الحديث
بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الطبعة الاولى ١٩٨٠

ابن هشام ، أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف

■ شرح شذور الذهب ، تحقيق محيى الدين عبد الحميد
القاهرة ، المكتبة التجارية ١٩٦٠

■ مغنى اللبيب عن كتاب الاعاريب
بدون مطبعة أو تاريخ

ياقوت الحموى ، شهاب أبو عبد الله بن عبد الله

■ معجم الادباء ، نشر د٠ أحمد فريد رفاعى
القاهرة ، دار المأمون فيما بين ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م ، ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م

ابن يعيش ، موفق الدين يعيش بن على

■ شرح المفصل
القاهرة ، المطبعة المنيرية ، بدون تاريخ

ثانيا ـ المراجع الاجنبية

Bloomfield Leonard.

Language
George Allen & Unwin, London 1950.

Crystal David.

Linguistics
Penguin Books, London, 1974.

De Saussure, Ferdinand.

Course in General Linguistics
Peter owen, London, 1964.

Ducrot Oswald Todorov, Tzvetan.

Encyclopedia Dict. of The Science of Lang.
Translated by Catherine Porter
Basil Blackwell Oxford 1981.

Firth, J. R

Paper in Linguistics.
Oxford University Press, Londonfl 1957.

Harris, Zellig. S.

Structural Linguistics
Phoenix Books, The University of Chicago Press, 1969.

Hartmann and Stork.

Dictionary of lang and ling.
London 1972.

Hudson, R. A.

Sociolinguistics.
Cambridge University Press London 1980.

Ivic milka.

Trends in linguistics.
Paris, Mouton, The Hague, 1970.

Kramsky, Jiri.

The word as a linguistic unit.
Mouton, The Hague, Paris, 1969.

فهرس الموضـــوعات

مقـــدمة	٧ ـ ١٢
الباب الاول «التفكير اللغوى العربى قبل البنيوية»	١٣ ـ ٨٩
الفصل الاول : التفكير اللغوى عند العـرب نشاته واصوله	١٥ ـ ٤٨
الفصل الثانى : العـــربية ودعوات الاصـلاح والتيسير	٤٩ ـ ٨٩
الباب الثانى : «الفكر اللغوى الحديث والبنيوية»	٩١ ـ ٢٤٢
الفصل الاول : البنيوية الوصفية	٩٣ ـ ١٣٧
الفصل الثانى : العربية وبداية الاتصال بالفكر اللغوى الحديث	١٣٩ ـ ١٦٦
الفصل الثالث : العـربية والبنيوية الوصفية	١٦٧ ـ ٢٤٢
خاتمة ونتائج	٢٤٣ ـ ٢٤٦
المصادر والمراجع :	٢٤٧ ـ ٢٦١
١ ـ المصادر والمراجع العربية	٢٤٩ ـ ٢٥٧
٢ ـ المراجع الاجنبية	٢٥٩ ـ ٢٦٠
٣ ـ الدوريات	٢٦١
فهرس الموضوعات	٢٦٣

Lyons, John.
Semantics
Cambridge University Press, London, 1977. Two rols.

Malinowski Bronislow.
The problem of meaning in primitive language.
Supp.ement I, in C.K. odgen & A. Richards. The meaning of meaning . New York 1923.

Muller May.
Lectures on the science of language, fourth ed. London 1864.

O'Cnnor, J. D.
Phonetics
Pelican Books, 1973

Palmer, Frank.
Grammar
Penguin Books, London, 1976.

Piaget, Jean.
Structuralism.
Translated and edited by Chaninah Maschler.
New York, Harper Colophone Books 1970.

Robins, R. H.
A short history of linguistics.
Longmans, London, 1967.

Al-Saaran Mahmoud.
A critical study of the phonetic observations of the Arab Grammarians. Ph. D. Thesis, London University 1951.
نسخة غير منشورة بمكتبة كلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية

Sapir Edward.
Langauge, An Introduction To The Study of Speech
New York. 1949.

Versteegh, C. H. M.
Greek elements in Arabic linguistic thinking.
Lieden, J. Brill, 1977.

Wardhaugh, Ronald.
Introduction To Linguistics.
New York, MeGrow-Hill, 1977.

Zgusta, Ladislav.
Manual of lexicography.
Mouton, The Hague, Paris 1971.

ثالثـا ـ الدوريات

مجـلة عـالم الفكـر

الكويت المجلد الثالث ، العدد الاول ، ١٩٧٢ م

مجـــلة فصـــول

القاهرة ، العدد الثانى ١٩٨١ م

مجـلة اللســـانيات

الجزائر ، المجلد الاول ، العدد الاول ١٩٧١م

المجلد الثانى ، العدد الاول ١٩٧٢م

مجلة مجمع اللغة العربية

القاهرة ، العدد الثامن ١٩٥٥م

مجـــلة الهـــلال

القاهرة ، عدد يوليو ١٩٢٦م

فهرس الموضـــوعات

مقـــدمة	٧ ـ ١٢
الباب الاول «التفكير اللغوى العربى قبل البنيوية»	١٣ ـ ٨٩
الفصل الاول : التفكير اللغوى عند العـرب نشأته وأصوله	١٥ ـ ٤٨
الفصل الثانى : العـربية ودعوات الاصـلاح والتيسير	٤٩ ـ ٨٩
الباب الثانى : «الفكر اللغوى الحديث والبنيوية»	٩١ ـ ٢٤٢
الفصل الاول : البنيوية الوصفية	٩٣ ـ ١٣٧
الفصل الثانى : العربية وبداية الاتصال بالفكر اللغوى الحديث	١٣٩ ـ ١٦٦
الفصل الثالث : العـربية والبنيوية الوصفية	١٦٧ ـ ٢٤٢
خاتمة ونتائج	٢٤٣ ـ ٢٤٦
المصادر والمراجع :	٢٤٧ ـ ٢٦١
١ ـ المصادر والمراجع العربية	٢٤٩ ـ ٢٥٧
٢ ـ المراجع الاجنبية	٢٥٩ ـ ٢٦٠
٣ ـ الدوريات	٢٦١
فهرس الموضوعات	٢٦٣